علــوم القــرآن

الدكتور عبد الله محمود شحاته



الكتاب : علوم القرآن

المؤلف : د / عبد الله شحاته

رقم الإيداع : ١٤٠٤٢

تاريخ النشر : ٢٠٠٢

الترقيم الدولي : I. S. B. N. 977 - 215 - 615 - 6

الناشر : دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
شركة ذات مسئولية محدودة

الإدارة والمطابع : ١٢ شارع نوبار لاظوغلي (القاهرة)

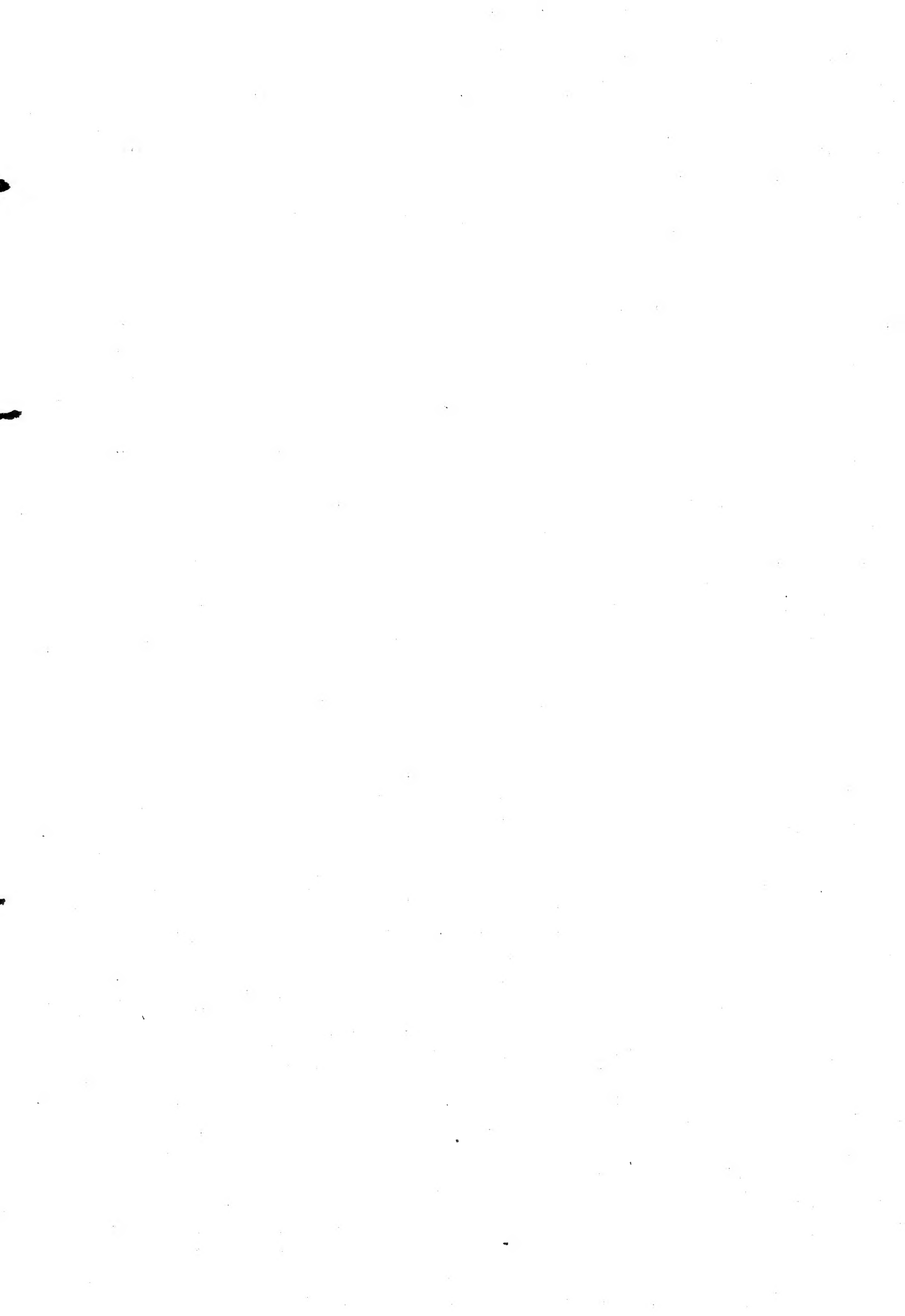
ت : ٧٩٤٢٠٧٩ فاكس ٧٩٥٤٣٢٤

التوزيع : دار غريب ٣،١ شارع كامل صدقي الفجالة – القاهرة

ت ٥٩٠٢١٠٧ – ٥٩١٧٩٥٩

إدارة التسويق والمعرض الدائم } ١٢٨ شارع مصطفى النحاس مدينة نصر – الدور الأول
ت ٢٧٣٨١٤٢ – ٢٧٣٨١٤٣

بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

فهذه دراسة ميسرة عن القرآن الكريم أقدمها فى مستهل القرن الخامس عشر الهجرى . تحية وأملا .. لقد كان القرآن مشعل النور والضياء ، كان روحا وحياة، وفكرا وعقيدة ، وأدبا وسلوكا ، وخلقا نظريا وعمليا .

وبفضل القرآن قامت الحضارة العربية الإسلامية وصار المسلمون خير أمة أخرجت للناس .

ومرت بالمسلمين قرون سود اتخذوا القرآن مهجورا ، ويتوثب المسلمون الآن لإحياء مجدهم واستعادة عزتهم وجمع كلمتهم . وطريق ذلك هو القرآن الكريم « فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم ، وهو الجد ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله » .

إن علوم القرآن بحر لا ساحل له، وصدق الله العظيم : ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ (الكهف : ١٠٩). وقد ألقيت بدلوى فى الدلاء، وتخيرت باقة نضرة من علوم القرآن تحدثت فيها عن الأمور الآتية :

١- الوحى وكتابة القرآن فى عهد النبى - صلى الله عليه وسلم - وفى عهد أبى بكر وعثمان، والمكى والمدنى، وفواتح السور ، ونزول القرآن .

٢- أسباب نزول القرآن ، وأهمية معرفتها .

٣- إعجاز القرآن ، وفنون هذا الإعجاز .

٤- القصة والمثل والقسم فى القرآن الكريم .

٥- بحوث أخرى عن الإسرائيليات وغيرها من المباحث التى تراها بين يديك .

وأسأل الله أن ينفعنا بالقرآن الكريم وعلومه وهدايته ونوره ، وأن يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا وشفاء صدورنا ... وصدق الله العظيم .

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ .

(سورة الإسراء : ٨٢)

الدكتور عبد الله محمود شحاته

أستاذ الشريعة بكلية دار العلوم

الفصل الأول

كتـابـة القــرآن

١- الوحى .

٢- كتابة القرآن فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم .

٣- القرآن فى عهد أبى بكر رضى الله عنه .

٤ - القرآن فى عهد عمر رضى الله عنه .

٥ - القرآن فى عهد عثمان رضى الله عنه .

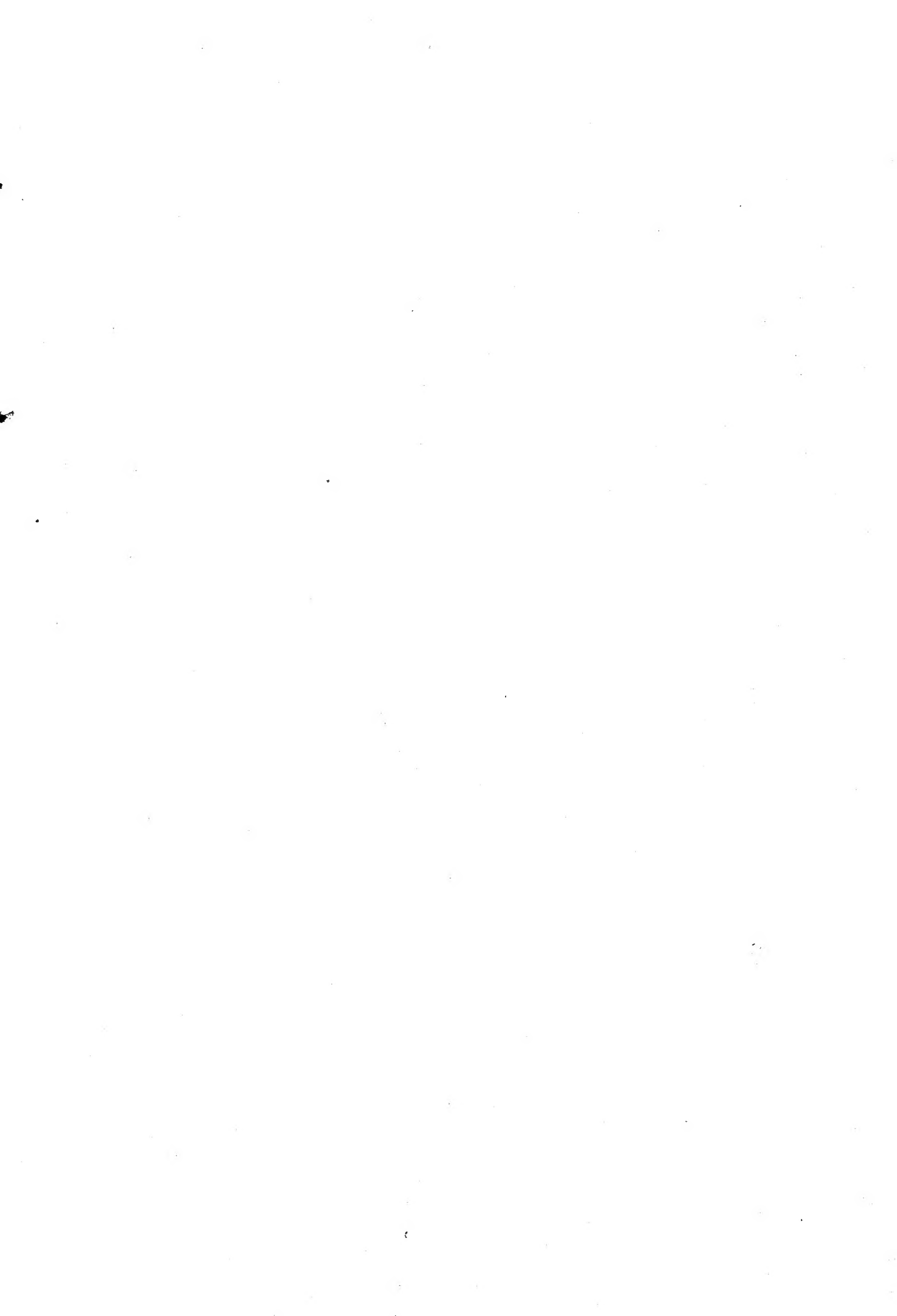
٦ - المكى والمدنى .

٧ - القرآن فى مكة .

٨ - القرآن فى المدينة .

٩ - فواتح السور .

١٠- نزول القرآن .



الوحى والقـرآن

الوحى :

روى البخارى فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها قالت :

« أول ما بدئ به رسـول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله يتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ ، فقال : ما أنا بقارئ، قال : فأخذنى فغطنى - أى ضمنى وعصرنى - حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى فقال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم. الذى علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم» ، فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد فقال : زملونى ، زملونى . فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر : « لقد خشيت على نفسى » فقالت خديجة : « كلا والله لا يخزيك الله أبدا : إنك تصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق » .

ثم انطلقت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ، وكان شيخا قد عمى وله اطلاع على كتب الأقدمين ، فقالت له خديجة : يا بن عم ، اسمع من ابن أخيك ، فأخبره النبى - صلى الله عليه وسلم - خبر ما رأى ، فقال له ورقة : قدوس ، هذا هو الناموس الذى أنزل على موسى ، ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك ، قال النبى

صلى الله عليه وسلم : « أو مخرجى هم؟» قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا ، ثم لم يلبث ورقة أن توفى، وفتر الوحى .

١- تعريف الوحى :

الوحى لغة : هو الإعلام فى خفاء .

وشرعا : إعلام الله تعالى من اصطفاه من عباده كل ما أراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية و العلم ، ولكن بطريقة خفية غير معتادة للبشر .

فالوحى بالمعنى اللغوى يتناول الإلهام الفطرى للإنسان ، كقوله تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ (سورة القصص : ٧)

وقوله : ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ (سورة المائدة : ١١١)

كما يتناول الإلهام الغريزى للحيوان ومنه قوله تعالى : ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ (سورة النحل : ٦٨) .

أما الوحى الإلهى إلى الأنبياء فهو خاص بإبلاغهم تعاليم السماء ، وهى ظاهرة متماثلة عند الجميع لأن مصدرها واحد وغايتها واحدة [1] ، ومن ثم عرفوه بأنه : (التعليم فى السر الصادر من الله تعالى الوارد إلى الأنبياء عليهم السلام) قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ (النساء : ١٦٣، ١٦٤) .

---

(١) تفسير الطبرى : ٦ / ٢٠ .

٢- صور الوحى :

أشار القرآن فى آية واحدة إلى صور ثلاث من صور الوحى : إحداها : إلقاء المعنى فى قلب النبى أو نفثه فى روعه .

وثانيتها : تكليم النبى من وراء حجاب ، كما نادى الله موسى من وراء الشجرة وسمع نداءه .

وثالثتها : إرسال ملك الوحى إلى نبى من الأنبياء ليلقى إليه ما كلف إبلاغه به، وذلك النوع هو أشهر الأنواع وأكثرها .

ووحى القرآن كله من هذا القبيل ، وهو المصطلح عليه بالوحى الجلى ، قال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (سورة الشورى : ٥١)

وقوله سبحانه : ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾

(سورة الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٤)

ثم إن ملك الوحى يهبط هو الآخر على أساليب شتى : فتارة يظهر للرسول فى صورته الحقيقية الملكية . وتارة يظهر فى صورة إنسان يراه الحاضرون ، ويستمعون إليه . وتارة يهبط على الرسول خفية فلا يرى ، ولكن يظهر أثر التغير والانفعال على صاحب الرسالة ، فيغيب غيبة كأنها غشية أو إغماء ، وما هى فى شىء من الغشية والإغماء ، إن هى إلا استغراق فى لقاء الملك الروحانى وانخلاع عن حالته البشرية العادية ، فيؤثر ذلك على الجسم ، فيثقل ثقلا شديدا ، قد يتصبب منه الجبين عرقا فى اليوم الشديد البرد ، وقد يكون وقع الوحى على الرسول كوقع الجرس إذا صلصل فى أذن سامعه ، وذلك أشد أنواعه . وربما سمع الحاضرون صوتا عند وجه الرسول كأنه دوى النحل ، لكنهم لا يفهمون كلاما ، ولا يفقهون حديثا . أما هو - صلوات الله وسلامه عليه - فإنه يسمع ويعى ما يوحى إليه ويعلم علما ضروريا أن هذا هو وحى الله دون لبس ولا خفاء ، ومن غير شك ولا

ارتياب ، فإذا انجلى عنه الوحى وجد ما أوحى إليه حاضرا فى ذاكرته ، منتقشا فى حافظته كأنما كتب فى قلبه كتابة .

قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾

(سورة النجم : ٣، ٤)

وروى البخارى فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس – وهو أشده – فيفصم عنى وقد وعيت منه ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول » .

قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فينفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقا .

٣- خاصة الوحى :

الوحى غيب من أمر السماء لا يملك أمره إلا الله ، وهو سر من أسرار الله ، يوحى به إلى عباده ، فهو معجزة إلهية يختص الله بها أنبياءه ورسله ، وهو أبعد شىء عن (التنويم المغناطيسى) وتسجيل الأصوات على الأشرطة أو نقلها عن طريق الهاتف و اللاسلكى ، كما أنه أمر متميز عن الإلهام والرؤيا الصادقة التى تقع لغير الأنبياء وكل أمر فى طاقة البشر .

قال المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز: « اعلم أن الوحى الشرعى بكل أنواعه يصاحبه علم من الموحى اليه بأن ما ألقى إليه حق من عند الله ليس من خطرات الأوهام ، ولا من نزعات الشيطان ، ولا يتولد من مقدمات ، بل هو من قبيل إدراك الأمور الوجدانية كالجوع والشبع ، والحب والبغض ، فإذا عرفت أن هذه خاصة الوحى بالمعنى الشرعى عرفت وجه اختصاصه بالأنبياء عليهم السلام ولم يشكل عليك الفرق بينه وبين بعض أنواعه من الإلهام والرؤيا الصادقة اللذين يقعان لغير الأنبياء ، كما ورد أن المؤمن ينظر بنور الله ، وأن الرؤيا الصادقة جزء من ستة

وأربعين جزءا من النبوة ، ذلك أن ما يقع للصالحين من الإلهامات ليس من العلوم اليقينية فى شىء وإنما هى سوانح مظنونة، وقد تلتبس فيها لمة الملك بلمة الشيطان ، فيحتاج الملهم إلى قرائن خارجية يعرف بها أى النوعين هى ، وكذلك الرؤيا الصادقة التى تتفق لكثير من البشر حتى الفساق والكفار ، ليست لها هذه الخاصية ، وإنما يقع ظن يصدقها لمن جرت عادته بذلك » [١] .

ومن يتل آيات القرآن يتضح أمامه أن الوحى من أمر السماء، وهو فضل من الله لعباده يختص به من يشاء ، قال تعالى : ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ (سورة القصص : ٨٦) .

وفى منظومة فنية يقول صاحب الجوهرة :

ولم تكن نبوة مكتسبة	ولو رقى فى الخير أعلى عقبة
بل ذاك فضل الله يؤتيه من	يشاء جل الله واهب المنن

وقد يتأخر الوحى عن النبى وهو أشد ما يكون شوقا إليه فلا يملك من أمر تعجيله شيئا .

توجه أهل مكة للنبى بعدة أسئلة عن الروح وعن أهل الكهف وعن ذى القرنين فقال لهم : غدًا أجيبكم، ونسى أن يقول إن شاء الله ، فتأخر الوحى خمسة عشر يوما حتى قال كفار مكة: إن إله محمد ودعه وقلاه . ولما نزل جبريل قال له النبى : « يا جبريل ما جئت حتى اشتقت إليك » ، فقال جبريل : لأنا أشد شوقا ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : «وما منعك من النزول ؟» فقرأ جبريل هذه الآية :

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ (سورة مريم : ٦٤)

---

(١) عبد الرحيم فودة : الوحى والقرآن : ٩ .

وعلم الوحى النبى تقديم المشيئة ليكون ذلك تعليما لأمته ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾ (سورة الكهف : ٢٣، ٢٤)

ثم تولى الوحى الإجابة عن الأسئلة فقال : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (سورة الإسراء : ٨٥) .

كما تحدث الوحى عن قصة أهل الكهف وقصة ذى القرنين .

وقد فتر الوحى عن رسول الله ، بعد نزول الآيات الأولى من سورة العلق ، وتأخر نزول الوحى بعدها ثلاث سنوات كان النبى يتحرق أثناءها شوقا للقاء جبريل، وكان يتألم أشد الألم خشية أن يكون تأخر الوحى عقابا من السماء على ذنب ارتكبه .

وبينما النبى صلى الله عليه وسلم يسير فوق رءوس الجبال إذ سمع صوتا من السماء ، فرفع بصره ، فإذا الملك الذى جاءه بحراء ، فرعب منه ورجع إلى زوجه خديجة فقال : « زملونى» فأنزل الله تعالى : « يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر» ثم حمى الوحى وتتابع [١] .

فنزول الوحى وانقطاعه أمران تملكهما السماء ، ولا يملك النبى تعجيل نزوله ولا تأخيره .

فإن الوحى لينزل على النبى فى الليل الدامس ، وفى البرد القارس ، وفى لظى الهجير ، وفى استجمام الحضر ، أو أثناء السفر ، وفى هداة السلم أو وطيس الحرب ، وحتى فى الإسراء إلى المسجد الأقصى ، والعروج إلى السموات العلا [٢].

٤- مدة الوحى :

بدأ نزول الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ١٧ رمضان سنة ١٣ قبل الهجرة النبوية ، وهو موافق لشهر يوليو (تموز) سنة ٦١٠م ، وكان عمره إذ ذاك

---

(١) البخارى .

(٢) البرهان : ١/ ١٩٨ .

أربعين سنة . واستمر نزول الوحى عليه ٢٣ عاما حتى لقى ربه فى ١٣ من ربيع الأول سنة ١١ هـ ، الموافق ٨ من يونيو (حزيران) سنة ٦٣٣ م ، وكان عمره إذ ذاك ٦٣ عاما .

فالمدة التى نزل فيها الوحى على النبى الكريم كانت ٢٣ عاما ، وهى تنقسم إلى قسمين متمايزين :

القسم الأول : فترة نزول الوحى بمكة ومدتها ثلاث عشرة سنة نزلت خلالها السور المكية وتمثل ١٩ / ٣٠ من القرآن أو ثلثى القرآن تقريبا .

القسم الثانى : فترة نزول الوحى بالمدينة ومدتها عشر سنوات نزلت خلالها السور المدنية وهى تمثل ١١/ ٣٠ من القرآن أو ثلث القرآن تقريبا .

وأول آية نزلت من القرآن هى : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (سورة العلق : ١).

وآخر آية نزلت منه هى قوله تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ (سورة المائدة : ٣) .

٥- العناية بالوحى :

تتابع نزول الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم خلال بعثته المباركة ، وحظى بعنايته وحفظه ، وروايته وقراءته ليلا ونهارا ، حتى كان يحرك لسانه بالقرآن وراء جبريل خشية أن ينسى منه شيئا ، فأمره الله ألا يعجل بقراءة القرآن حتى يتم نزول الوحى عليه، وطمأنه بأن الحق سبحانه وتعالى تكفل بحفظ كتابه كما تكفل بأن يحفظه فى قلب النبى صلى الله عليه وسلم وأن يلهمه قراءته وفهم معناه ، قال تعالى: ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ (سورة القيامة : ١٦ - ١٩) .

وكان أصحاب النبى من حوله يتسابقون إلى حفظ القرآن واستظهاره وقراءته فى غدوهم ورواحهم ، وكان يُسمع لهم دوى بالقرآن فى غسق الدجى كدوى النحل ، روى الشيخان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنى لأعرف أصوات رفقة

الأشعريين بالليل حين يدخلون، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار » [1] .

كما حظى القرآن بعناية المسلمين ودراستهم ليتمكنوا من قراءته فى الصلاة المكتوبة ليلا ونهارا ، سرا وجهرا ، وفى النوافل التى يتطوعون بها ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يساعدهم على هذه العناية ويرغبهم فيها ، بل كان عليه السلام يختار أعلمهم بكتاب الله ليفقه إخوانه .

« فكان الرجل إذا هاجر دفعه النبى صلى الله عليه وسلم إلى رجل من الصحابة يعلمه القرآن ، وكان يسمع لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ضجة بتلاوة القرآن حتى أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا » [2] .

ومن ذلك نرى أن القرآن كان محفوظا فى الصدور ، متلوا على الألسنة ، متعبدا به فى المساجد والمنازل ، وكان مسجلا فى قلوب جموع عديدة تهدر به أثناء الليل وأطراف النهار وتقرؤه فى الحرب والسلم ، وترى قراءته قربة إلى الله ومعرفة بدينه .

وقد ساعدهم على استيعاب القرآن نقاء فطرتهم ، وسرعة حفظهم ، وصفاء أذهانهم ، وكانت الأمية منتشرة ، فاستعاضوا عن ذلك بالحفظ والتلاوة .

ويرى ابن الجزرى « أن الاعتماد فى نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور لا على خط المصاحف والكتب ، أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة » . ويستدل على ذلك بالحديث الصحيح الذى رواه مسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن ربى قال لى : قم فى قريش فأنذرهم ، فقلت: أى رب إذن يثلغوا [3] رأسى حتى يدعوه خبزة . فقال : إنى مبتليك ومبتل بك ، ومنزل عليك كتابا لا يغسله الماء، تقرؤه نائما ويقظان ، فابعث جندا أبعث مثلهم ، وقاتل بمن أطاعك من عصاك وأنفق ينفق عليك » فأخبر الله أن القرآن لا يحتاج فى حفظه إلى صحيفة

---

(١) مناهل العرفان للزرقانى : ١/ ٣١٣ .

(٢) مناهل العرفان : ١/ ٢٣٤ .

(٣) ثلغ رأسه ، وفلقه : شدخه .

تغسل بالماء بل يقرأ فى كل حال كما جاء فى صفة أمته: « أناجيلهم صدورهم ، وذلك بخلاف أهل الكتاب الذين لا يحفظون إلا فى الكتب ولا يقرأونه كله إلا نظرا لا عن ظهر قلب »(١) .

* * *

ولعل من أسرار حفظ القرآن أن تتناقله المئات والألوف والملايين خلفا عن سلف ليكون وديعة الله الخالدة ، وصدق الله العظيم إذ يقول :

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (سورة الحجر : ٩) .

٦- فضل القرآن :

حظى القرآن بعناية الأمة خلفا عن سلف ، فإنه روح الشريعة وكتابها الخالد ، فالعناية به والمحافظة عليه سياج لهذا الدين وحفاظ عليه .

وذلك سر توجيه النبى لأصحابه بقراءة القرآن وترديده والعمل به .

وإليك ما ورد من آثار فى فضل القرآن المجيد والمحافظة على قراءته والعمل بما فيه .

وروى الترمذى عن الحارث الأعور عن على بن أبى طالب قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنه ستكون فتن كقطع الليل المظلم ، فقلت : ما النجاة منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله تبارك وتعالى ، فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم ، وحكم مابينكم ، وهو فصل ليس بالهزل ، من تركه تجبرا قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، والصراط المستقيم ، هو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يمله الأتقياء ، من علم علمه سبق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن اعتصم به فقد هدى إلى صراط مستقيم »(٢) .

* * *

---

(١) مناهل العرفان : ١/ ٢٣٥ .

(٢) مقدمتان فى علوم الحديث : تحقيق آرثر جفرى . ص ٢٥٦ مع إضافة سند الحديث ومعظم النصوص التالية فيه وفى كتب السنن .

وقال أنس بن مالك فى تفسير قوله تعالى : ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ (سورة لقمان : ٢٢) ، قال : هى القرآن .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتلوا هذا القرآن فإن الله عز وجل يأجركم بالحرف منه عشر حسنات أما إنى لا أقول الٓمٓ حرف ولكن الألف حرف ، واللام حرف ، والميم حرف » (١) .

وقال : « ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده » مسلم .

وقال : « الذى يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة ، والذى يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران » البخارى ومسلم .

وروى عثمان بن عفان رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه » البخارى .

وقال عبد الله بن مسعود : « إن كل مؤدب يحب أن يؤتى بأدبه ، وإن أدب الله القرآن » .

وقال بعض العلماء فى تفسير قوله تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (سورة يونس : ٥٨) قال : الإسلام والقرآن .

وقيل لعبد الله بن مسعود : إنك لتقل الصوم . فقال : إنه يشغلنى عن قراءة القرآن ، وقراءة القرآن أحب إلى منه .

ويروى أن أهل اليمن لما قدموا أيام أبى بكر الصديق سمعوا القرآن فجعلوا يبكون فقال أبو بكر : هكذا كنا ثم قست القلوب .

من هذه الآثار يتضح مدى حب المؤمنين لكتاب الله وتسابقهم لحفظه ، وبكائهم عند سماعه وتقربهم إلى الله بقراءته ، ولذلك ظل كتاب الله وحيا يتلى ،

---

(١) مقدمتان فى علوم القرآن : ص ٢٥٦ ، وقد ورد فى صحيح مسلم « من قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها » . الحديث .

ونورا يهتدى به، وهديا يطبق، وخلقا عمليا يتحلى به ، فليس المراد بقراءة القرآن ترتيل ألفاظه فحسب ، بل امتثال معانيه والتزام أوامره واجتناب نواهيه .

وفى تفسير قوله تعالى: « إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا » قال أحد الفقهاء : أى علم معانيه ، والعمل به ، والقيام بحقوقه .

وقد وردت الأحاديث النبوية توضح قيمة العمل وتبين آداب حملة القرآن والسمت الذى يجب أن يلتزموه .

روى الحاكم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه غير أنه لا يوحى إليه ، لا ينبغى لحامل القرآن أن يجد [١] مع من وجد ، ولا أن يجهل مع من جهل وفى جوفه كلام الله » .

وعن أبى ذر قال : يا رسول الله، أوصنى ، قال : « عليك بتقوى الله ، فإنها رأس الأمر كله ، قال : يا رسول الله ، زدنى ، قال: عليك بتلاوة القرآن فإنه نور لك فى الأرض ، وذخر لك فى السماء » ابن حبان .

لقد كان القرآن مدرسة خرجت هؤلاء الرجال فقادوا الدنيا وسادوا العالمين، وأرسوا معالم حضارة خالدة ، وصبغوا الدنيا بصبغة القرآن ، وتوجيه الرحمن ، وهدى محمد عليه الصلاة والسلام .

★ ★ ★

---

(١) يجد : يغضب ، ووجدت عليه موجدة : غضبت .

كتابة القرآن
فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم

١- العناية بالقرآن :

كانت همة الرسول وأصحابه متجهة أول الأمر إلى حفظ القرآن وجمعه فى القلوب والصدور ، وقد شغل المسلمون أنفسهم بقراءته فى صلاتهم وتهجدهم وسفرهم وحضرهم وليلهم ونهارهم ، وكان هناك جيش من القراء وجموع من المسلمين تقرأ القرآن آناء الليل وأطراف النهار .

ومع ذلك فإن عناية الرسول وصحابته بالقرآن فاقت كل عناية . فلم تصرفهم عنايتهم بحفظه واستظهاره عن عنايتهم بكتابته ونقشه . ولكن بمقدار ما سمحت لهم وسائل الكتابة وأدواتها فى عصرهم .

فها هو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اتخذ كتابا للوحى . منهم من كان يكتب فى بعض الأحيان ومنهم من كان منقطعا للكتابة متخصصا لها ، وكلما نزل شىء من القرآن أمرهم بكتابته مبالغة فى تسجيله وتقييده . وزيادة فى التوثيق والضبط والاحتياط فى كتاب الله تعالى حتى تظاهر الكتابة الحفظ ويعاضد النقش اللفظ .

وكان هؤلاء الكتاب من خيرة الصحابة . فهم : أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ومعاوية وأبان بن سعيد وخالد بن الوليد وأبى بن كعب وزيد بن ثابت وغيرهم . وكان صلى الله عليه وسلم يدلهم على موضع المكتوب من سورته فيكتبونه فيما يسهل عليهم من العسب « جريد النخل » واللخاف (الحجارة الرقيقة) وقطع الأديم (الجلد) والرقاع (من الورق والكاغد) وعظام الأكتاف والأضلاع ، ثم يوضع المكتوب فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهكذا انقضى العهد النبوى المبارك والقرآن مجموع على هذا النمط ، بيد أنه لم يكتب فى صحف ولا فى مصاحف، بل كان منثورا بين الرقاع والعظام ونحوها مما ذكرنا .

روى عن ابن عباس أنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزلت عليه سورة دعا بعض من يكتب فقال: « ضعوا هذه السورة فى الوضع الذى يذكر فيه كذا وكذا » .

وعن زيد بن ثابت قال : « كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نؤلف القرآن من الرقاع » .

ومعنى تأليف القرآن من الرقاع ، وضع كل آية فى سورتها حسب إرشاد النبى صلى الله عليه وسلم . وكان هذا الترتيب بتوقيف من جبريل عليه السلام، فقد ورد أن جبريل عليه السلام كان يقول : « ضعوا آية كذا فى موضع كذا » .

ولا ريب أن جبريل كان لا يصدر فى ذلك إلا عن أمر الله عز وجل ، فهو أمين على وحى السماء . قال تعالى : ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ (سورة الشعراء : ١٩٣ - ١٩٤)

٢- ترتيب الآيات توقيفى :

وترتيب الآيات فى سورها توقيفى من غير خلاف بين المسلمين [١] . فقد كان جبريل يراجع النبى بالقرآن ويدارسه إياه فى رمضان ويرشده إلى مكان كل آية ، وترتيب آيات كل سورة حتى لقى النبى صلى الله عليه وسلم ربه والقرآن محفوظ فى صدور المسلمين متواتر ، بطريقة أدائه وترتيب آياته .

وقال تعالى : « ورتل القرآن ترتيلا» وقد فسر بعضهم الترتيل بأنه قراءة القرآن حسب ترتيبه الوارد من غير تقديم ولا تأخير [٢] .

---

(١) الإتقان : ١/ ٩٩، البرهان : ١/ ٢٣٣ .

(٢) البرهان : ١/٢٥٩.

وأخرج البخارى فى صحيحه عن ابن الزبير قال : « قلت لعثمان : « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا » [1] قد نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها أو تدعها ؟» .

(المعنى : لماذا تثبتها بالكتابة أو تتركها مكتوبة وأنت تعلم بأنها منسوخة؟)

قال : « يا بن أخى لا أغير شيئا من مكانه » [2] .

فعثمان لا يجرؤ على تغيير آية من مكانها ولو ثبت له أنها منسوخة لأنه يعلم أن ليس له ولا لغيره دخل فى ترتيب آيات القرآن فإن هذا القرآن كلام الله ووحيه أنزله على نبيه بهذا النسق البديع ﴿لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ (سورة يونس : ٦٤) .

أخرج الإمام أحمد بإسناد حسن عن عثمان بن أبى العاص قال : كنت جالسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ شخص ببصره ثم صوبه ثم قال: أتانى جبريل فأمرنى أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ [3] إلى آخرها [4] .

وقد ورد فى الصحاح ما يثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان معنيا بإملاء القرآن على كتبة الوحى وغيرهم من الصحابة ومهتما بإعلامهم بطريقة الأداء وترتيب الآيات [5] .

وثبت أنه صلى الله عليه وسلم قرأ سورا عديدة بترتيب آياتها فى الصلاة وفى خطبة الجمعة بمشهد من الصحابة فكان ذلك دليلا صريحا على « أن ترتيب الآيات توقيفى وما كان الصحابة ليرتبوا ترتيبا سمعوا النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ على خلافه ، فبلغ ذلك مبلغ التواتر » [6] .

---

(١) سورة البقرة : ٢٣٤ .
(٢) صحيح البخارى : ٦/٢٩ ، الإتقان : ١/ ١٠٥ .
(٣) سورة النحل : ٩٠ .
(٤) الإتقان : ١/١٠٤ .
(٥) انظر مسند الإمام أحمد : ٣/ ١٢٠ ، ٤/ ٣٨١ ، والبخارى : كتاب تفسير القرآن، الباب الثامن عشر .
(٦) الإتقان : ١/ ١٠٥ .

٣- ترتيب السور :

اختلف العلماء فى ترتيب السور على ثلاثة أقوال :

القول الأول : أن ترتيب السور كان باجتهاد الصحابة ، بدليل أنه كانت هناك مصاحف لأعلام الصحابة تختلف فى ترتيبها عن المصحف العثمانى ، مثل مصحف أبى بن كعب ، وعبد الله بن مسعود ، وعلى بن أبى طالب .

فمصحف أبى بن كعب كان مبدوءا بالفاتحة ثم البقرة ثم النساء ثم آل عمران ثم الأنعام .

ومصحف على كان على ترتيب النزول فأوله : اقرأ ، ثم المدثر ، ثم ق ، ثم المزمل ، ثم تبت ، ثم التكوير ، وهكذا إلى آخر المكى والمدنى .

القول الثانى : أن ترتيب السور توقيفى تلقاه الصحابة عن رسول الله ، وتلقاه النبى عن جبريل ثم أثبته أبو بكر فى مصحفه وأثبته عثمان فى المصحف الإمام وتلقته الأمة بالقبول خلفا عن سلف .

القول الثالث : أن ترتيب بعض السور كان بتوقيف من النبى - صلى الله عليه وسلم - وترتيب بعضها الآخر كان باجتهاد الصحابة .

وقد ذهب إلى هذا الرأى فطاحل العلماء، قال القاضى أبو محمد بن عطية « إن كثيرا من السور قد علم ترتيبها فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم كالسبع الطوال والحواميم والمفصل ، وما سوى ذلك فيمكن أن يكون فوض الأمر فيه إلى الأمة بعده » .

* * *

وأنا أستبعد الرأى الأول، وأرى أن ترتيب المصحف لم يكن باجتهاد الصحابة، وما حدث من اختلاف بعض المصاحف كان سببه اجتهادا فرديا من أصحابها ، فلما رأوا ترتيب مصحف عثمان ، وما توافر له من الجهود والضبط ، تابعوه والتزموه واجتمعت الأمة على قبوله . قال على : « إنما فعله عثمان بإجماع منا ولو لم يفعله لفعلته » .

ويبقى الرأى الثانى وهو أن ترتيب السور توقيفى .

والرأى الثالث وهو أن الترتيب كان توقيفيا فى بعض السور واجتهاديا فى البعض الآخر .

وأنا أرجح أن ترتيب معظم السور كان توقيفيا ، وترتيب بعضها كان اجتهاديا ، رمز إليهم به لعلمهم بأسباب نزوله ومواقع كلماته ، فالخلاف بين الفريقين لفظى كما يقول الزركشى .

والإمام مالك من القائلين بأن «ترتيب السور كان باجتهاد الصحابة » ، ولكنه اجتهاد مستند إلى قراءة الرسول وتعليمه أصحابه ، وما أثر عنه من أحاديث فى ترتيب بعض السور أو شوهد من قراءته للقرآن أمامهم .

قال مالك : « إنما ألفوا القرآن على ما كانوا يسمعونه من النبى صلى الله عليه وسلم » .

فهو اجتهاد مقيد بالمأثور ، عاضد فيه الرأى النقل ، وبذل فيه الاجتهاد والتثبيت وأمانة التلقى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ أحيانا نحو ربع القرآن دفعة واحدة فى إحدى الركعات من صلاة الليل .

فقراءة النبى صلى الله عليه وسلم أمام الصحابة أعلمتهم بترتيب معظم السور ، وكانت هاديا لهم فى ترتيب الباقى ، وخصوصا أن عدد السور كان متفقا عليه ، وكل سورة كانت مرتبة الآيات مدونة فى المصاحف متلوة آناء الليل وأطراف النهار. فلم يبق إلا ترتيب السور إثر بعضها البعض وهو أمر ميسور ، وقد تم ترتيب السور فى مصحف عثمان ، وتلقته الأمة بالقبول خلفا عن سلف .

* * *

احترام هذا الترتيب :

وسواء أكان ترتيب السور توقيفيا أم اجتهاديا فإنه ينبغى احترامه، وخصوصا فى كتابة المصاحف ، لأنه عن إجماع الصحابة ، والإجماع حجة ، ولأن خلافه يجر إلى الفتنة، وسد ذرائع الفساد واجب .

أمـا ترتيب السـور فى التـلاوة فليس بواجب ، إنمـا هو مندوب، قـال العلمـاء : «الاختيار أن يقرأ على ترتيب المصحف فيقرأ الفاتحة ، ثم البقرة ، ثم آل عمران ثم ما بعدها على الترتيب سواء أقرأ فى الصلاة أم فى غيرها»[1] .

وأما قـراءة السورة من آخـرها إلى أولها فـممنوع منعا باتا لأنه يذهب بعض ضروب الإعجاز ويزيل حكمة ترتيب الآيات .

أما تعليم الصبيان من آخر المصحف إلى أوله فحسن وليس من هذا الباب بل هو حفظ سورة كاملة ثم التى تليها لما فيه من تسهيل الحفظ على الصبيان حتى يكون أول ما يحفظ من قصار السور ثم يتدرج منها إلى مافوقها حتى يتم القرآن .

٤- حفاظ القرآن :

حـفظ القـرآن فى عـهـد النبى صلى الله عليـه وسلم جـمـوع غـفـيـرة تجـاوز عددهم العشرات والمئات ، قال القرطبى : قتل يوم اليمـامة سبعون من القراء وقتل فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ببئر معونة مثل هذا العدد .

وكانت عناية الصحابة بحفظ القرآن أكثر من عنايتهم بكتابته ، ولذا كان منهم من يحفظه كله ومنهم من يحفظ بعضه سواء فى ذلك المهاجرون والأنصار .

ومـمن حـفظه من المـهـاجـرين : أبو بكر، وعـمـر، وعـثـمـان، وعلى ، وطلحـة ، وسعد بن أبى وقاص الزهرى ، وابن مسعود ، وحذيفة ، وسالم مولى أبى حذيفة ، وأبو هريرة ، وعمرو بن العاص ، وابن عباس ، وابن عمر ، وابن الزبيـر ، وابن عمرو، ومعاوية، وعائشة ، وحفصة ، وأم سلمة .

وممن حـفظه من الأنصـار : أبى بن كعب ، وزيد بن ثابت ، ومعاذ بن جبل ، وأبو الدرداء ، وأنس بن مالك ، وأبو زيد ، وتميم الدارى[2] .

وممن نوه الرسـول صلوات الله وسلامـه عليه بحفظهم وجودة قراءتهم أربعة ، قال صلى الله عليه وسلم « استـقـرئوا القـرآن من أربعـة : من عبد الله بن مسعود

(١) مناهل العرفان للزرقانى : ١/ ٣٥١ نقلا عن كتاب التبيان للإمام النووى .

(٢) الاتقان : ١/ ٩٠ ، وانظر فضائل القرآن لابن كثير : ٩٩- ١٠٢ .

وسالم مولى أبى حذيفة ، وأبى بن كعب ، ومعاذ بن جبل »[1] . فاختص هؤلاء الأربعة بالذكر لأنهم كانوا فيما يظهر أكثر حفظا وأجود قراءة ، وهذا لا يمنع أن يكون غيرهم حافظا مثلهم .

دفع إشكال :

لا نستطيع أن نحدد الصحابة الذين كانوا يحفظون القرآن على عهد النبى - صلى الله عليه وسلم - فإن كل مسلم كان حريصا على العناية بالقرآن وحفظ آياته وتلاوته ، غير أن هناك آثارا تفيد أن أربعة من الصحابة فقط كانوا يحفظون القرآن، روى البخارى عن قتادة أنه سأل أنس بن مالك : من جمع القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال: « أربعة من الأنصار : أبى بن كعب ، ومعاذ ابن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد . قال قتادة : مَن أبو زيد ؟ قال أنس : أحد عمومتى »[2] .

وهذا الحصر الذى ذكره أنس حصر نسبى وليس حصرا حقيقيا ، فقد روى عن أنس من طرق أخرى أنه قال: « مات النبى صلى الله عيه وسلم - ولم يجمع القرآن غير أربعة : أبو الدرداء ومعاذ بن جبل ، وزيد ابن ثابت ، وأبو زيد »[3] فذكر أبا الدرداء بدلا من أبى بن كعب .

وأنس كان يذكر فى كل مرة أسماء من جاء على ذهنه من الصحابة لا حصر العدد الذى يحفظ منهم ، كما أن قوله صلى الله عليه وسلم : خذوا القرآن من أربعة، لا يعنى أنهم وحدهم هم حفاظ القرآن بل المقصود التنبيه إلى فضلهم واختصاصهم بجودة الحفظ وحسن الأداء .

ولعل مقصد أنس من قوله : « أربعة جمعوا القرآن » ، من جمعوه كله حفظا ، أو حفظا وكتابة من قبيلة الخزرج فقط . وقد يشير إلى هذا ما روى عنه أنه كانت مفاخرة بين الأوس والخزرج فقالت الخزرج : « منا أربعة جمعوا القرآن على عهد

---

(١) البخارى: ٧/ ٨١ ، مسلم : ٦/ ١٨ .
(٢) البخارى ٧/ ١٠٠ .
(٣) البخارى: ٩/ ٤٣ .

رسـول الله صلى الله عليـه وسلم : أبى بن كعب ، ومعـاذ بن جـبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد » [1] .

وقد حاول جماعة من الملاحدة أن يتمسكوا بهذا الأثر عن أنس ليشككوا فى تواتر القرآن وقطعية ثبوته .

قال المـازرى : « ولا متمسك لهم فيه فإنا لا نسلم حمله على ظاهره : سلمناه ولكن من أين لهم أن الواقع فى نفس الأمـر كـذلك ؟ سلمنـاه لكن لا يلزم من كـون كل من الجم الغـفيـر لم يحـفظه كله ألا يكون حفظ مـجمـوعه الجم الغـفيـر ، وليس من شـرط التـواتر أن يحـفظ كل فـرد جـمـيـعـه ، بل إذا حـفـظ الكل ولو على التـوزيع كفى » أ . هـ .

ثم إن مـا ذكـرناه فى هذا المـقـام لا يتـجـاوز دائـرة الصـحـابة الذين جـمـعت صدورهم كتاب الله فى حياة رسـول الله . وقد كانوا عشـرات ومئات . أما بعد وفاته عليـه الصـلاة والسـلام فـقـد أتم حفظ القـرآن آلاف مؤلفـة من الصـحـابة ، واشـتـهـر بإقـراء القـرآن من بينهم سبـعة : عثـمـان ، وعلى ، وأبى بن كعب ، وأبو الدرداء ، وزيد ابن ثابت ، وعبـد الله بن مسـعـود ، وأبو مـوسـى الأشـعـرى ، كلهم جمعوا التـنزيل بين حنايا صدورهم وأقرأوه لكثير غيرهم ، وتلى القرآن فى المحاريب والميادين ، وتردد فى المجـالس والمدارس واسـتفـاض حـفظه بين الألوف المؤلفة ، وصـدق الله العظيم إذ يقـول : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ . (سورة الحجر : ٩) .

* * *

---

(١) فضائل القرآن لابن كثير ٩٧/١ . مطبعة المنار .

القرآن فى عهد أبى بكر

١- التفكير فى جمع القرآن :

لم يجمع القرآن فى كتاب واحد فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، بل كان مجزأً فى العسب واللخاف والعظام وما تيسر من الرقاع وغيرها مما يكتب عليه .

وإنما لم يجمع القرآن فى حياة الرسول لاستمرار نزول الوحى واحتمال نزول ناسخ لبعض الآيات . ولعدم الحاجة إلى جمع المصحف مادام رسول الله بين المسلمين . وهو المرجع الأوفى للقرآن الكريم ، فلما تولى أبو بكر خلافة المسلمين، نشط لحرب المرتدين عن الإسلام ، واستشهد جمع من المسلمين فى هذه الحروب خصوصا فى معركة اليمامة التى قتل فيها مسيلمة الكذاب واستشهد فيها من المسلمين مائتان وألف بينهم تسعة وثلاثون من كبار الصحابة وسبعون من حفاظ القرآن (١) .

وحزن المسلمون لموت قراء القرآن وخافوا أن يضيع شىء من القرآن بموت حملته فاقترحوا على أبى بكر - رضى الله عنه - جمع القرآن فى مصحف واحد موثقا بلجنة من كبار القراء الذين تلقوه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان من أشهر القراء : زيد بن ثابت . وعبد الله بن مسعود ، وأبى بن كعب ، وعلى بن أبى طالب . وأبو موسى الأشعرى ، وسالم مولى أبى حذيفة ، وقد استشهد سالم مولى أبى حذيفة فى معركة اليمامة .

وقد اختير زيد بن ثابت من بين الصحابة ليشرف على جمع القرآن؛ لأنه حضر العرضَة الأخيرة للقرآن ، ولأنه شاب ، فهو أقدر على العمل منهم . وهو

---

(١) محمد حسين هيكل : الصديق أبو بكر ص ٣٠٩ .

لشبابه أقل تعصبا لرأيه واعتزازا بعمله؛ وذلك يدعوه إلى الاستماع لكبار الصحابة من القراء والحفاظ ، والتدقيق فى الجمع دون إيثار لما حفظه [1] .

١- حديث البخارى :

روى البخارى فى صحيحه أن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال : « أرسل إلى أبو بكر رضى الله عنه : أن عمر أتانى فقال : إن القتل قد استحر (أى اشتد) يوم اليمامة بالناس ، وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن فيذهب كثير من القرآن إلا أن يجمعوه ، وإنى لأرى أن تجمع القرآن . قال أبو بكر: قلت لعمر : كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله ؟ فقال: هو والله خير ، فلم يزل يراجعنى حتى شرح الله لذلك صدرى ورأيت الذى رأى عمر . قال زيد : وعنده عمر جالس لا يتكلم ، فقال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك ، كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه، فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن، قلت: كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال أبو بكر : هو والله خير . فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر . فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب وصدور الرجال حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع أبى خزيمة الأنصارى لم أجدهما مع غيره :﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ * فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [2] . فلما نسخنا الصحف فى المصاحف فقدت آية من سورة الأحزاب ، كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها لم أجدها مع أحد إلا مع أبى خزيمة الأنصارى الذى جعل رسول الله شهادته بشهادة رجلين . ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ [3] . فألحقتها فى سورتها فكانت الصحف التى جمع فيها القرآن عند أبى بكر حتى توفاه الله . ثم عند عمر حتى توفاه الله ، ثم عند حفصة بنت عمر » .

---

(١) هيكل : المرجع السابق : ٣٤١ .

(٢) سورة التوبة : ١٢٨ - ١٢٩ .

(٣) سورة الأحزاب : ٢٣ .

٣- توضيح وبيان :

ذكرنا حديث زيد بن ثابت برواية البخارى ، وقد أجمعت الروايات على صحته، بيد أنه يحتاج إلى بيان وتوضيح أسجله فيما يلى :

١- أصل القرآن كان محفوظا فى الصدور متلوا فى المحاريب .

٢- أصل القرآن كان مكتوبا فى جذاذات ورقاع متفرقة .

٣- عمل زيد ومن معه كان ترتيب هذه الجذاذات والرقاع وجمعها ومقابلتها بالمحفوظ والمتواتر .

٤- لم يعتمد زيد على حفظه وذاكرته ولا على ما كتبه لرسول الله ، وهو من أوثق كتاب الوحى ، وإنما جمع كل ما كتب من القرآن ، وجلس هو وعمر بن الخطاب على باب المسجد وقال : « من كان تلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا فليأتنا به »[١] .

٥ - استوثق زيد ومن معه فى جمع القرآن زيادة فى الحيطة والعناية والتثبت « كان لا يقبل من أحد شيئا حتى يشهد شاهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم »[٢] .

٦- كان زيد قد سمع القرآن جميعه من رسول الله ووعاه معه جموع المسلمين وكتبوه أيضا . وكان الحفظ مستفيضا والكتابة معروفة لجميع نصوص القرآن غير أن آيتين من آخر سورة « براءة» لم تكونا مكتوبتين إلا عند أبى خزيمة الأنصارى وهو الرجل الذى اختصه النبى بشهادة رجلين ، فكتبهما زيد فى مكانهما من المصحف .

٧- المصحف المجموع احتفظ به كوثائق العقود التى تودع للحاجة والمستقبل ، أما حقيقتها الخارجية فليست محل جدل ، لأنها أشبه بالمحسوسات المادية الراسخة .

---

(١) الإتقان : ١/ ١٠٠ .

(٢) الإتقان : ١/١٠٠ .

٨- ثبت نص القرآن بالتواتر المستفيض، وروته جموع غفيرة يؤمن تواطؤها على الكذب وتكفل الله بحفظه ، وتمت كتابته على أوثق وجه بمشورة عمر وإقناع أبى بكر وهمة زيد بن ثابت وصدق عزيمته. فهو أصدق وثيقة عرفها التاريخ لم يدخله تبديل ولا تغيير : « لا تبديل لكلمات الله » .

٩ - شهد المنصفون بالدقة البالغة فى جمع القرآن والصدق والتثبت فى روايته . قال المستشرق الإنجليزى سير وليم موير : « إن القرآن بمحتوياته ونظامه ينطق فى قوة بدقة جمعه ، فقد ضمت الأجزاء المختلفة بعضها إلى بعض ببساطة تامة ، لا تعمل فيها ولا تكلف ، وهذا الجمع لا أثر فيه ليد تحاول المهارة أو التنسيق، وهو يشهد بإيمان الجامع وإخلاصه لما يجمع، فهو لم يجرؤ على أكثر من تناول هذه الآيات المقدسة ووضع بعضها إلى جانب بعض » [١] فعمل زيد كان مقتصرا على جمع الرقاع من القرآن وربطها بخيط وحفظها عند الخليفة ، لتكون نصا خالدا باقيا على مدى الحياة . ويقول سير وليم موير أيضا : « والأرجح أن العالم كله ليسّ فيه كتاب غير القرآن ظل اثنى عشر قرنا كاملا بنص هذا مبلغ صفائه ودقته» [٢] .

٤- روايات حول جمع القرآن :

(أ) تذهب رواية إلى أن عمر بن الخطاب أول من جمع القرآن فى المصحف [٣] ذلك أنه سأل يوما عن آية من كتاب الله ، فقيل كانت مع فلان فقتل يوم اليمامة. فقال إنا لله ، وأمر بالقرآن فجمع، ويمكن أن نجمع بين هذه الرواية وبين المتواتر، بأن عمر كان أول من رأى جمع القرآن ، وأشار على أبى بكر به وظل يناقشه حتى أقنعه . أما الجمع نفسه فقد تم فى عهد أبى بكر ، ويؤيد ذلك ما روى عن على بن أبى طالب أنه قال : « رحمة الله على أبى بكر كان أعظم الناس أجرا فى جمع المصاحف وهو أول من جمع ما بين اللوحين » . وقد تواترت بذلك شهادة عدد كبير من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) محمد حسين هيكل : الصديق أبو بكر : ٣٣٢ .

(٢) المرجع السابق : ٣٥١ .

(٣) الإتقان : ١/ ٥٩ ، المصاحف لابن أبى داود : ٢٠ .

(ب) ويذهب بعض الرواة إلى أن جمع القرآن بدأ فى عهد أبى بكر وتم فى عهد عمر ، ورواية البخارى أوثق فهى تفيد أن جمع المصحف تم فى عهد أبى بكر ، وأودعت عنده الصحف ثم عند عمر بعد وفاة أبى بكر ، ثم عند حفصة بنت عمر ، ثم انتقلت إلى عثمان ، ليعتمد عليها فى جمع الناس على مصحف واحد .

(ج) وتذهب بعض الروايات إلى أن على بن أبى طالب أول من جمع القرآن بعد وفاة الرسول .

ونرى أن عمل علىٍّ كان عملا فرديا ليحتفظ لنفسه بمصحف ، وهو جهد خاص شجعه أبو بكر ، كما شجع غيره من الصحابة على جمع المصحف . أما مصحف أبى بكر فقد كان مصحفا توافرت له جهود جمهور المسلمين وجموع الصحابة .

روى أشعب عن محمد بن سيرين : « لما توفى النبى صلى الله عليه وسلم ، أقسم علىٌّ ألا يرتدى برداء إلا لجمعة حتى يجمع القرآن فى مصحف ، ففعل ، فأرسل إليه أبو بكر بعد أيام : أكرهت إمارتى يا أبا الحسن ؟ قال: لا والله ، إلا أنى أقسمت لا أرتدى برداء إلا لجمعة فبايعه ثم رجع » .

قال ابن حجر : هذا الأثر ضعيف لانقطاعه وبتقدير صحته ، فمراده بجمعه حفظه فى صدره (١) ، فإنه يقال للذى يحفظ القرآن: قد جمع القرآن (٢) .

ونسبة جمع القرآن إلى على ذكرت من عدة روايات فى الإتقان وغيره ، كما نسب إلى سالم مولى أبى حذيفة أنه أول من جمع القرآن فى مصحف (٣) . وهو محمول على أنه كان من أول الجامعين بأمر أبى بكر .

ومن هذا نرى أن نسبة جمع القرآن إلى عمر أو على أو أبى حذيفة أو غيرهم روايات فردية لا تناهض الصحيح المتواتر ، وهى على فرض صحتها مؤولة . وأرى أن أبا بكر لم يعارض فى جمع علىٍّ أو سالم أو غيرهما مصحفا لنفسه على أنه

(١) الإتقان : ١/ ٥٩ .
(٢) المصاحف : ١/ ١٠ .
(٣) الإتقان : ١/ ٥٩ .

مصحف خاص لقراءته . وأن جمع أبى بكر للمصحف كان توثيقا تضافرت له أوثق صفات الجمع الصحيح .

ولذلك قال على - فيما حدث به سفيان عن السدى عن عبد خير - « أعظم الناس أجرا فى المصاحف أبو بكر ، رحمة الله على أبى بكر، هو أول من جمع ما بين اللوحين » (١) .

* * *

---

(١) المصاحف : ٥/١ ، وفى الإتقان : ١/ ٥٩ : هو أول من جمع كتاب الله .

القرآن فى عهد عمر

اتسعت الفتوحات فى عهد عمر ، وامتدت خريطة العالم الإسلامى فشملت بلاد الفرس والروم وغيرها . ولم تمض عشر سنوات على وفاة النبى الكريم حتى كانت دعوة الإسلام تزحف بقوة ذاتية ، فتطوى ممالك ودولا ، وتحتوى شعوبا وأمما - والإسلام دعوة عالمية لا تعرف العنصرية ولا العصبية - ودخل الأعاجم فى دين الله أفواجا ، وأقبلوا على الدين الجديد يستوعبون أحكامه ويرتلون قرآنه بلهجات متعددة ، وقراءات متنوعة .

وكان عمر رضى الله عنه يرسل القراء والمعلمين إلى الأمصار ليأخذ الناس عنهم كتاب الله . كما كانت هناك مدرسة بالمدينة لتعليم الصبية القرآن ، وكان عمر يتعهد هؤلاء الصبية ، حتى إذا سافر إلى الشام بعد فتحها استوحش الصبية للقائه فخرجوا لاستقباله عند عودته على مسافة يوم .

وفكر عمر فى كتابة السنن وجمع الأحاديث، وأخذ يستخير الله فى ذلك ، ثم عدل عنه حتى لا تصرف الناس عن كتاب الله .

روى عن قرظة بن كعب أنه قال: لما سيَّرنا عمر إلى العراق مشى معنا عمر ، وقال : أتدرون لم شيعتكم ؟ قالوا : نعم ، مكرمة لنا . قال : ومع ذلك فإنكم تأتون أهل قرية لهم دوى بالقرآن كدوى النحل فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم ، جردوا القرآن وأقلوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا شريككم ، فلما قدم قرظة قالوا : حدثنا . قال: نهانا عمر [1] .

---

(١) محمد الزفزاف : التعريف بالقرآن والحديث : ٢٠٣ ، نقلا عن تذكرة الحافظ للذهبى .

ولم يضن عمر على البلاد المفتوحة بالقراء والمعلمين للقرآن فكان ينتقى شيوخ القراء من المدينة ويرسلهم إلى المدن المفتوحة : وحين طلب منه أهل الشام قراء لبى طلبهم ورسم لهم خطة تجمع الناس على القراءة السليمة ، والأداء السليم.

روى محمد بن سعد فى طبقاته عن محمد بن كعب القرظى بإسناده قال : جمع القرآن فى زمان النبى صلى الله عليه وسلم خمسة من الأنصار : معاذ بن جبل ، وعبادة بن الصامت ، وأبى بن كعب ، وأبو أيوب ، وأبو الدرداء . فلما كان زمن عمر بن الخطاب كتب إليه يزيد بن أبى سفيان أن أهل الشام قد كثروا وربلوا [١] وملأوا المدائن ، واحتاجوا إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم ، فأعنِّى يا أمير المؤمنين برجال يعلمونهم ، فدعا عمر أولئك الخمسة ، فقال: إن إخوانكم من أهل الشام قد استعانوا بمن يعلمونهم القرآن ويفقههم فى الدين فأعينونى - رحمكم الله - بثلاثة منكم إن أجبتم ، فاستهموا ، وأن أنتدب ثلاثة منكم فليخرجوا ، فقالوا : ما كنا لنستهم ، هذا شيخ كبير، لأبى أيوب ، وأما هذا فسقيم ، لأبى بن كعب ، فخرج معاذ وعبادة وأبو الدرداء . فقال عمر: ابدأوا بحمص فإنكم ستجدون الناس على وجوه مختلفة ، منهم من يلقن [٢] ، فإذا رأيتم ذلك فوجهوا إليه طائفة من الناس ، فإذا رضيتم منهم فليقم بها واحد ، وليخرج واحد إلى دمشق ، والآخر إلى فلسطين.

وقدموا حمص فكانوا بها ، حتى إذا رضوا من الناس أقام بها عبادة ، وخرج أبو الدرداء إلى دمشق ، ومعاذ إلى فلسطين. أما معاذ فمات فى طاعون عمواس، وأما عبادة فصار بعد إلى فلسطين فمات بها، وأما أبو الدرداء فلم يزل بدمشق حتى مات [٣] .

* * *

---

(١) يريد كثر عددهم ونموا .

(٢) يلحن .

(٣) الطبقات الكبرى : ٢/ ٣٥٦ ، عبد الصبور شاهين : تاريخ القرآن : ١١١ .

وقد كان اتساع الفتوحات وانتشار الإسلام فى ممالك الفرس والروم ومصر ، وتيسير القراءة على الناس حسب ما تساعدهم عليها عضلات أصواتهم ولهجات قبائلهم ، مع ضعف الرقابة على القراءة وسماح الدين أن يقرأ القرآن على سبعة أوجه، كان كل ذلك مما أحدث خلافا كبيرا بين الناس فى طريقة القراءة . فلما جاء عهد الخليفة الثالث عثمان ورأى هذه الفتنة جمع الناس على مصحف واحد هو المصحف الإمام ، وأحرق ما عداه من المصاحف وكتب نسخة من المصحف العثمانى إلى عدد من الأمصار الإسلامية ، وقد تلقته الأمة بالقبول خلفا عن سلف.

* * *

القرآن فى عهد عثمان

١- امتداد الفتوحات :

امتدت الفتوحات فى عهد عثمان رضى الله عنه ، وسمح عثمان للقرشيين أن ينتشروا فى الأمصار ، وكان عمر قد منعهم من ذلك وأبقاهم فى المدينة ، وأخذ أهل كل مصر عن رجل من القراء .

فأهل دمشق وحمص أخذوا عن المقداد بن الأسود وأهل الكوفة عن ابن مسعود وأهل البصرة عن أبى موسى الأشعرى - وكانوا يسمون مصحفه «لباب القلوب» .

وقرأ كثير من أهل الشام بقراءة أبى بن كعب (١) .

وكانت وجوه القراءة التى يؤدون بها القرآن مختلفة باختلاف الأحرف التى نزل عليها ، فاختلف الناس فى القراءة ، وعظم اختلافهم وتشتتهم حتى أن الرجل ليقول لصاحبه : إن قراءتى خير من قراءتك ، وأفضل من قراءتك . وبلغ الأمر من ذلك حتى كاد يكون فتنة : اختلفوا وتنازعوا وأظهر بعضهم تكفير بعض والبراءة منه وتلاعنوا .

ذكر الحافظ : « أن أناسا من أهل العراق كان أحدهم إذا سمع آية تقرأ بغير قراءته قال : إنى أكفر بهذه ، وفشا ذلك فى الناس، فكلم عثمان فى ذلك » .

٢- أسباب جمع عثمان للمصحف :

وردت عدة روايات ذكرت فيها الأسباب التى حملت عثمان على جمع المصحف :

---

(١) يعلم ذلك من الروايات التى ذكرها الحافظ ابن حجر فى فتح البارى : ٤/٩ وانظر إعجاز القرآن للرافعى : ٣٨ .

١- فمنها ما يفيد أن السبب هو أن عثمان رأى اختلاف معلمى القرآن بعضهم مع بعض وتعصبهم لقراءة تعلموها، وإنكارهم لما عداها .

روى ابن أبى داود فى المصاحف أنه لما كانت خلافة عثمان جعل الرجل يعلم قراءة الرجل ، والرجل يعلم قراءة الرجل ، فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون حتى ارتفع الأمر إلى المسلمين وكفر بعضهم بعضا ، فبلغ ذلك عثمان فخطب فقال: أنتم عندى تختلفون؟ فمن نأى عنى من الأمصار أشد اختلافا .

٢- ومنها ما يفيد أن القرآن جمع بمشورة حذيفة بن اليمان لما رأى اختلاف الناس فى العراق .

وفى رواية أن حذيفة رأى هذا التعصب فى مسجد الكوفة - والكوفة جزء من العراق .

وروى ابن أبى داود أن حذيفة كان فى مسجد من مساجد الكوفة زمن ولاية الوليد بن عقبة بن أبى معيط فسمع رجلا يقول : قراءة ابن مسعود، وسمع آخر يقول قراءة أبى موسى . فقام فخطب فى الناس فقال: « هكذا اختلف من كان قبلكم والله لأركبن إلى أمير المؤمنين» .

وذكر الحافظ رواية جاء فيها : أن عثمان قال: تمترون فى القرآن، تقولون : قراءة أبى ، قراءة عبد الله ، ويقول الآخرون : والله ما تقيم قراءتك .

٣- ومنها ما يفيد أن سبب الجمع هو التقاء جموع من الأمصار المختلفة فى مواطن الغزو والجهاد ، واستماعهم للقراءات المختلفة ، وتعجبهم ، وإنكارهم لاختلاف طرق أداء القرآن ، وانتقالهم من التعجب إلى الشك والمداجاة ، ثم إلى التأثم والملاحاة ، وبلغ ذلك عثمان فأمر بجمع القرآن .

* * *

وأنت ترى أن تعدد الروايات فى أسباب الجمع لا تضارب بينها ، فكل الروايات تلتقى على أن هناك أسبابا جدت فى المجتمع الإسلامى حدت بعثمان إلى جمع القرآن .

ويمكن أن يكون هذا الخلاف حدث فى المدينة أمام عثمان ، وحدث فى العراق وفى الكوفة أمام حذيفة ، ورأى حذيفة اختلاف المجاهدين فى القراءة حين كان يغازى أهل أرمينية فرفع ذلك إلى عثمان .

ولعل أسبابا أخرى للجمع لم تذكرها الروايات وإن عرفت من بين القرائن ، هى جهل الجمهور الجديد بنزول القرآن على سبعة أحرف ، وهم حتى إن عرفوا الحديث الذى ينص على نزول القرآن على هذه الأحرف ، فإنهم يجهلون القراءات الصحيحة التى يحتكمون إليها عند الاختلاف .

لذلك رأى عثمان جمع الناس على مصحف واحد بلغة قريش وهى التى نزل بها القرآن ، توحيدا للكلمة ودرءا للفتنة ورعاية للمصلحة العامة ، وجمعا للناس على كتاب واحد، هو أساس دينهم ومحور حياتهم ، فالتقاؤهم عليه التقاء على حبل متين وركن ركين .

وإذا علمنا أن جزءا من هذا الاختلاف كان فى أماكن الغزو ومواطن الجهاد حيث السيوف مشرعة ، والأسنة مستعدة ، أدركنا ما يصيب الأمة من التفرق ، وما يفيدها من الاجتماع على مصحف واحد .

* * *

٣- حديث البخارى :

روى البخارى فى صحيحه بسنده عن ابن شهاب أن أنس بن مالك حدثه أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان - وكان يغازى أهل الشام فى فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق - فأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة . فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين ، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها إليك ، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف، وقال عثمان لرهط القرشيين الثلاثة. إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت

فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنه إنما نزل بلسانهم ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف ، رد عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق (١) .

٤- تعليق على الحديث :

والمتأمل فى هذا الحديث والنصوص الواردة فى موضوعه ، يخرج بالنتائج الآتية :

١- أن جمع عثمان المصحف كان بمشورة حذيفة بن اليمان، والروايات الأخرى تفيد أن عثمان جمعه لما رأى اختلاف القراء بالمدينة ، وكان عثمان توقع أن يكون قراء الأمصار أشد اختلافا ، فلما جاء حذيفة تأكد لديه ما توقعه فأمر بجمع القرآن .

٢- أن الجمع فى عهد عثمان اعتمد أساسا على الجمع الذى كتب فى عهد أبى بكر ، وقد حظى الجمع الأول بعناية الصحابة وموافقتهم وتضافرت له جهود متعددة وأشرف عليه زيد بن ثابت كاتب الوحى ، وقد تم الجمع الأول بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام بمدة وجيزة والقرآن غض طرى والوحى يتلى فى كل مكان . وذكر القرطبى أن زيدا جمع القرآن فى عهد أبى بكر غير مرتب السور بعد تعب شديد، وأن الصحف حفظت بعد جمعها عند أبى بكر ثم عند عمر ، ثم عند حفصة .

٣- أحرق عثمان عددا من المصاحف الفردية التى كتبها بعض الصحابة لنفسه وهى مصاحف خاصة ، اختلفت عن بعضها البعض فى ترتيب السور ، وفى بعض القراءات وكان من أشهرها مصحف على ، ومصحف أبى بن كعب ، ومصحف عبد الله بن مسعود ، ومصحف أبى موسى الأشعرى ، وقد أدى انتشار هذه المصاحف الفردية إلى الفرقة والاختلاف .

---

(١) صحيح البخارى ، كتاب فضائل القرآن ، الإتقان : ١/ ١٠٢، المصاحف لابن أبى داود : ١٨ ، تفسير الطبرى : ١/ ٣٠ ، ٢١ .

٤- حاول بعض المستشرقين أن ينفى الجدية والتواتر عن مصحف عثمان ، وذكر أن عثمان جمعه بحافز شخصى حتى يكون لديه مصحف خاص كغيره من أفراد الصحابة [١]، وهى فرية تريد أن تجرد المصحف الإمام من كونه عملا تضافرت عليه جهود وتوافرت له صفة التواتر وقطعية الثبوت .

٥ - كانت كتابة المصحف فى عهد عثمان بلغة قريش فهى اللغة الأولى التى نزل بها القرآن ، وهى لغة جمهور المسلمين ، ولغة الشعر والأدب ، ولسان الدولة الرسمى ، وقد أبيحت قراءة القرآن باللهجات المختلفة تيسيرا على الناس فى صدر الإسلام ، « فلما تذللت ألسنتهم بالقراءة وكان اقتصارهم على حرف واحد يسيرا عليهم وهو أوفق لهم أجمعوا على الحرف الذى كان فى العرضة الأخيرة » [٢] .

٦- تلقى الناس عمل عثمان بالقبول ووافقوا عليه مقتنعين بما بذل فيه من جهد ، وبما يحقق من وحدة الأمة وتماسكها . قال الإمام على رضى الله عنه : « لا تقولوا فى عثمان إلا خيرا فوالله ما فعل الذى فعل إلا على ملأ منا» [٣] . وقال أيضا : « لو وليت لفعلت فى المصحف ما فعل عثمان» [٤] .

وقال عبد الرحمن بن مهدى : خصلتان لعثمان بن عفان ليستا لأبى بكر ولا لعمر : صبره نفسه حتى قتل مظلوما ، وجمعه الناس على المصحف » [٥] وقد كانت هناك معارضة من عبد الله بن مسعود ثم رجع عنها لما رأى مصحف عثمان [٦] .

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة حفصة . الدكتور عبد الصبور شاهين : تاريخ القرآن ص ١٠٨ ، الدكتور صبحى الصالح : مباحث فى علوم القرآن ص ٧٩ .

(٢) النشر : ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ .

(٣) المصاحف لابن أبى داود .

(٤) المرجع السابق .

(٥) المرجع السابق .

(٦) المرجع السابق .

لجنة المصحف :

تختلف الروايات فى عدد الحفاظ الذين عهد إليهم عثمان رضى الله عنه بكتابة المصحف . فمنها ما يفيد أنه عهد إلى زيد بن ثابت بكتابته .

ورواية البخارى تفيد أن اللجنة كانت مكونة من أربعة .

وجاء فى رواية ابن أبى داود أن اللجنة كانت مكونة من اثنى عشر رجلا .

ويتضح من جملة الروايات أن زيد بن ثابت كان رئيس اللجنة وأن عثمان ندب معه أربعة من خيرة الصحابة وثقات الحفاظ .

ولعل عثمان أمد اللجنة بعدد آخر من الصحابة لمساعدتها فى نسخ المصاحف التى أرسلها إلى الأمصار .

فمن نسب كتابة المصحف إلى زيد بن ثابت ، راعى أنه رئيس اللجنة فينسب العمل إليه ، ومن جعل اللجنة رباعية راعى أنها اللجنة الأصلية المكلفة بكتابة المصحف الإمام ، ومن زاد فى عددها إلى ١٢ ضم إليها أسماء من استعان بهم عثمان للمساعدة فى نسخ المصاحف التى أرسلت إلى البلدان الإسلامية .

أسماء كتبة المصحف العثمانى :

ذكر البخارى أن عددهم أربعة وهم :

١- زيد بن ثابت .

٢- عبد الله بن الزبير .

٣- سعيد بن العاص .

٤- عبد الرحمن بن الحارث بن هشام .

ورئيس اللجنة وحده من الأنصار ، أما الثلاثة الباقون فهم من قريش .

وقد مر بك أن عثمان قال للرهط القرشيين الثلاثة : « إذا اختلفتم أنتم وزيد ابن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنه إنما نزل بلسانهم » .

والمراد باللسان هنا طريقة الكتابة .

وزاد غير البخارى عليهم ستة هم :

١- عبد الله بن عمرو بن العاص .

٢- عبد الله بن العباس .

٣- أبى بن كعب .

٤- مالك بن أبى عامر (جد مالك بن أنس) .

٥- كثير بن أفلح .

٦- أنس بن مالك .

وابن أبى داود يذكر أن عدد اللجنة اثنا عشر ، ولكن الحافظ ابن حجر لم يذكر إلا أسماء تسعة منهم ، وقد أسقط فى عده عبد الله بن عمرو بن العاص ، وذكره السيوطى فى الإتقان .

فنحن لم نعرف من كتبة المصحف سوى عشرة ، أما الاثنان الباقيان فلم نعرف اسميهما ، ولم يطلع على اسميهما الحافظ ابن حجر . وإذا لم يطلع ابن حجر وهو المحقق البارع على اسم شخص ، فمن العسير العثور عليه ، ولذلك سنعتبر لجنة المصحف لجنة عشرية .

وواضح من تكوين هذه اللجنة أن نصفها من قريش .

عبد الله بن الزبير ، سعيد بن العاص ، عبد الله بن الحارث بن هشام ، عبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبد الله بن العباس .

ونصفها من غير قريش ، أربعة من الأنصار ، هم :

زيد بن ثابت ، أبى بن كعب ، أنس بن مالك ، كثير بن أفلح مولى أبى أيوب الأنصارى ، ومولى القوم منهم .

والخامس مالك بن أبى عامر - جد مالك بن أنس - وهو حميرى يمنى .

فيكون التكوين قد روعى فيه أن يكون النصف من قريش والنصف تقريبا من الأنصار ، وواحد من اليمن .

وواضح من تكوين هذه اللجنة أنها من العرب الخلص ، ما عدا كثير بن أفلح فهو مولى أبى أيوب الأنصارى - والموالى كثيرون فى الصحابة - فلعل عثمان رضى الله عنه راعى فى تكوين اللجنة أن تمثل المهاجرين والأنصار واليمن من جهة، وأن تمثل الموالى من جهة أخرى .

وكما روعى حسن الاختيار ودقة تمثيل اللجنة للجماعة الإسلامية روعى فيها أن يجمع أعضاؤها بين الشباب والكهول . فالشباب يمثلون القوة والصحة والنشاط، والكهول يختارون للتجارب والخبرة ونضوج الفكرة وحسن المقدرة .

فمن أعضاء اللجنة الشباب :

زيد بن ثابت ، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وأنس بن مالك [1] .

ومن الأعضاء الكهول :

عبد الله بن عمرو بن العاص وأبى بن كعب ، ومالك بن أبى عامر [2] .

والخلاصة أن الاختيار كان موفقا كل التوفيق ولم يكن سببه هوى ذاتيا أو تحيزا شخصيا ، وإنما كان سببه الكفاءة المطلقة والخبرة والإخلاص ، والتقوى والعلم والمعرفة . وتاريخ اللجنة وسجل حياة أفرادها أعظم دليل على حسن هذا الاختيار والتوفيق فيه [3] .

* * *

(١) مع المصاحف : يوسف إبراهيم النور : ٢٣ : ٧٤ .

(٢) مع المصاحف : يوسف إبراهيم النور : ٢٣: ٧٤ .

(٣) ما يذهبه المستشرق بلاشير إلى أن عثمان بن عفان كان رجلا أرستقراطيا وأنه اختار لكتابة المصحف ثلاثة من قريش يمثلون النزعة الأرستقراطية ، ويدعى أنه اختارهم لصلات المصاهرة بينه وبينهم ، وهذا تهافت ينقضه أن زيدا المدنى كان رئيس اللجنة ، وأن عملها وافق قبول الأمة . وفيما عرضناه ما يكفى لدحض هذه الشبهة (انظر : صبحى الصالح مباحث فى علوم القرآن ص ٧٩) .

المكى والمدنى

القرآن الكريم كتاب الإسلام الخالد : وهو روح الدعوة الإسلامية وباعث فكرتها ، وقاموسها وسجل حركتها . وقد أعطى الله الأنبياء معجزات تناسب عصورهم وتؤيد رسالتهم: أعطى موسى العصا تنقلب حية هائلة تلقف حبال السحرة ، وإذا أدخل يده فى جيبه خرجت بيضاء بياضا ناصعا يغلب ضوء الشمس ، لأن أهل مصر كانوا قد برعوا فى السحر فجاء موسى بمعجزة تفوق سحرهم .

إذا جاء موسى والقى العصا   فقد بطل السحر والساحر

وأرسل عيسى فى عصر تقدمت فيه أبحاث الطب والعلاج ، فأعطاه الله معجزات روحية وطبية فى علاج المرضى وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله .

وأرسل الله محمدا فى بلاد العرب وسط قوم أميين صناعتهم البيان وبضاعتهم القول الجيد من منثور ومنظوم ، وكان الشعراء والأدباء يلتقون فى سوق عكاظ فى مؤتمرات ثقافية ومنتديات أدبية، يعرضون فيها إنتاجهم الفكرى والأدبى ، وإذا استحسنوا قصيدة علقوها حول الكعبة تخليدا لها واعتزازا بجودتها .

ألف العرب فى الجاهلية السجع وتشابه الفواصل والكلام الموزون المقفى والعناية بالأدلة الخطابية ، ومخاطبة العاطفة ، واستخدام أساليب البيان وتنويع العبارة استمالة للسامع واستثارة له .

وقد نزل القرآن المكى خطابا لهؤلاء العرب وهو كلام السميع البصير اللطيف الخبير الذى خلق الإنسان وهو أعلم بما توسوس به نفسه ، فأنزل الله القرآن فى الذروة العليا من أساليب البيان بل إنه سار فى هذا الشوط إلى مدى لا يشق غباره ولا يمكن محاكاته .

وحين اتهم العرب محمدا بصنوف الفرى وتقولوا عليه الأقاويل فاتهموه بالسحر وبالشعر وبالكهانة وبكتابة أساطير الأولين تحداهم القرآن أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله مفتريات أو بسورة واحدة منه ، ثم وصمهم بالعجز الأبدى عن محاكاته متحديا لهم ولغيرهم مدى الأزمان فقال سبحانه : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾

(سورة الإسراء : ٨٨)

القرآن المكى :

بدأ نزول القرآن على النبى بمكة المكرمة ، واستمر نزوله بمكة ثلاثة عشر عاما يدعو أهلها إلى الإيمان بالله وتوحيد الخالق . ويحارب عبادة الأوثان والأصنام ويذكِّر الناس بالبعث والجزاء، ويصف مشاهد القيامة ويعرض صور النفخ فى الصور والقيام من القبور وتوزيع الصحف ووزن الأعمال والمرور على الصراط ودخول المتقين الجنة ، ودخول الكافرين النار .

وكان القرآن يفصل وصف الجنة ونعيمها وما فيها من أنهار جارية وثمار دانية وحور عين وولدان مخلدين .

كما يعرض وصف جهنم وما فيها من ألوان العذاب وصنوف الآلام ، فأهلها سود الوجوه ، يسحبون فى النار على وجوههم ، يأكلون الضريع والزقوم ويشربون ماء كالمهل يشوى الوجوه ، لا ينظر الله إليهم ولا يكلمهم ولهم عذاب أليم .

السور المكية والمدنية :

اصطلح العلماء على أن ما نزل من القرآن قبل الهجرة إلى المدينة يسمى مكيا ، وما نزل من القرآن بعد الهجرة يسمى مدنيا ، نسبة إلى مكة والمدينة ، ومكى القرآن نحو ١٩/٣٠ منه ، ومدنى القرآن نحو ١١/٣٠ منه ، وعدد سور القرآن ١١٤ سورة .

منها ٨٢ سورة متفق على أنها مكية .

ومنها ٢٠ سورة متفق على أنها مدنية .

ومنها ١٢ سورة يتردد الترجيح بين مكيتها ومدنيتها .

فالسور العشرون المدنية هى :

سورة البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنفال ، والتوبة ، والنور ، والأحزاب، ومحمد ، والفتح ، والحجرات ، والحديد ، والمجادلة ، والحشر ، والممتحنة ، والجمعة ، والمنافقون ، والطلاق ، والتحريم ، والنصر .

والسور المختلف فى مكيتها ومدنيتها هى :

سورة الفاتحة ، والرعد ، والرحمن ، والصف ، والتغابن ، والمطففين ، والقدر، ولم يكن ، وإذا زلزلت ، والإخلاص ، والمعوذتان .

وما بقى من سور القرآن مكى باتفاق ، وعدده اثنتان وثمانون سورة .

سجل لكل سورة :

سور القرآن ١١٤ سورة ، وإذا تعرفنا على خصائص هذه السور وتاريخ نزولها وترتيب هذا النزول أدركنا أن جهدا كبيرا قد بذله العلماء الأولون حفاظا على هذا الكتاب العزيز وبيانا لما نزل منه أولا وما نزل منه تاليا ، وما نزل منه ليلا وما نزل منه صيفا وما نزل شتاء، وما نزل منه مشيعا بالملائكة ، وما نزل مفردا ، وما نزل مجملا وما نزل مفسرا ، وما نزل بالجحفة ، وما نزل ببيت المقدس، وما نزل بالطائف، وما نزل بالحديبية ، حتى ليكاد أن يكون لكل سورة سجل خاص بآياتها وتاريخ نزولها وسبب نزولها والأحكام التى حفلت بها وما فيها من ناسخ ومنسوخ ومحكم ومتشابه ، وعام وخاص. وإلى جوار ذلك بيان الآيات المدنيات فى السور المكية والآيات المكيات فى السور المدنية وما حمل من مكة إلى المدينة وما حمل من المدينة إلى مكة، وما حمل من المدينة إلى أرض الحبشة ، وما نزل بمكة وحكمه مدنى ، وما نزل بالمدينة وحكمه مكى ، وما نزل بمكة فى أهل المدينة وما يشبه نزول المدنى فى المكى .. تلك بضعة وعشرون وجها من لم يعرفها ويميز بينها لم يحل له أن يتكلم فى كتاب الله تعالى ، - كما قال أئمتنا فى علوم القرآن - .

مراحل ثلاث للسور المكية :

ومن خلال معرفتنا بسجل كل سورة وتاريخ نزولها وترتيب هذا النزول ، يمكننا أن نقسم السور المكية إلى ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى :

وهى المرحلة المبكرة فى تاريخ الدعوة وتتمثل فى السور الآتية :

سورة العلق ، المدثر ، الكوثر ، الأعلى ، الليل ، الشرح ، العاديات ، التكاثر ، النجم .

ومن خصائص السور فى هذه المرحلة شدة الإيجاز وقصر الآيات ، وتناسق الفواصل وتنويع الكلام بين أمر ونهى واستفهام وتمن ورجاء ، وانتقاء الألفاظ وتجسيم المعنويات وتشخيص الجوامد، وخلع الحركة والحياة والحوار على الأشياء الجامدة ، وبذلك تحولت السور إلى مشاهد موحية وعرض رائع نابض بالحياة والحركة ، ودعوة هادفة تأخذ سبيلها إلى القلوب وتنساب فى حنايا النفوس فتهدهد من كبريائها وتقوم عوجها بما تعرضه عليها من حقائق ساطعة عن الكون ومشاهده ، والخلق والبعث والبدء والإعادة .

كما ساق القرآن الكريم فى هذه الفترة قصصا قصيرة عن الأنبياء السابقين والأمم الخالية ليهدد به المشركين ويثبت به المؤمنين ، ويبين أن الدين واحد فى أصوله وعقائده ، وأن الإسلام دعوة عامة شاملة لجميع البشر .

المرحلة المتوسطة فى مكة :

وتتمثل هذه المرحلة فى السور الآتية : عبس ، التين ، القارعة، القيامة، المرسلات ، البلد، الحجر .

وقد حافظت السورة فى هذه المرحلة على قصر الآيات وتناسق الفواصل ، إلا أن بعض السور بدأت تجنح إلى الطول وبعض الآيات بدأت هى الأخرى تطول أيضا ، ويمكن القول بأن هذه المرحلة كانت توضيحا وبسطا لقضايا المرحلة الأولى، فقد عرض القرآن فى المرحلة الأولى قضية الإيمان والبدء والبعث والجزاء

والوحى والحساب بدون تفصيل أو إغراق فى الدليل ، وفى المرحلة المتوسطة عرض هذه القضايا مع شرح الفكرة وبسط الدليل والتأييد بالبرهان وسوق الأدلة التاريخية والكونية والنفسية تأييدا للدعوة واستمالة لنفوس الناس بالحكمة والموعظة الحسنة .

المرحلة الختامية فى مكة :

وتتمثل هذه المرحلة فى السور الآتية :

سور الصافات ، الزخرف ، الدخان ، الذاريات ، الكهف ، إبراهيم ، السجدة.

وفيها تميزت السور والآيات بالطول وافتتاح طائفة منها ببعض الحروف المقطعة ، وتوجيه الخطاب إلى الناس جميعا لا إلى أهل مكة وحدهم ، وتوضيح شئون الغيب بذات الله ، أو بالملائكة والجن ، أو بالأنبياء والأولياء ، أو بالمعجزات والكرامات ، وتصوير عقيدة التوحيد بأسلوب جديد والتذكير بطاعة الله ورسوله تمهيدا لما سيفصل فى المدينة من الفرائض والواجبات .

* * *

دفع شبهة :

يهمنى أن أوضح أن هذا التقسيم اجتهادى فردى مبنى على السمات الغالبة ، لا على الصفات المميزة ، فالقرآن فى مكة أو المدينة من أوله إلى آخره كلام الله العلى القدير ، وهوالخبير بما يناسب كل قوم ، والبصير برعاية أحوال المخاطبين، فناسب أهل مكة قصر الآيات والدعوة إلى الإيمان ومكارم الأخلاق ، ثم تدرج معهم فى الدليل ، وبسط الفكرة ، كما يراعى المعلم حال تلاميذه فيبدأ معهم بقصار السور ثم أوسطها ثم بالتى تليها تدرجا فى تعليمهم وتأليفا لقلوبهم .

على أنك تلاحظ آيات مكية منبثة بين آيات سور مدنية . وبرغم ذلك لا يكاد يحس أحد التفاوت أو التفكك والانقطاع ، بل يروعك ما بين الجميع من خلال الوحدة وكمال الاتصال ، وجمال التناسق والانسجام ، مما جعل القرآن كله سلسلة

واحدة متصلة الحلقات ، أو عقدا رائعا منتظم الحبات ، أو قانونا رصينا مترابط المبادئ والغايات .

وإن شئت فاعمد إلى أى سورة من سور القرآن ، وتنقل بفكرك بين آياتها ، ثم ارجع البصر كرتين : كيف بدئت ؟ وكيف ختمت ؟ وكيف تقابلت أوضاعها وتعادلت ؟ وكيف تلاقت أركانها وتعانقت ؟ وكيف ازدوجت مقدماتها بنتائجها ووطئت أولاها أخراها ؟

ومن وراء ذلك كله يسرى فى جملة السورة اتجاه معين، وتؤدى بمجموعها غرضا خاصا ، كما يأخذ الجسم قواما واحدا ويتعاون بجملته على أداء غرض واحد مع اختلاف وظائفه العضوية .

أليس ذلك دليلا على أن هذا النظم القرآنى ليس من وضع بشر ، وإنما هو صنع العليم الخبير ، وصدق الله العظيم :

﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾

(سورة النساء : ٨٢)

* * *

القرآن فى مكة

صفات القرآن المكى :

فى غار حراء ، وبين شعاب مكة وجبالها ، بدأ القرآن المكى ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، داعيا إلى توحيد الله ، منددا بعبادة الأوثان ، مخاطبا فطرة الإنسان ، محررا ضميره من التقليد الأعمى للآباء والأجداد ، مناديا بالفضائل ناهيا عن الرذائل لافتا أنظار الناس إلى الكون وما فيه ، والسماء ومن أبدعها ، والأرض ومن بسطها ، والجبال ومن أرساها ، والبحار ومن أجراها ، وإلى مظاهر هذا الكون من ليل مظلم ، ونهار مشمس وقمر باهر وكوكب زاهر ، ونبات نام ، ورياح جارية ، وأمطار هاطلة . وفى مثل ذلك نجد هذه الآيات القصار من سورة الغاشية :

﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ * فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾

(الآيات : ١٧ - ٢٢)

ونجد هذه الآيات من سورة عبس :

﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا * فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾

(الآيات : ٢٤ - ٣٢)

وقد تميز كل من القرآن المكى والمدنى بخصائص مميزة وعلامات موضحة، ورغم أن مرجع العلم بالمكى والمدنى هو السماع عن طريق الصحابة والتابعين ، إلا

أن هناك سمات وضوابط يعرف بها المكى والمدنى ، عرفها علماؤنا السابقون نتيجة الاستقراء والمراجعة لكتاب الله العزيز .

فمن خصائص القرآن المكى ما يأتى :

١- كل سورة فيها لفظ « كلا» فهى مكية ، وقد ذكر هذا اللفظ فى القرآن الكريم ثلاثا وثلاثين مرة كلها فى النصف الأخير من القرآن (وحكمة ذلك أن نصفه الأخير نزل أكثره بمكة ومعظم أهلها جبابرة فتكررت على وجه التهديد والتعنيف والإنكار عليهم) .

٢- كلُّ سورة فيها « يأيها الناس» وليس فيها « يأيها الذين آمنوا» فهى مكية.

٣- كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الغابرة فهى مكية ، سوى سورة البقرة .

٤- كل سورة فيها قصة آدم وإبليس فهى مكية، سوى سورة البقرة أيضا .

٥- كل سورة فى أولها حروف التهجى مثل « الم ، طسم ، حم» فهى مكية ، سوى البقرة وآل عمران .

٦- كل سورة فيها سجدة فهى مكية .

وهذه الخصائص الست - إذا حفظ ما استثنى منها جانبا - أمارات قطعية لا تختلف .

صفات أخرى يكثر وجودها فى القرآن المكى :

هناك سمات غالبة ، وصفات شائعة تتعلق فى مجموعها بأمور بلاغية ومعنوية تساعد فى ترجيح مكية الآية أو مدنيتها .

فمما كثر فى القسم المكى ما يأتى :

أولا : استثارة العقل والفكر ، ولفت الأنظار إلى ما فى الكون من أدلة واضحة، وعلامات شاهدة على وحدانية الله وقدرته .

ففى سورة (ق) المكية - وهى سورة كان النبى يكثر من قراءتها فى خطبة الجمعة حتى قالت النساء ما حفظنا سورة (ق) إلا من خطبة النبى - صلى الله عليه وسلم - بها .

يقول سبحانه : ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ . (سورة ق : الآيات ٦ -١١)

وهذه الآيات نموذج من نماذج الدعوة المتكررة فى القرآن ، التى تستصرخ الإنسان الجاحد وتصيح فيه : إنك لم تخلق عبثا ولن تترك سدى ، ولابد لهذا الكون من خالق ، ولابد لهذه الدنيا من غاية ، ولابد أن بعد الموت بعثا وحسابا وجزاء وجنة أو نارا .

قال تعالى : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ (سورة المؤمنين : ١١٥ ، ١١٦) .

ثانيا : حمل القرآن حملة شعواء على الشرك والوثنية ، وعلى الشبهات التى تذرع بها أهل مكة للإصرار على عبادة الأوثان ، ودخل عليهم من كل باب وأتاهم بكل دليل وحاكمهم إلى الحس وضرب لهم أبلغ الأمثال التى تدل دلالة واضحة على ضياع الأصنام وعدم غنائها ، وأنها لا تنفع ولا تضر ، ولا تملك لنفسها ذلك، فضلا عن أن تمنحه لمن يعبدها ، والمعروف أن فاقد الشىء لا يعطيه .

وفى قصة إبراهيم الخليل ونقاشه مع قومه بشأن الأصنام قصص هادف ونموذج داع إلى اقتلاع هذه العادة فقد كسر إبراهيم الأصنام التى تعبد من دون الله ثم قال لقومه : ﴿. . . أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلايَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (سورة الأنبياء : ٦٦، ٦٧) .

ولما عاند أهل مكة واحتجوا بما كان عليه آباؤهم ، نعى عليهم أن يمتهنوا كرامة الإنسان إلى هذا الحضيض من الذلة للأحجار والأصنام ، وسفه أحلامهم وأحلام آبائهم الذين أهملوا النظر فى أنفسهم وفى آيات الله فى الآفاق ، وقبح إليهم الجمود على هذا التقليد الأعمى للآباء والأجداد ﴿أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾ (سورة البقرة : ١٧٠) .

وناقشهم كذلك فى عقائدهم الضالة التى نجمت عن تلك الوثنية من جحود الإلهيات والنبوءات وإنكار البعث والمسئولية والجزاء .

ثالثا : تحدث القرآن عن عادات أهل مكة المرذولة ، فنهاهم عنها وبين لهم آثارها السيئة على الفرد والمجتمع، ونهاهم عن القتل وسفك الدماء ووأد البنات واستباحة الأعراض وأكل مال الأيتام .

وفى الجانب المقابل مدح الأتقياء بأنهم لا يقترفون هذه المنكرات . مثال ذلك ما ورد فى سورة الفرقان (الآية : ٦٨) : ﴿الَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ .

رابعا : شرح القرآن لأهل مكة أصول الأخلاق وحقوق الاجتماع شرحا عجبا، كره إليهم الكفر والفسوق والعصيان وفوضى الجهل وجفاف الطبع وقسوة القلب وخشونة اللفظ، وحبب إليهم الإيمان والطاعة والنظام والعلم ، والمحبة والرحمة والإخلاص واحترام الغير ، وبر الوالدين وإكرام الجار وطهارة القلب ونظافة اللسان وإلى غير ذلك .

خامسا : قص القرآن على أهل مكة من أنباء الرسل وأنباء الأمم السابقة ما فيه أبلغ المواعظ ونفع العبر من تقرير سننه تعالى الكونية فى إهلاك أهل الكفر والطغيان ، وانتصار أهل الإيمان والإحسان مهما طالت الأيام وامتد الزمان ما داموا قائمين بنصرة الحق وتأييد الإيمان .

سادسا : سلك القرآن مع أهل مكة سبيل الإيجاز فى خطابه ، حتى جاءت السور المكية قصيرة الآيات ، لأنهم كانوا أهل فصاحة ولسن ، صناعتهم الكلام وهمتهم البيان فيناسبهم الإيجاز دون الإطناب ، كما أن قانون الحكمة العالية ، قضى بأن يسلك سبيل التدرج والارتقاء فى تربية الشعوب والأفراد، وأن يقدم الأهم على المهم، ولا ريب أن العقائد والأخلاق والعادات أهم من ضروب العبادات ودقائق المعاملات ، لأن الأولى كالأصول بالنسبة للثانية .

لذلك كثر فى القسم المكى التحدث عنها والعناية بها تقديما للأهم على المهم، وسيرا مع المبادئ العامة للرسالات التى استهدفت هداية الإنسان وشرفه وتهذيب أخلاقه .

قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ . (سورة الأنبياء : ١٠٧) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

* * *

القرآن فى المدينة

هاجر النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ورحب أهلها بالرسول الأمين وانساب السلام والإسلام بين أهلها وسمى مسلمو المدينة بالأنصار . وسمى من هاجر من مكة بالمهاجرين ، وقد آخى عليه الصلاة والسلام بين المهاجرين والأنصار، وأرسى دعائم الدولة الجديدة، وعقد صلحا مع اليهود نص فيه على حرية العقيدة وعلى الدفاع المشترك عن المدينة ، وكان يهدف من ذلك إلى تأمين جانب المسلمين فى المدينة حتى يتمكن من نشر الإسلام خارجها . وبث عليه الصلاة والسلام السرايا وقاد الغزوات وواكبه النصر فى معظم حروبه، وكان الوضع الجديد فى المدينة داعيا إلى تميز القرآن المدنى بما يناسب المجتمع الجديد . فكان الوحى ينزل شارحا للمسلمين أصول دينهم داعيا جموع الناس إلى العقيدة السليمة ، مواكبا ركب الدعوة الإسلامية مضيئا لها مشعل النور والهداية .

طوائف المدينة :

تطور المجتمع المدنى بعد ظهور الإسلام وانتشاره بالمدينة وأصبحت أهم الفئات التى تقطن المدينة ثلاث طوائف ، هم : المسلمون واليهود والمنافقون .

١- أما من جهة المسلمين فقد تنزلت آيات مدنية تناولت دقائق التشريع وتفاصيل الأحكام وأنواع القوانين المدنية والجنائية والحربية والاجتماعية والدولية، والحقوق الشخصية وسائر ضروب العبادات والمعاملات .

ونجد ذلك ظاهرا فى سورة البقرة والنساء والأنفال والحجرات ونحوها .

٢- وأما من جهة اليهود فقد ناقشتهم السور المدنية، فذكرتهم بماضيهم وتحريفهم كلام الله وعدوانهم فى السبت وقتلهم الأنبياء واتخاذهم العجل وحبهم

للمادة وحرصهم على الحياة . قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ﴾ .

(سورة البقرة :٩٦)

كما وصفت الآيات المدنية اليهود أيام موسى وبعد موسى وأيام عيسى ، وأيام محمد صلى الله عليه وسلم ، ووضحت أن طبيعتهم واحدة ، وأن صفاتهم المرذولة توارثها الأبناء عن الآباء ولذلك خاطبهم جميعا بخطاب واحد . قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (سورة البقرة : ٩١) .

٢- وأما من جهة المنافقين فقد تصدى لهم القرآن يفضح دخائلهم ويكشف سوء نواياهم حتى نزلت سورة باسمهم تصف نفاقهم وتلقى الضوء على خداعهم وسوء طويتهم . قال تعالى : ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (سورة المنافقون: ١)

وفى سورة البقرة يصف الله المؤمنين فى آيات ، ثم يتحدث عن الكافرين فى آيتين ثم يتحدث عن المنافقين فى ثلاث عشرة آية ، يلقى فيها الضوء على خداعهم وتسترهم فى الدروب و المنعطفات ، وقد بدأ ذلك بقوله سبحانه :

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (سورة البقرة : ٨-٩) .

كما نزلت سورة التوبة بالمدينة وسميت بسورة الفاضحة لأنها فضحت المنافقين ووالت حملاتها عليهم فذكرت خلفهم للعهد وتخلفهم عن الجهاد وتربصهم السوء بالمسلمين واعتذارهم الكاذب طمعا فى الإقامة بالمدينة وجبنا عن خوض المعارك، وخصوصا فى وقت العسرة وحرارة الصيف . قال تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ (سورة التوبة : ٨١) .

ضوابط السور المدنية :

مما تقدم يتضح أن للقسم المدنى ضوابط محكمة لا تتخلف وهى كما يأتى:

١- كل سورة فيها تفاصيل لأحكام الحدود والفرائض والحقوق والقوانين المدنية والاجتماعية والدولية ، فهى مدنية .

٢- كل سورة فيها إذن بالجهاد وبيان لأحكامه فهى مدنية .

٣- كل سورة فيها ذكر المنافقين فهى مدنية .

٤- كل سورة يكثر فيها مجادلة أهل الكتاب ودعوتهم إلى عدم الغلو فى دينهم فهى مدنية .

وأما الأمارات الغالبة التى يرجح امتياز القسم المدنى بها فهى :

١- طول السورة وبعض آياتها وإطنابها وأسلوبها التشريعى الهادئ .

٢- تفصيل البراهين والأدلة على الحقائق الدينية .

نماذج من السور المدنية :

يمكن أن نتخير بعض السور المدنية لنرى أهم الموضوعات التى اشتملت عليها والمبادئ والأهداف السامية التى حفلت بها .

ولنضرب مثالا لذلك بما يأتى :

* * *

نظام عقد المعانى فى سورة البقرة

١- المقصد الأول :

بيان أقسام الخلق أمام القرآن . وهم : المؤمنون والكافرون والمنافقون . (من الآية ٢-٢٠) .

٢- المقصد الثانى :

بيان أصول الدين عند الله وخلق آدم عليه السلام . (الآية ٢١- ٤٣) .

٣- المقصد الثالث :

من مقاصد سورة البقرة دعوة أهل الكتاب دعوة خاصة إلى ترك باطلهم والدخول فى هذا الدين الحق . من قوله تعالى : «يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون » (الآيات ٤٠ - ١٧٦) .

٤- المقصد الرابع :

عرض شرائع الإسلام تفصيلا ، من قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ . . ﴾ (الآية : ١٧٧) أى من منتصف السورة تقريبا إلى آخرها .

وقد تحدثت السورة فى هذا النصف الأخير عن التشريعات والعبادات والمعاملات والأحكام التى اقتضاها وجود المسلمين كجماعة ناشئة تدين بفكرة الإسلام وتلتزم بنظمه .

فقد تحدثت السورة فى نصفها الثانى عن القصاص وأحكام القتل وذكرت الصيام والوصية والاعتكاف والحج والعمرة والقتال ، وذكرت الميسر والخمر واليتامى وحكم مصاهرة المشركين وذكرت حيض النساء والتطهر منه والطلاق والخلع والعدة والرضاع ، وذكرت الأيمان وكفارة الحنث ، وذكرت الإنفاق فى سبيل الله والربا والبيع وذكرت طرق الاستيثاق فى الديون بالكتابة والاستشهاد ، ويبدأ هذا السياق من قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى . . ﴾. (الآية : ١٧٨) إلى ما قبل آخر السورة . وكان يتخلل هذه الأحكام ذكر الوازع والنازع الدينى الذى يبعث على ملازمة هذه الأحكام ويعصم عن مخالفتها ، وذكر القصص والوعد والوعيد، والإرشاد والتوجيه ، ثم كانت خاتمة السورة فى التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة الشاملة لتلك المقاصد وبيان ما يجرى لهم فى آجلهم وعاجلهم .

* * *

نموذج آخر
بالمبادئ التى اشتملت عليها سورة النساء

إذا أردنا إيجاز المبادئ والأهداف التى اشتملت عليها سورة النساء المدنية أمكن أن نردها إلى الأمور الآتية :

١- إعلان مبدأ المساواة بين الناس تمهيدا لإقامة المجتمع على أساسه .

٢- حقوق النساء واليتامى والسفهاء .

٣- أحكام المواريث .

٤- أحكام الزوجية وما يتصل بها .

٥- التضامن الاجتماعى فى ظل التوحيد والخلق الكريم .

٦- أساس الحكومة الإسلامية .

٧- التحذير من أهل النفاق والكفر ومن الأعداء الذين يتربصون الدوائر بالمؤمنين ويحاربونهم حروبا مادية ومعنوية .

٨- إرسال الرسل شأن إلهى وليس محمد بدعا من الرسل .

٩- إقامة الحجة على من يزعمون التثليث .

١٠- الرسالة المحمدية رسالة موجهة إلى الناس أجمعين .

ومن ذلك يتضح أن القرآن فى المدينة ربى المسلمين تربية ربانية ووضع الأساس المحكم للأمة الإسلامية ، فى نظامها وسلوكها وعقيدتها وعبادتها وكل أمور حياتها حتى صارت بحق خير أمة أخرجت للناس . وصدق الله العظيم :

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾

(سورة الإسراء : ٨٢)

* * *

فواتح السور

أنزل القرآن الكريم على النبى الأمين خلال بعثته الشريفة ، وكانت سور القرآن سجلا حافلا لتاريخ الدعوة وهديا ساطعا لشرح الفكرة ، وتشريعا خالدا خلود الرسالة :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر : ٩) .

وفى كل سورة من سور القرآن الكريم نجد روحا عامة تسيطر عليها ، وفكرة أساسية هى محور اهتمامها ، وقد تنوعت فواتح السور تبعا لتنوع موضوعها ، فمنها ما بدئ بالثناء وإثبات الحمد لله .

كما فى سورة الفاتحة : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

وسورة الأنعام : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ (الأنعام : ١) .

وسورة الكهف : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ .

ومنها ما بدئ بالنداء مثل : ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ ، ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ .

ومنها ما بدئ بالقسم مثل : والصافات ، والذاريات ، والطور ، والنجم، والفجر ، والشمس ، والليل ، والضحى ، والعاديات ، والعصر .

حروف المعجم :

ومن السور القرآنية ما بدئ ببعض الحروف الهجائية التى لا تكون كلمات مثل: ألف ، لام ، ميم .

وفى القرآن صيغ مختلفة من هذه الفواتح ، منها ما هو ذو حرف واحد مثل ﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ ، ﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ ، ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ .

ومنها ما هو ذو حرفين مثل : ﴿طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾، ﴿يسٓ * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ ، ﴿حمٓ * تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ .

وقد تكررت « حم» فى بداية سورة غافر وفصلت والشورى والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف .

ومن السور ما بدئ بثلاثة أحرف مثل « الر ، الم» .

وقد تكررت « الم» فى بداية سورة البقرة وآل عمران والعنكبوت والروم ولقمان والسجدة .

ومن السور ما بدئ بأربعة أحرف مثل : « المص ، المر» . ومنها ما بدئ بخمسة أحرف مثل : ﴿كٓهيعٓصٓ * ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ .

معانى هذه الفواتح :

ليس لهذه الفواتح فى اللغة العربية معان مستقلة ، ولم يرد من طريق صحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم بيان للمراد منها .

بيد أنه قد أثرت عن السلف آراء متعددة فى معانى هذه الحروف ، وهذه الآراء على كثرتها ترجع إلى رأيين اثنين :

أحدهما : أنها جميعا مما استأثر الله به، ولا يعلم معناه أحد سواه ، وهذا رأى كثير من الصحابة والتابعين .

وثانيهما : أن لها معنى ، وقد ذهبوا فى معناها مذاهب شتى :

١- فمنهم من قال إنها أسماء للسور التى بدئت بها ، أو أن كلا منها علامة على انتهاء سورة والشروع فى أخرى .

٢- ومنهم من قال إنها رموز لبعض أسماء الله تعالى وصفاته ، فنسب إلى ابن عباس فى « كهيعص » أن الكاف من الملك والهاء من الله والياء من الولى أو من الحى والعين من العزيز والصاد من المصور .

ونسب إليه أنها إشارة إلى : كاف، هاد، أمين، عالم، صادق. وروى عن الضحاك فى معنى « الر»: أنا الله أرفع .

٣- ومنهم من قال إنها قسم أقسم الله به، لبيان شرف هذه الحروف وفضلها إذ هى مبانى كتابه المنزل على رسوله.

٤- ومنهم من قال : إن المقصود منها هو تنبيه السامعين وإيقاظهم.

٥- ومنهم من قال : إن المقصود منها سياسة النفوس المعرضة عن القرآن واستدراجها إلى الاستماع إليه، والمعروف أن أعداء الإسلام فى صدر الدعوة كانوا يتواصون بعدم الاستماع للقرآن.

ويقولون : ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (فصلت : ٢٦)

فلما أنزلت السور المبدوءة بحروف الهجاء، وقرع أسماعهم ما لم يألفوه التفتوا، وإذا هم أمام آيات بينات استهوت قلوبهم، واستمالت عقولهم، فآمن من أراد الله هدايته، وشارف الإيمان من شاء الله تأخيره، وقامت الحجة فى وجه الطغاة المكابرين.

٦- ومنهم من ذهب إلى أن هذه الحروف ذكرت للتحدى وبيان إعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن الإتيان بمثل القرآن مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التى يتخاطبون بها.

فى هذا دلالة على أنه ليس من صنع بشر، بل تنزيل من حكيم حميد، وقد لاحظ هذا الرأى أن فواتح السور مكونة فى جملتها من أربعة عشر حرفا هى نصف حروف الهجاء، كما أنها حوت فوق ذلك من كل جنس من الحروف نصفه، فقد حوت نصف الحروف المهموسة، ونصف الحروف المجهورة، وكأنه قيل : « من زعم أن القرآن ليس بآية، فليأخذ الشطر الباقى ويركب عليه لفظا معارضة للقرآن».

رجوع إلى القرآن :

وإذا رجعنا إلى القرآن نفسه وتتبعنا هذه السور الكريمة التى بدئت بحروف الهجاء رأينا أنها فى الأعم تحدثت عن نزول القرآن الكريم وإعجازه فدل ذلك على أن هذه الحروف قد ذكرت فى بداية هذه السور إشارة إلى التحدى والإعجاز وأن هذا القرآن ليس من صنع بشر، بل هو كتاب الله الذى أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم، وختم به رسالته إلى خلقه، وبين فيه شريعته وسنته فى كونه، وكان لنبيه معجزة خالدة، تنطق بأنه رسول رب العالمين .

اقرأ إن شئت ﴿الٓمٓ * ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ (البقرة)

﴿الٓمٓ * اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ (آل عمران).

﴿ الٓمٓصٓ * كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ (الأعراف) .

﴿الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ (يونس).

﴿الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود) .

﴿الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف) .

﴿الٓمٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ﴾ (الرعد) .

﴿الٓر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (إبراهيم) .

﴿الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾ (الحجر) .

﴿طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾ (طه) .

﴿طسٓمٓ * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (الشعراء) .

﴿طسٓمٓ * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (القصص) .

﴿طسٓ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (النمل) .

﴿الٓمٓ * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ * هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ (لقمان) .

﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ (ص) .

﴿حمٓ * تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (غافر) .

﴿حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (فصلت) .

﴿حمٓ * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الزخرف) .

﴿حمٓ * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ (الدخان) .

﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ (ق) .

* * *

أسباب النزول :

وإذا نظرنا إلى الأسباب العامة لنزول هذه الآيات وإلى الجو الذى نزلت فيه رأينا أنها كلها سور مكية، ما عدا سورة البقرة وآل عمران، وكلها نزلت تجادل كفار مكة وتصرفهم عن عنادهم وتأخذ بأيديهم وألبابهم إلى مواطن الإعجاز فى هذا الكتاب الخالد الذى أنزله الله على نبيه هداية لهم ونورا لحياتهم ونظاما لسلوكهم، ولكنهم صموا آذانهم عن سماعه وقالوا أساطير الأولين، وادعوا أنه حديث مفترى، وأنهم لو شاءوا لقالوا مثله، إلى غير ذلك مما كانوا يحاولون به صرف الناس عن القرآن والصد عنه، فبدئت هذه السور بهذا الأسلوب تأثيرا فى قلوبهم ولفتا لأنظارهم. ولا يخفى أن المفاجأة بالغريب الذى لم يؤلف، لها فى إرهاف الأسماع وتنبيه الأذهان ما لا يحتاج إلى بيان.

سر الإعجاز:

ولا يبعد أن يكون الإعجاز فى هذه الأحرف هو اشتمالها على جميع الوجوه التى ذكرها العلماء فى معانيها.

فهى بداية للسور، وهى إشارة إلى أسماء الله تعالى أو صفاته، وهى لون من التنبيه الذى يقرع الأذهان ويلفت الغافلين.

وهى مما أقسم الله به لبيان شرف القرآن وفضله.

وهى مما استأثر الله بحقيقة المراد منه، فكل ما ذكره العلماء اجتهاد محمود لإدراك أسرارها أو حكمة الابتداء بها.

ولا يزال الله يتفضل على عباده صباح مساء بفهم كتابه واستنباط معانيه، سئل الإمام على رضى الله عنه : هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشىء؟ فقال لا إلا فهما يعطيه الله لرجل فى القرآن .

وصدق الله العظيم ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ (الكهف : ١٠٩)

★ ★ ★

نزول القرآن

تفيد آيات القرآن الكريم أنه نزل فى ليلة واحدة هى ليلة القدر المباركة وهى إحدى ليالى شهر رمضان المبارك .

قال تعالى : ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ (البقرة : ١٨٥)

وقال تعالى : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (القدر : ١)

وقال عز شأنه : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ (الدخان :٣)

وهذه الآيات فى جملتها تفيد أن القرآن الكريم أنزل على النبى الأمين فى شهر رمضان وتحدد ليلة بالذات، هى ليلة القدر التى أنزل فيها القرآن الكريم وحظيت هذه الليلة بالتفضيل والتكريم فكانت خيرا من ألف شهر.

وقد يسأل إنسان فيقول : إن الواقع المشاهد هو نزول القرآن الكريم على النبى الأمين فى ثلاث وعشرين سنة من أول البعثة المحمدية إلى آخر حياته الشريفة.

قال تعالى : ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾ (الإسراء: ١٠٦)

فالقرآن لم ينزل فى ليلة واحدة وإنما نزل فى ثلاث وعشرين سنة، فكيف نوفق بين مفهوم الآيات الأولى، ومفهوم الآية الأخيرة ؟

وللعلماء فى التوفيق بينهما ثلاثة آراء :

الرأى الأول :

أن المراد بنزول القرآن فى ليلة القدر هو ابتداء النزول فى هذه الليلة من تسمية الشىء باسم أوله باعتباره حجر الأساس فى هذا البناء العظيم.

فالقرآن بدأ نزوله فى ليلة القدر ثم نزل بعد ذلك منجما حسب الوقائع والحوادث، وهذا هو رأي الشعبى، فقد فسر قوله تعالى :﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ بمعنى أنه ابتدأ نزول القرآن فى ليلة القدر، ثم استمر نزول القرآن ثلاثا وعشرين سنة تحقيقا لقوله تعالى : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾ .

الرأى الثانى :

أن القرآن نزل إلى سماء الدنيا فى ثلاث وعشرين ليلة قدر ينزل فى كل ليلة قدر منها ما يقدر الله إنزاله فى تلك السنة ثم ينزل بعد ذلك منجما فى جميع السنة على النبى صلى الله عليه وسلم.

الرأى الثالث :

أن القرآن نزل إلى السماء الدنيا ليلة القدر جملة واحدة ثم نزل بعد ذلك منجما فى ثلاث وعشرين سنة.

والرأي الثالث هو رأى الجمهور، وهو أولى الآراء بالصواب، إذ يجمع بين مدلول الآيات، ويؤيده ما ورد فى الصحيح وما هو مقطوع به من نزول القرآن طوال مدة الرسالة .

وأصحاب هذا الرأى يذهبون إلى أن للقرآن الكريم تنزلات ثلاثة :

التنزل الأول :

إلى اللوح المحفوظ، قال تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ (البروج: ٢٢)، وقد نزل القرآن إليه جملة واحدة وكتب فى اللوح المحفوظ على نحو نؤمن به ونفوض حقيقة المراد منه إليه سبحانه وتعالى .

التنزل الثانى :

من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة فى سماء الدنيا وهو المعبر عنه بقوله تعالى : « إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ» .

التنزل الثالث والأخير :

هو نزول القرآن الكريم على يد جبريل الأمين من بيت العزة فى سماء الدنيا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فى مدة رسالته، وهو المعبر عنه بقوله : ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾

(الشعراء : ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥)

والحكمة من هذا النزول هى تفخيم أمر القرآن وأمر من نزل عليه بإعلام سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم المرسلين لأشرف الأمم، وإنزاله مرتين مرة جملة ومرة مفرقا، بخلاف الكتب السابقة فقد كانت تنزل جملة مرة واحدة.

وذكر بعضهم أن فى النزول إلى السماء الدنيا إلهابا لشوق النبى صلى الله عليه وسلم إليه، على حد قول القائل :

وأعظم ما يكون الشوق يوما إذا دنت الخيام من الخيام

الأحاديث الصحيحة :

وقد جاءت الأخبار الصحيحة مبينة لتنزلات القرآن، ونقل القرطبى الإجماع على نزول القرآن جملة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة فى السماء الدنيا، كما نصت على ذلك الروايات التالية :

١- أخرج الحاكم والبيهقى وغيرهما من طريق منصور عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : « أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا وكان بمواقع النجوم، وكان الله ينزله على رسوله صلى الله عليه وسلم بعضه فى أثر بعض ».

٢- وأخرج الحاكم بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال : « فصل القرآن من الذكر فوضع فى بيت العزة من السماء الدنيا فجعل جبريل ينزل به على النبى صلى الله عليه وسلم ».

٣- وأخرج ابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس أنه سأله عطية بن الأسود فقال: أوقع فى قلبى الشك قوله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ .

وهذا أنزل فى شوال وفى ذى القعدة وفى ذى الحجة وفى المحرم وصفر وشهر ربيع . فقال ابن عباس : « إنه أنزل فى رمضان فى ليلة القدر جملة واحدة، ثم أنزل على مواقع النجوم رسلا فى الشهور والأيام ». وقال أبو شامة « رسلا » أى رفقا « وعلى مواقع النجوم » أي على مثل مساقطها، يريد أنه أنزل فى رمضان فى ليلة القدر جملة واحدة، ثم أنزل على مواقع النجوم منجما يتلو بعضه بعضا على تؤدة ورفق .

وهذه الأحاديث صحيحة كما ذكر السيوطى، وهى وإن كانت موقوفة على ابن عباس، إلا أن لها حكم المرفوع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الحكمة فى تنجيم القرآن :

قد يسأل سائل عن الحكمة فى تفريق نزول القرآن على النبى - صلى الله عليه وسلم ؟

والحكمة فى هذا أن القرآن من عالم الغيب وله من الشدة والهول ما يناسب جلاله، قالت عائشة رضى الله عنها : « ولقد رأيت النبى ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد وإن جبينه ليتفصد عرقا ».

فكان من لطف الله بالنبى أن فرق نزول القرآن عليه خلال مدة رسالته الشريفة ليكون ذلك آنس لقلبه، وليثبت به فؤاده، وليصبح القرآن زادا متصلا يتدرج

فى تربية الأمة الناشئة علما وعملا ، ويساير الحوادث والطوارئ فى تجددها وتفرقها، فكلما جد جديد نزل من القرآن الكريم ما يناسبه، وأوضح الله من الأحكام ما يوافقه، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً * وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾

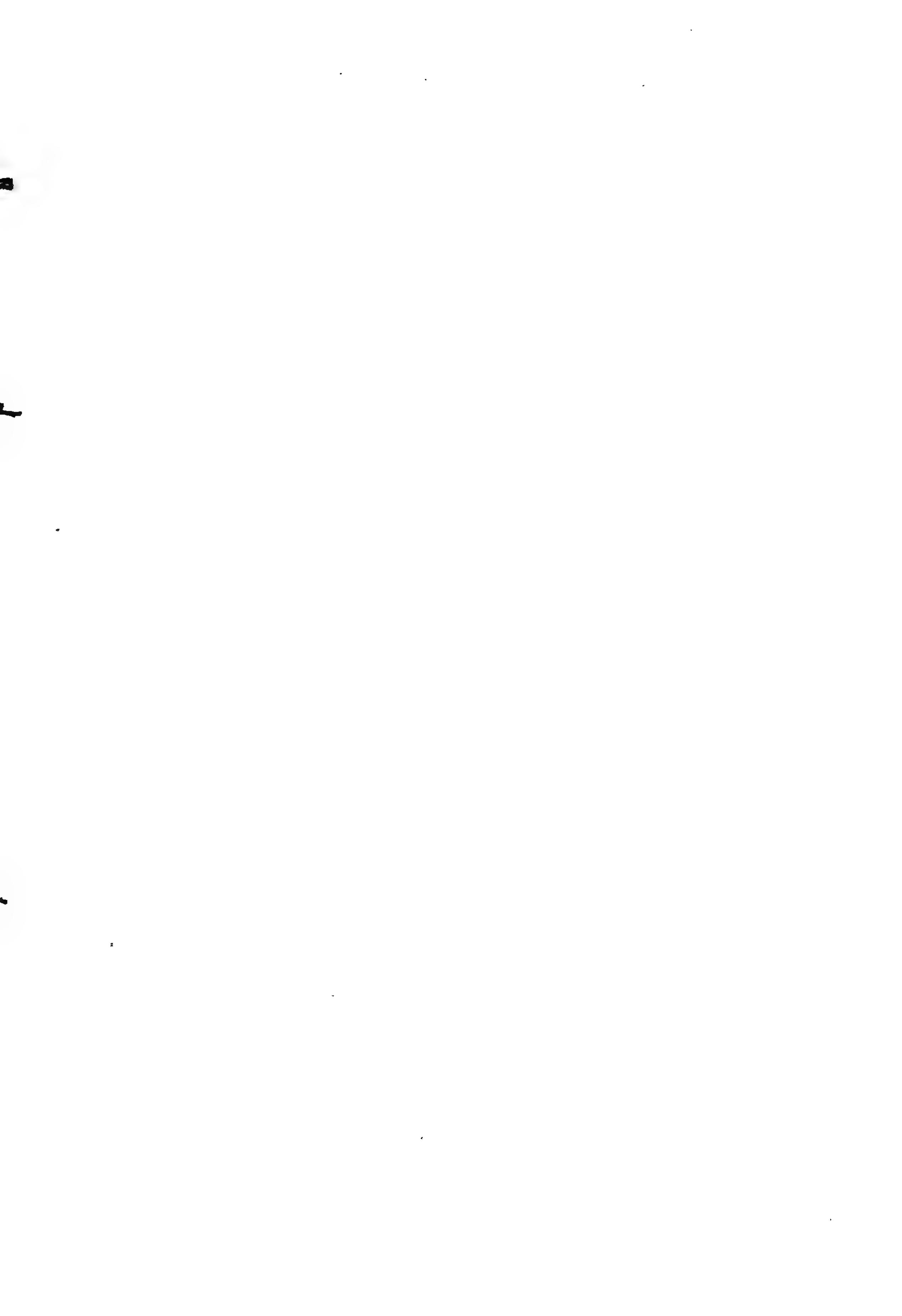
(الفرقان : ٣٢، ٣٣)

والأمر بعد ذلك مرده إلى الإيمان والتسليم بأن القرآن كتاب الله المنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم، والمتعبد بتلاوته، والمتحدى به العرب، والمحفوظ بحفظ الله رب العالمين.

﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

(الواقعة : ٧٧ - ٨٠)

* * *



الفصل الثانى

أسباب النزول

١- أسباب نزول القرآن توضح سمات المجتمع الإسلامى.

٢- أسباب النزول وشئون الأسرة.

٣- أسباب النزول وشئون الطلاق والميراث.

٤- أسباب النزول توضح سماحة الإسلام .

٥ - أسباب النزول تبرز أخلاق الإسلام العالية .

« العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ».

٦- معانى القرآن عامة وشاملة.

٧- حركة النفاق فى المدينة مثل لأساليب المنافقين .

التعبير عن سبب النزول .

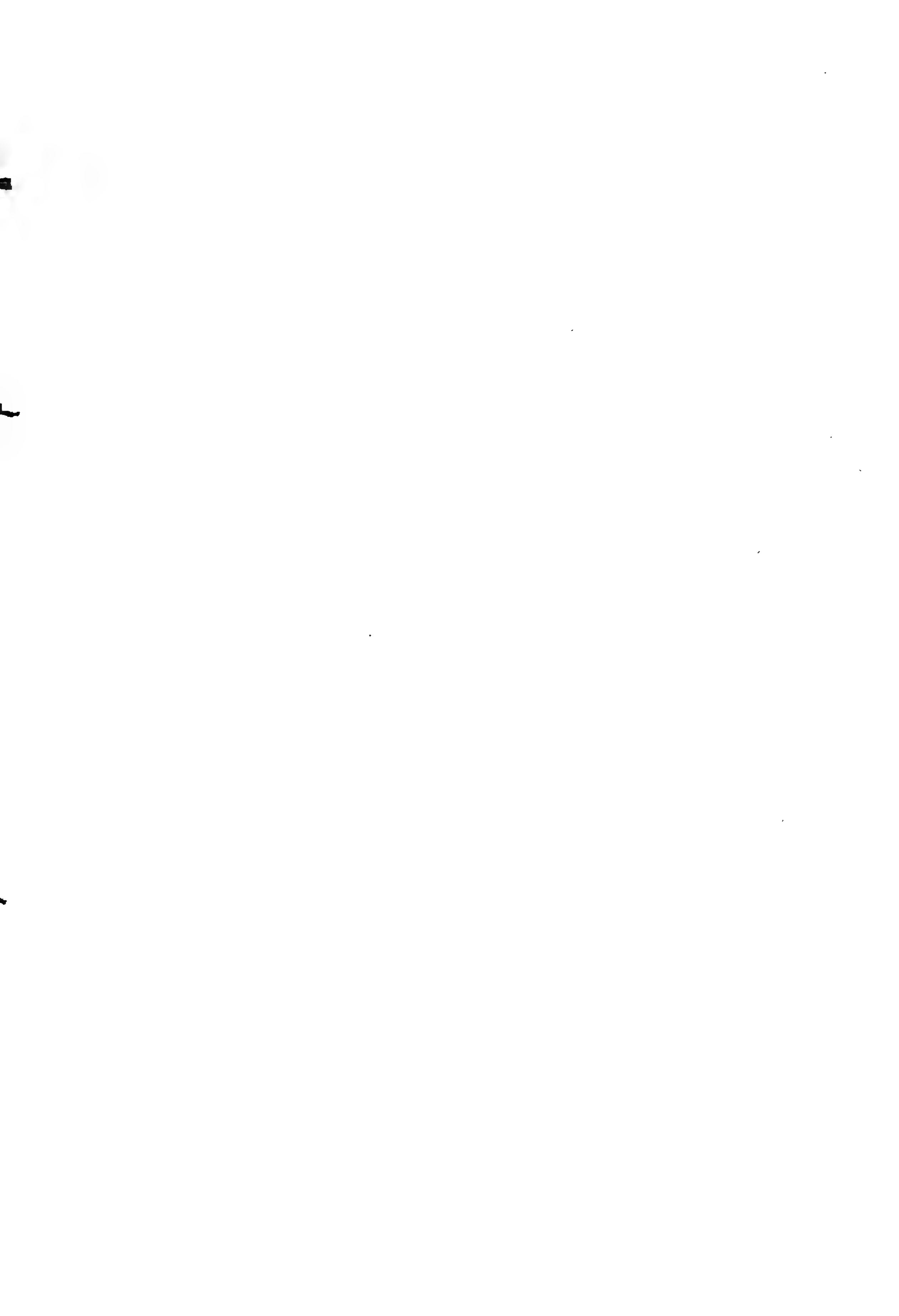
جهل سبب النزول .

« آيات القرآن وأسباب النزول » .

أهمية معرفة أسباب النزول .

تعدد الأسباب والمنزل واحد .

تعدد النازل والسبب واحد .



أسباب نزول القرآن
توضح سمات المجتمع الإسلامى

القرآن الكريم كتاب الحياة يصحح أخطاءها وينير طريقها ويرسم لها الطريق السوى ويبعث البركة والنماء فى نفوس المؤمنين به، ودراسة الأسباب التى أدت إلى نزول بعض آيات القرآن توضح سمات المجتمع الإسلامى وتميز ملامحه ، وتجعلنا نعيش فى زمن الوحى، نستطلع الحياة وأسبابها ونعرف تاريخ الآيات وما نزلت متحدثة عنه أو مبينة لحكمه أيام وقوعه .

١- فقد كانت الحادثة إذا وقعت فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم نزل الوحى من السماء يبين الحكم ويشرح للناس ما يرشدهم إلى ما فيه صلاحهم فى معاشهم ومعادهم ، سواء أكانت تلك الحادثة خصومة دبت ، كالخلاف الذى شجر بين جماعة من الأوس وجماعة من الخزرج - بدسيسة من أعداء الله اليهود - حتى تنادوا : السلاح السلاح ، ونزلت بسببه تلك الآيات الحكيمة فى سورة آل عمران من أول قوله - سبحانه وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ إلى آيات أخرى بعدها هى من أروع ما ينفر من الانقسام والشقاق ويرغب فى المحبة والوحدة والاتفاق [1] .

أم كانت تلك الحادثة خطأ ارتكب كخطأ ذلك الأنصارى الذى سكر فضرب وجه سعد بن أبى وقاص بلحى بعير فشجه ، فانطلق سعد مستعديا رسول الله صلى الله عليه وسلم - فأنزل الله تحريم الخمر فى قوله سبحانه وتعالى فى سورة

---

(١) انظر الآيات : ١٠٠ - ١٠٥ من سورة آل عمران .

المـــائدة : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ (١)

(سورة المائدة : ٩٠، ٩١)

وماأكثر الأخطاء التى تحدث فى المجتمع ، لكن القرآن كان يضع العلاج الحاسم لكل خطأ ، حتى يحفظ المجتمع من استمرار الخطأ أو تكرار الجريمة .

هذا عياش بن أبى ربيعة بن المغيرة المخزومى يقتل مؤمنا خطأ ، والقتيل هو الحارث بن يزيد بن أبى أنيسة من بنى عامر بن لؤى ، فينزل الوحى علاجا للمشكلة الحادثة ، ونظاما متبعا فى أمثالها إلى يوم الدين ، يقول الله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُوا﴾ (سورة النساء : ٩٢) .

وحينما قتل مقيس بن ضبابة الكنانى ثم الليثى رجلا من قريش يقال له عمرو الفهرى عامدا متعمدا ، أنزل الله الآية الكريمة : ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (سورة النساء : ٩٣) .

٢- وقد تكون الحادثة سببا فى بيان حكم فى شأن من شئون الأسرة أو المجتمع .

فمن أمثلة ذلك أن أهل الجاهلية كانوا لا يورثون البنات والصغار من الذكور ، ولكن القرآن كرم المرأة فجعل لها نصيبا من الميراث ، وكرم إنسانية الإنسان فجعل نصيب الصغير والكبير سواء .

---

(١) أسباب النزول للواحدى : ٨٢ ، ولباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى - وتفسير مقاتل ابن سليمان .

وحدث هذا التشريع إثر حادثة معينة، حتى تتشوف له النفوس وتستجيب له القلوب .

ورد فى أسباب نزول [1] قوله تعالى : ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً﴾ (النساء : ٧) (أن أوس بن ثابت الأنصارى توفى وترك امرأة يقال لها أم كحة وثلاث بنات له منها ، فقام رجلان هما ابنا عم الميت ووصياه ، يقال لهما سويد وعرفطة فأخذا ماله ولم يعطيا امرأته شيئا ولا بناته فاشتكت أم كحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله إن أوس بن ثابت مات وترك على بنات وأنا امرأة وليس عندى ما أنفق عليهن . فأنزل الله هذه الآية ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ﴾ . (سورة النساء : ٧) .

وطبيعى أن تكثر الآيات التى تتحدث عن شئون الأسرة فإنها قوام المجتمع ومرتبطة بأحوال الناس فى غدوهم ورواحهم وصباحهم ومسائهم .

٣- وما أكثر المشاكل التى تنشأ فى أحوال الزواج والطلاق وما إلى ذلك من الظهار والإيلاء والخلع واللعان وغيرها .

وقد حفلت كتب التفسير ببيان هذه الأحكام وذكرت أسباب نزولها ، وهى بالطبع تناولت شخصا أو أشخاصا فيجب أن يعرفهم المفسر ليكشف الإبهام فى الآية ويحيط بالواقع الذى نزلت فيه الآية أو الآيات ، وسيظل سياق الآيات مع هذا عاما يشمل الأحياء فى كل زمان ومكان ، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

لقد قال سبحانه وتعالى : ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ (النساء : ١٢٨) .

---

(١) أسباب النزول للواحدى : ٨٢ ، ولباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى : ٥٨ . وتفسير مقاتل بن سليمان : ١/ ٢١٦ .

فلابد للمفسر من معرفة سبب نزول هذه الآية توضيحا لمهماتها حتى نعرف اسم المرأة واسم البعل .

قال المفسرون : نزلت فى رافع بن خديج الأنصارى وفى امرأته خويلة بنت محمد بن مسلمة الأنصارى ، وكان رافع قد كره منها أمرا إما كبرا أو غيره فأراد طلاقها فقالت : لا تطلقنى واقسم لى ما بدا لك ، فأنزل الله : ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾ (النساء : ١٢٨) .

وغنى عن البيان أن هذا الحكم وإن نزل بسبب رافع وخويلة هو حكم عام فى كل الأزواج إلى يوم القيامة .

كذلك آيات الميراث ، فقد يحدث أن يموت بعض الأشخاص فتنزل الآية تجيب عن أسئلة ورثته حلا لمشكلتهم ، ولتكون دستورا لمن بعدهم مثل قوله تعالى : ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ﴾ (النساء : ١٧٦) .

والكلالة : الميت الذى يموت وليس له ولد ولا والد .

وذلك أن جابر بن عبد الله الأنصارى مرض بالمدينة فعاده رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: يا رسول الله إنى كلالة لا أب لى ولا ولد فكيف أصنع فى مالى ؟ . فأنزل الله عز وجل قوله ﴿إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ . . ﴾ (النساء : ١٧٦) .

٤- وقد أنزل الله القرآن هدى ونورا لتصحيح الاعتقاد وتهذيب الأخلاق وتشريع الأحكام وتعليم المسلمين ، فمن آياته ما بين سماحة الإسلام ويسر تعاليمه وموافقته للفطرة السمحة قوله سبحانه وتعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ (المائدة: ٨٧) .

وذلك أن بعض الصحابة اتفقوا على أن يصوموا النهار ويقوموا الليل ولا يناموا على الفراش ولا يأكلوا اللحم ويترهبوا ويجبوا المذاكير ، فأنزل الله الآية السابقة ، تنهاهم عما عزموا عليه .

ومن آيات القرآن ما بين أحكام العبادات كالصلاة والصيام والطهارة والتيمم مثال ذلك ما روى أن المسلمين كانوا فى سفر وليسوا على ماء وليس معهم ماء وتأخروا ليبحثوا عن قلادة السيدة عائشة فى غزاة بنى أنمار وهم حى من قيس عيلان، فأنزل الله تعالى الآية من سورة المائدة وهى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (المائدة : ٦)

٥- وكثيرا ما تنزل آيات لتهذيب النفوس وتأديب المسلمين بأدب الإسلام فتكون الحادثة سببا فى إبراز أخلاق الإسلام العالية ودعوة المسلمين إليها بلا محاباة ولا مجاملة فى الحق .

كان لأحد المسلمين شهادة على أبيه فنزل قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (النساء : ١٣٥) .

إن الأخلاق السامية التى دعا إليها القرآن كانت نموذجا رائعا للخلق الكريم المتسامى على النفعية و الأنانية .

هذا يهودى يسمى زيد بن السمين يستودع طعمة بن أبيرق الأنصارى من الأوس درعا من حديد ، ثم يطلب اليهودى درعه من طعمة فيجحده طعمة ، ويذهب قوم طعمة إلى النبى صلى الله عليه وسلم فيبرئوا صاحبهم ويجادلوا عنه بالباطل ، وقد صدقهم النبى صلى الله عليه وسلم وهو يرى أنهم صدقوا ، ولكن القرآن نزل

يدافع عن اليهودى ويتهم الأنصارى رغم حرب اليهود للمسلمين وحملتهم المضللة على الإسلام وذلك فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا * وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا * يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا * هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً * وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا * وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (النساء : ١٠٥ - ١١٣) .

* * *

العبرة بعموم اللفظ
لا بخصوص السبب

٦- بدأ الإسلام دعوته إلى الله بالإقناع والحجة ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل : ١٢٥) .

وكان القرآن ينزل فى العهد المكى يثبت المؤمنين ويوضح أهداف الدين ويشرح العقيدة ويبشر المؤمنين بالجنة ويحذر المشركين من النار ، فلما هاجر المسلمون إلى المدينة واضطرت الدعوة الإسلامية إلى الحرب تأمينا للدعاة وحماية للحق وتحطيما لطواغيت الكفر ، فإن القرآن الكريم كان ينظم هذه الحروب ويدعو المسلمين إلى إعداد العدة للقاء أعدائهم وإلى الجهاد فى سبيل الله نصرا لدينه وطلبا لمرضاته وابتغاء للثواب من عنده، وفى أول معركة حاسمة بين المسلمين والكفار انتصر المسلمون وغنموا وبدا أن كل فئة ترى أنها أحق بالغنائم من الأخرى . فينزل الوحى مجيبا على سؤالهم ومؤدبا لهم بقوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال : ١) .

وهذا الأدب القرآنى لا يخص قومًا دون آخرين بل إن القول بتعدية الآيات إلى غير أسبابها جعل جمهور الأصوليين يذهبون إلى أن (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) .

فالنص القرآنى العام الذى نزل بسبب خاص معين ، يشمل بنفسه أفراد السبب وغير أفراد السبب، لأن عموميات القرآن لا يعقل أن توجه إلى شخص معين.

٧- هذه مثلا حركة النفاق التى تفاقم أمرها بالمدينة، وكان لزاما أن يثير القرآن فى كثير من سوره وآياته حملة عنيفة عليها ، وعلى دسائس المنافقين وأراجيفهم ، حتى نزلت فيهم سورة تحمل اسمهم الخاص وترسم لهم أخزى صورة ، ثم ترميهم بالبلادة والجمود ، حتى لتشبههم بالتماثيل الصامتة والخشب المسندة وتصفهم بالتوجس والجبن والفزع كلما هجس صوت أو علت صيحة أو تحرك شىء، بالرغم من ظاهرهم الخداع وأجسامهم الطوال العراض ، التى تسر الناظرين ، قال تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ (المنافقون : ٤) .

قال المفسرون : نزلت هذه الآية فى عبد الله بن أبى بن سلول [(١)] وكان رجلا وسيما جسيما صبيحا ، ذلق اللسان ، فإذا قال سمع النبى صلى الله عليه وسلم قوله : (فهل يعقل أن يكون المقصود بهذا الوصف نفرا من منافقى الأوس والخزرج كانوا فى عصر التنزيل ثم لم يلبثوا أن انقرضوا ؟) [(٢)] .

وإذا تناول القرآن أولئك النفر تناولا أوليا ووصف أخلاقهم وصفا مطابقا ، فهل من مانع عقلى يحجر هذه الآيات أو نظائرها عن أن تكون معبرة عامة شاملة ، ونموذجا خالدا ، شاخصا لمن مضى ولمن يجىء من هذا الصنف إلى يوم القيامة ، فى كل طائفة تدعى أنها على دين ؟ [(٣)] .

٨- ولعل أوضح وأدل مثال على عموم الآيات النازلة فى المنافقين ما ورد من صفاتهم فى سورة التوبة . فقد وصفتهم السورة أبلغ وصف وأظهرت خيانتهم ، وكشفت نفاقهم وكذبهم حتى يتقى المسلمون شرهم وغدرهم ، وحتى يظلوا عبرة للأجيال القادمة فى كل زمان ومكان ، فنحذرهم أينما وجدوا ونتقى شرهم أينما حلوا .

---

(١) أسباب النزول للواحدى : ٢٤٤ ، ولباب النقول للسيوطى : ٢١٩ ، كما ورد ذلك فى صحيح البخارى .

(٢) قارن بتفسير المنار : ١/ ١٤٨ ، ١٤٩ .

(٣) قارن بتفسير ابن كثير : ١/ ٤٧ .

وهناك هدف آخر من وصف المنافقين وهو تحذير الناس أن يأمنوا جانبهم، أو يركنوا إليهم، أو ينخرطوا فى جماعتهم بسبب الغرور أو الغفلة .

فمن كذبهم وسوء قصدهم اتخاذ المساجد مكانا للخيانة والغدر ومكر السوء بالمسلمين، وقد عناهم الله بقوله : ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (التوبة : ١٠٧) .

ومن أسلحة المنافقين السخرية والاستهزاء وتوهين العزائم وعيب المجاهدين كما وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (التوبة : ٧٩) .

وقد حاول المنافقون قتل النبى وبيتوا أمرهم على الكيد للإسلام والمسلمين فلما كشف الله أمرهم وأخبر نبيه بمكرهم أقسموا بالله كذبا كعادتهم، قال الله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ (التوبة : ٧٤) .

التعبير عن سبب النزول :

تختلف عبارات الرواة فى التعبير عن سبب النزول . فتارة يصرح فيها بلفظ السبب فيقال : « سبب نزول الآية كذا » . وهذه العبارة نص فى السببية لا تحتمل غيرها .

وتارة لا يصرح بلفظ السبب ، ولكن يؤتى بفاء داخلة على مادة نزول الآية عقب سرد حادثة ، أو ذكر سؤال طرح على رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل (حدث كذا فنزلت آية كذا - أو سئل عليه السلام عن كذا فنزلت آية كذا) .

وهذا نص واضح فى السببية أيضا . كرواية عبد الله بن مسعود عندما سئل النبى عن الروح فأنزل الله تعالى : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ (الإسراء : ٨٥) .

ومرة أخرى لا يصرح بلفظ السبب ولا يؤتى بتلك الفاء ولا بذلك الجواب المبنى على السؤال ، بل يقال : نزلت هذه الآية فى كذا (مثلا)، وهذه العبارة ليست نصا فى السببية بل تحتملها ، وتحتمل أمرا آخر هو بيان ما تضمنته الآية من الأحكام ، والقرائن وحدها هى التى تعين أحد هذين الاحتمالين أو ترجحه .

قال ابن تيمية [١] قولهم : « نزلت هذه الآية فى كذا» يراد به تارة سبب النزول ويراد به تارة أن ذلك داخل فى الآية وإن لم يكن السبب كما تقول: عُنى بهذه الآية كذا .

وقال الزركشى فى « البرهان» قد عرف عن عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال: « نزلت هذه الآية فى كذا » فإنه يريد بذلك أن هذه الآية تتضمن هذا الحكم لا أن هذا كان السبب فى نزولها .

« وكثيرا ما نجد المفسرين وغيرهم يقولون نزلت الآية فى كذا وكذا ، وهم يريدون أنه من الأحوال التى تشير إليها تلك الحالة الخاصة ، فكأنهم يريدون التمثيل »[٢] .

وإذا وردت عبارتان فى موضوع واحد : إحداهما نص فى السببية لنزول آية أو آيات ، والثانية ليست نصا فى السببية لنزول تلك الآية أو الآيات . هنالك نأخذ فى السببية بما هو نص وتحمل الأخرى على أنها بيان لمدلول الآية ، لأن النص أقوى فى الدلالة من المحتمل .

---

(١) مقدمة فى أصول التفسير لابن تيمية : ١٣ .

(٢) تفسير القرآن الكريم ، محمد الطاهر بن عاشور : ٤٣ .

مثال ذلك ما أخرجه مسلم عن جابر قال : كانت اليهود تقول : من أتى امرأة من دبرها (فى قبلها) جاء الولد أحول ، فأنزل الله : ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

(البقرة : ٢٢٣)

وما أخرجه البخارى عن ابن معمر قال : أنزلت « نساؤكم حرث لكم» فى إتيان النساء فى أدبارهن . فالمعول عليه فى بيان السبب هو رواية جابر الأولى لأنها صريحة فى الدلالة على السبب ، وأما رواية ابن عمر فتحمل على أنها بيان لحكم إتيان النساء فى أدبارهن وهو التحريم استنباطا منه .

كما أن الرواية الأولى اتفق عليها البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى وأحمد والحاكم . والثانية انفرد بها البخارى والطبرانى فى الأوسط [1] .

وقد ذكر علماء الحديث أن أعلى درجات الحديث ما اتفق عليه البخارى ومسلم ثم ما انفرد به البخارى ، ثم ما انفرد به مسلم . فالأولى أولى لاتفاق البخارى ومسلم على روايتها ، بينما الثانية تفرد بها البخارى .

جهل أسباب النزول :

إن جهل الناس بأسباب النزول كثيرا ما يوقعهم فى اللبس والإيهام فيفهمون الآيات على غير وجهها ، ولا يصيبون الحكمة الإلهية من تنزيلها كما حدث لمروان ابن الحكم حين توهم أن قوله تعالى : ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (آل عمران : ١٨٨) ينطبق عليه ، فقال لبوابه : اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل له : لئن كان كل امرئ فرح بما أوتى ، وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا لنعذبن أجمعين، فقال ابن عباس: وما لكم ولهذه إنما دعا النبى صلى الله عليه وسلم اليهود فسألهم عن شىء

---

(١) لباب النقول للسيوطى : ٣٦ .

فكتموه أياه ، وأخبروه بغيره فأروه قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم، وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم . ثم قرأ ابن عباس : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ * لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (آل عمران: ١٨٧ ، ١٨٨) .

فلم يزل الإشكال إلا بمعرفة سبب النزول .

ولولا بيان أسباب النزول لأباح الناس لأنفسهم التوجه فى الصلاة إلى الناحية التى يرغبون فيها عملا بالمتبادر من قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة : ١١٥) .

فإذا قرأنا سبب نزولها وجدنا أنها نزلت فى أناس من المؤمنين كانوا فى سفر فحضرت الصلاة فى يوم غيم فتحيروا ، فمنهم من صلى قبل المشرق ، ومنهم من صلى قبل المغرب ، وذلك قبل أن تحول القبلة إلى الكعبة ، فلما طلعت الشمس عرفوا أنهم قد صلوا لغير القبلة ، فقدموا المدينة فأخبروا النبى صلى الله عليه وسلم بذلك ، فأنزل الله عز وجل : « ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم » .

ولولا معرفة سبب النزول لما فهمنا فرضية السعى بين الصفا والمروة من قوله تعالى : ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ (البقرة : ١٥٨) وذلك أن الآية نفت الجناح ، ونفى الجناح لا يتفق مع الفريضة .

وقد روى أن عروة بن الزبير سأل خالته عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها فأفهمته أن نفى الجناح هنا ليس نفيا للفريضة ، إنما هو نفى لما وقر فى أذهان المسلمين يومئذ من أن السعى بين الصفا والمروة من عمل الجاهلية ، نظرا إلى أن

الصفا كان عليه صنم يقال له : (إساف) وكان على المروة صنم يقال له : (نائلة) ، وكان المشركون إذا سعوا بينهما تمسحوا بهما فلما ظهر الإسلام ، وكسر الأصنام تحرج المسلمون أن يطوفوا بينهما ، لذلك نزلت الآية : « إن الصفا والمروة من شعائر الله .. » الآية .

وهناك الكثير من الحكم والفوائد التى تعود علينا من معرفة أسباب النزول منها معرفة من نزلت فيه الآية على التعيين حتى لا يشتبه بغيره فيتهم البرىء ويبرأ المريب (مثلا) ومنها تيسير الحفظ وتسهيل الفهم وتثبيت الوحى فى ذهن كل من يسمع الآية إذا عرف سببها فتصبح الآيات قصة حياة ، ويتحول الوحى إلى قرآن متحرك ينبض بالحياة والأسوة الحسنة . قال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ (سورة الشورى : ٥٢) .

* * *

آيات القرآن وأسباب النزول

نزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ثلاث وعشرين سنة يرد على أسئلة السائلين ويجيب استفتاء المستفتين ، وكانت حكمة الله من ذلك أن ييسر حفظه لأن الآية إذا نزلت بعد حادثة معينة كان ذلك أدعى إلى حفظها ، وتثبيت مفهومها، وهذا ما يعرف عند العلماء بأسباب النزول ، وهى الدواعى والملابسات التى حدثت فى المجتمع الإسلامى فتسببت فى نزول الآية .

على أنه ليس لكل آية من القرآن سبب خاص من أسباب النزول ، فإن من آيات القرآن ما نزل ابتداء يشرح الدعوة ، ويدعو إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . وهذا النوع من الآيات ليس له سبب نزول سوى الأسباب العامة التى تنزلت من أجلها الشرائع وهى هداية البشر وتنظيم حياتهم وإرشادهم إلى ما فيه خيرهم ، وأغلب هذا القسم يشتمل على آيات العقائد والوقائع الماضية وقصص الأنبياء ومشاهد القيامة .

ومن آيات القرآن آيات تنزلت بأسباب دعت إليها شأن كثير من آيات أحكام العبادات ، والمعاملات والحلال والحرام والغزو والجهاد والأحوال الشخصية والحقوق المدنية والمعاهدات الدولية ، فإن الغالب على أمثال هذه الآيات أن تكون لها أسباب دعت إلى نزولها، ومعرفتنا بهذه الأسباب تعين كثيرا على فهم الآيات التى نزلت فيها ، وقد لقى هذا القسم عناية سلف الأمة و خلفها ، وأفرده جماعة بالتأليف منهم على بن المدينى شيخ البخارى ومنهم الواحدى والجعبرى وابن حجر والسيوطى .

وأشهر كتابين فى أسباب النزول وأيسرها الآن هما :

أسباب النزول للواحدى المتوفى سنة ٤٦٨ هـ .

ولباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى المتوفى سنة ٩١١هـ .

وهما مطبوعان ومتداولان فى أيدى الناس .

أهمية معرفة أسباب النزول :

معرفة أسباب النزول تساعد على حفظ القرآن وتيسير فهمه وتثبيت الوحى فى ذهن كل من يسمع الآية إذا عرف سببها ، وذلك لأن ربط الأسباب بالمسببات والأحكام بالحوادث ، والحوادث بالأشخاص والأزمنة والأمكنة - كل أولئك من دواعى تقرير الأشياء ورسوخها فى الذهن ، وسهولة استذكارها عند استذكار مقارناتها فى الفكر ، بسبب تداعى المعانى كما ذكر فى علم النفس .

وقد زعم بعض الناس أنه لا فائدة للإلمام بأسباب النزول ، فإنها لا تعدو أن تكون تاريخا أو جارية مجرى التاريخ [١] .

واستهان الشيخ محمد عبده بأسباب النزول [٢] ولم يعول عليها كثيرا بسبب اشتمالها على الصحيح والعليل واختراع بعض الناس أسبابا لنزول الآيات ، والحق أنه لا طريق لمعرفة أسباب النزول إلا النقل عن الصحابة الذين عاصروا الوحى والنزول ، ووقفوا على الأحوال والملابسات التى أحاطت بنزول الآيات ، وسمعوا من الرسول صلى الله عليه وسلم ما لم يسمعه غيرهم ، فعنهم وحدهم يؤخذ هذا العلم، وإلى هذا أشار الواحدى بقوله : « ولا يحل القول فى أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ، ووقفوا على الأسباب وبحثوا عن علمها» [٣].

* * *

إن أسباب النزول آثار واردة وأحاديث مأثورة ينطبق عليها ما ذكره علماء الحديث ونقدته ، فلا تقبل جملة ولا ترفض جملة فما كان صحيحا قبلناه ، وما كان مكذوبا رفضناه .

---

(١) نقل ذلك السيوطى فى الإتقان ثم تعقيبه بأنه خطأ ، الإتقان : ١/ ٣٠ .

(٢) تفسير المنار : ٢/ ٥٧ - ٥٨ ، ٢٢٥ - ٢٢٦ .

(٣) أسباب النزول للواحدى : ٤ .

ويقول الواحدى : (لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها) .

« وإن التعبير عن سبب النزول بالقصة ليوحى بالحكمة البالغة فى معرفة الأسباب التى دعت إلى تنزيل الوحى ، ويجعل آيات القرآن تتلى فى كل زمان ومكان بشغف وولع ، وتطرد السآمة عن جميع القارئين بما توالى عرضه من حكايات أمثالهم وأقاصيص أسلافهم ، كأنها حكاياتهم هم إذ يرتلون آيات الله أو أقاصيصهم هم ساعة يطربون لوحى السماء » [1].

* * *

تعدد الأسباب والمنزل واحد :

قد ترد روايات متعددة فى أسباب نزول الآية ، وتذكر كل رواية سببا صريحا غير ما تذكره الأخرى .

وللمحققين مقاييس دقيقة فى تعدد أسباب النزول تتلخص فيما يأتى :

١- إذا كانت إحدى الروايتين صحيحة ، والأخرى غير صحيحة اعتمدنا على الصحيحة وردت غير الصحيحة .

٢- إذا كانت كلتاهما صحيحة ولإحداهما مرجح اعتمدنا فى بيان السبب على الراجحة دون المرجوحة .

٣- إذا استوت الروايتان فى الصحة ولا مرجح لإحداهما على الأخرى ، وأمكن الأخذ بهما معا - لتقارب زمنيهما - أخذنا بهما معا وحكمنا بنزول الآية عقب حصول السببين كليهما .

٤- إذا استوت الروايتان فى الصحة ولا مرجح ، ولا يمكن الأخذ بهما معا حكمنا بنزول الآية عقب كل سبب منهما . أى بتكرار نزولها .

---

(١) صبحى الصالح : مباحث فى علوم القرآن : ١٣ .

أمثلة :

١- ورد فى الصحيح أن سبب نزول سورة الضحى هو تأخر الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قال كفار مكة : ودعه ربه وقلاه. فأنزل عز وجل قوله : ﴿ وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ (الضحى : ١ - ٣) كما ورد أن سبب نزولها أن الوحى قد أبطأ على النبى صلى الله عليه وسلم لأن جروا دخل بيت النبى صلى الله عليه وسلم فدخل تحت السرير فمات فمكث النبى صلى الله عليه وسلم أربعة أيام لا ينزل عليه الوحى .

والرواية الأولى نأخذ بها لصحتها دون الثانية لأن فى إسنادها من لا يعرف . قال ابن حجر : (قصة إبطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة ، لكن كونها سبب نزول الآية غريب وفى إسناده من لا يعرف فالمعتمد ما فى الصحيح) .

٢- وقد ورد فى سبب نزول قوله تعالى : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى » أن هذا السؤال توجه من اليهودى للنبى بالمدينة . وهذا فى رواية البخارى . وورد أن هذا السؤال كان من أهل مكة ، وهذا فى رواية الترمذى . ونحن نأخذ برواية البخارى لأنها أولى من رواية الترمذى .

٣- وقد ورد فى سبب نزول قوله تعالى :

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (النور : ٦) .

أن سبب نزول الآيات هو أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبى صلى الله عليه وسلم بشريك بن سحماء .

ثم تساءل صحابى يسمى غويمرا عن نفس الحكم فنزلت الآيات جوابا على سؤال الاثنين . فيحمل ذلك على نزول الآية عقب سؤالهما قال النووى : (لعلهما اتفق لهما ذلك فى وقت واحد) .

٤- أخرج البيهقى والبزار أن قوله تعالى: « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به » إلى آخر سورة النحل وهن ثلاث آيات . نزلت حين استشهد حمزة بالمدينة . فقال النبى صلى الله عليه وسلم: لأمثلن بسبعين منهم مكانك .

وأخرج الترمذى والحاكم أنه لما كان فتح مكة أنزل الله قوله :﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ﴾ .

فيحمل ذلك على تعدد نزول الآيات . أى أنها نزلت مرة فى غزوة أحد . ومرة عند فتح مكة .

قال الزركشى فى البرهان : « قد ينزل الشىء مرتين تعظيما لشأنه ، وتذكيرا عند حدوث سبب خوف نسيانه، كما قيل فى الفاتحة نزلت مرتين : مرة بمكة ، ومرة بالمدينة » (١) .

تعدد النازل والسبب واحد :

قد تكون حادثة واحدة سببا فى نازلين أو أكثر من القرآن ، مثال ذلك ما أخرجه الحاكم والترمذى عن أم سلمة أنها قالت : يا رسول الله لا أسمع الله ذكر النساء فى الهجرة بشىء فأنزل الله تعالى : ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ (آل عمران : ١٩٥) .

وأخرج الحاكم أيضا عن أم سلمة أنها قالت : قلت: يا رسول الله تذكر الرجال ولا تذكر النساء فأنزل الله تعالى :

﴿وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (النساء : ٣٢) .

---

(١) البرهان: ١/ ٢٩ (فصل فيما نزل مكررا) .

وأنـــزل : « ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب : ٣٥) .

فظهر أن سؤال أم سلمة عن النساء كان سببا فى نزول ثلاث آيات :

١- « إن المسلمين والمسلمات .. » (الأحزاب : ٣٥) .

٢- « فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى » (آل عمران : ١٩٥) .

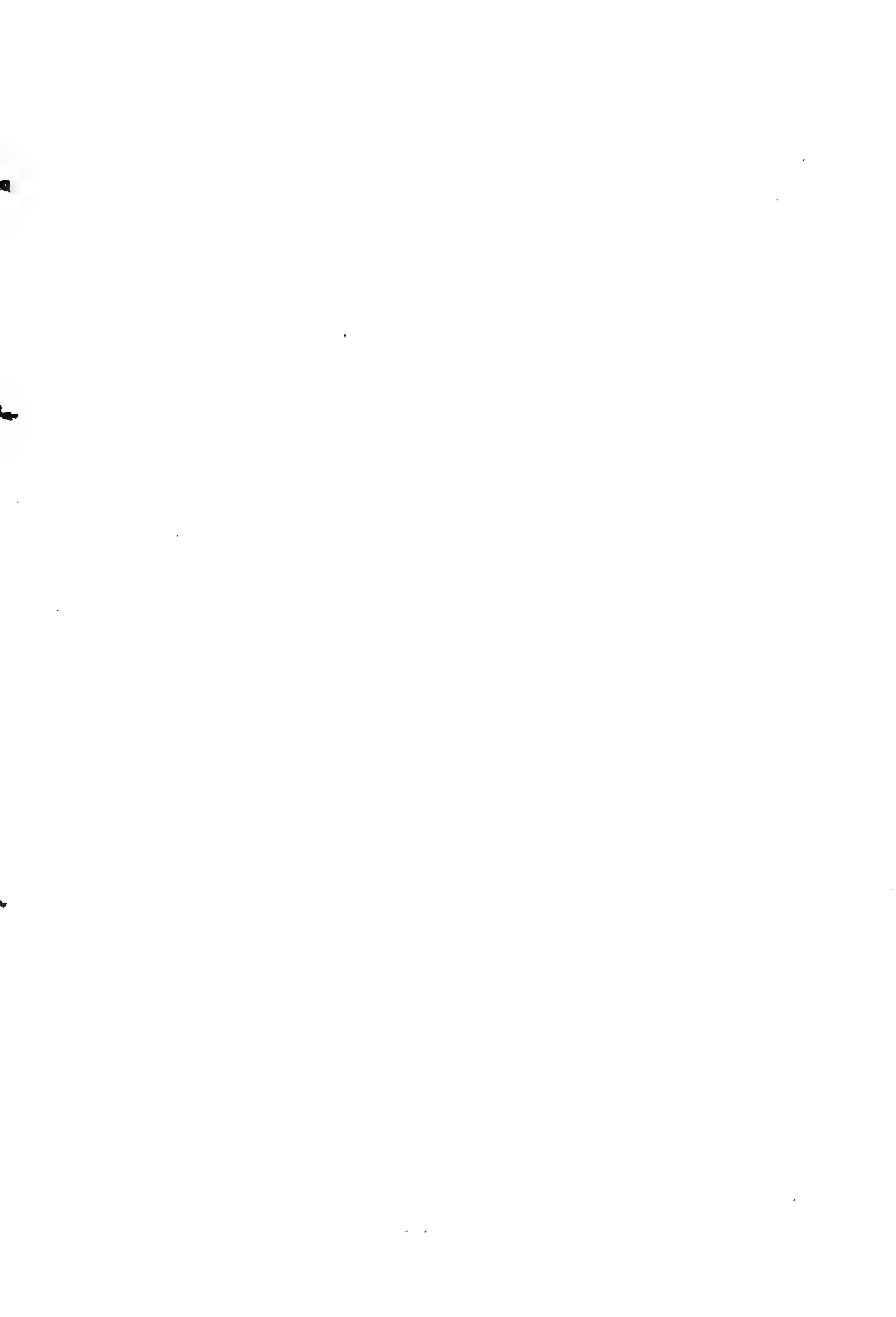
٣- « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض .. » (النساء : ٣٢) .

وهذا ما يعبرون عنه بقولهم : « تعدد النازل والسبب واحد » .

تلك أنماط من مقاييس المفسرين المحققين فى ترجيح الروايات المنبئة عن أسباب النزول ، وقد تفردت هذه المقاييس كما رأينا بدقة المصطلح وحصافة النقد ، ولطف التذوق وبراعة التخريج، وبذلك كله تيسر لهؤلاء الأئمة الثقات ، أن يضعوا أيديهم على مفاتيح أسباب النزول بنجوة من غلو الغلاة وعجلة المتسرعين .

وحظى كتاب الله بأمثال هذه الدراسة الجادة التى يسرت للقرآن حفظه وكانت له سياجا مانعا ودليلا كاشفا لآياته البينات . قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ (القمر : ١٧) .

* * *



الفصل الثالث

إعجاز القرآن

١- معجزة الرسول الخالدة .

٢- وجوه الإعجاز .

٣- التحدى .

٤- بلاغة القرآن .

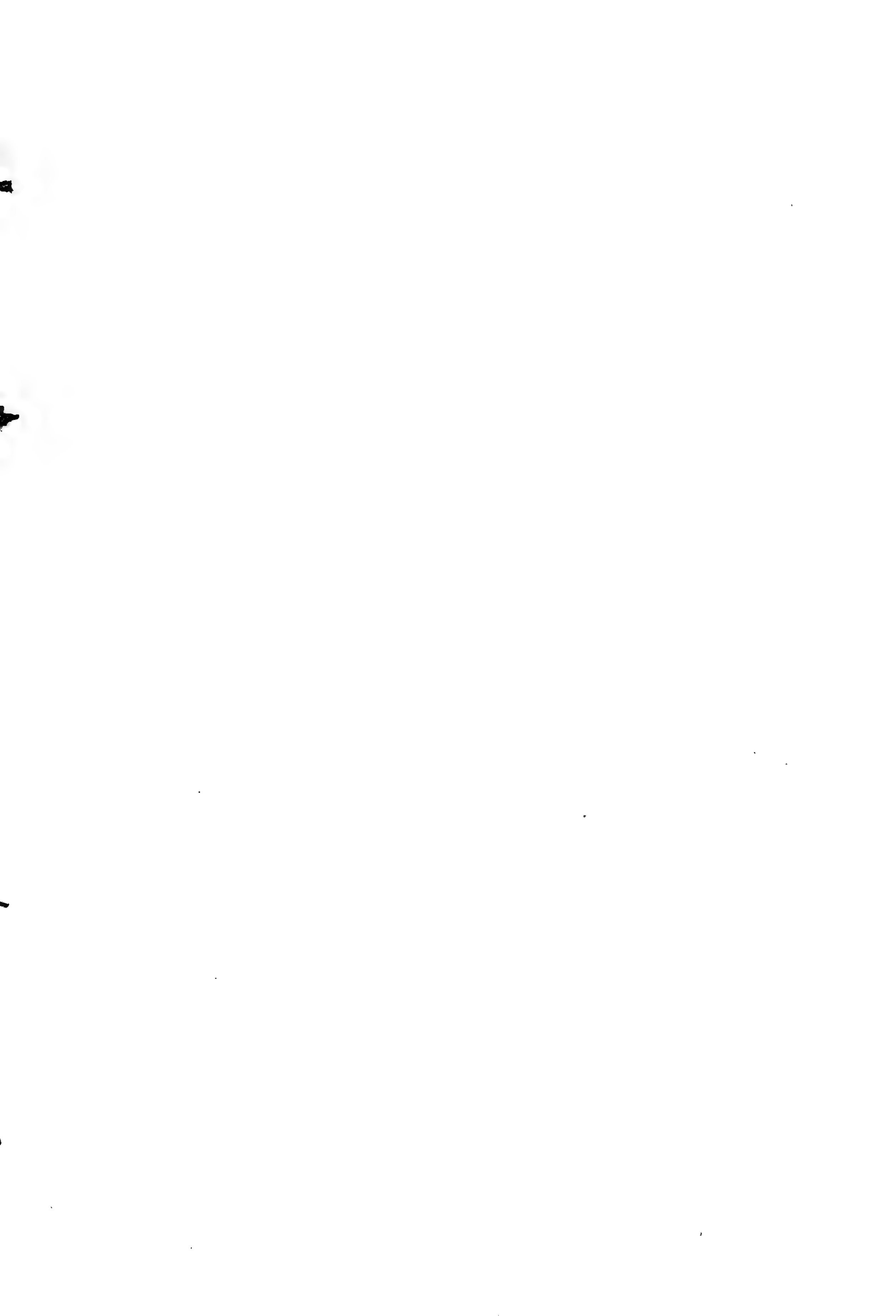
٥- العلم فى القرآن .

٦- القرآن والعلم الحديث .

٧- عناصر الجمال الفنى فى القرآن .

٨- تصوير الحالات النفسية والمعنوية .

٩- طريقة القرآن .



معجزة الرسول الخالدة

أرسل الله الرسل وأنزل عليهم الكتب وأيدهم بالمعجزات ، والمعجزة أمر خارق للعادة يظهره الله على يد مدعى الرسالة تصديقا له فى دعواه ، فهى بمثابة قول الله : صدق عبدى فى كل ما يبلغ عنى .

وقد أيد الله رسله السابقين بمعجزات مادية ظاهرة ، تناسب البشرية فى أطوارها الأولى ، جعل الله النار بردا وسلاما على إبراهيم ، وأيد صالحا بالناقة تسقى قومه جميعا من ألبانها ، وأعطى موسى العصا وفلق له البحر ، وأعطى عيسى إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله .

وكان العرب يتطلعون إلى أن ينزل على محمد عليه السلام معجزات مادية كما حدث للأنبياء السابقين : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام : ١٠٩) .

إن الله أعلم حيث يجعل رسالته ، وهو أعلم بما يناسب كل نبى من المعجزات، كان قوم موسى قد برعوا فى السحر وبلغوا فيه مبلغ السبق والإجادة فأعطاه الله اليد تخرج بيضاء من غير سوء ، والعصا تبتلع جميع أعمال السحرة .

إذا جاء موسى وألقى العصا ... فقد بطل السحر والساحر

وكان قوم عيسى قد برعوا فى الطب ونبغوا فيه فأعطاه الله معجزات خارقة للعادة من جنس ما نبغ فيه قومه .

وكان العرب أفصح الناس لسانا ، وأبلغهم بيانا، ولهم أسواق يتقارضون فيها الشعر ، وإذا استجادوا قصيدة علقوها فى جوف الكعبة ، فسميت تلك القصائد

بالمعلقات، فخص الله رسوله بالقرآن الكريم معجزة الدهر وآية الفصاحة والبيان ، واستمع العرب للقرآن فأخذ بألبابهم ، واستولى على إعجابهم، ثم قاوموا هذا النفوذ وتواصوا بألا يستمعوا للقرآن حقدا وحسدا ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (فصلت: ٢٦) .

لقد قاوموا الرسالة والرسول ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ (النمل : ١٤)

ولكن القرآن كان يأخذ سبيله إلى القلوب ، ويستولى على النفوس فيفك أغلالها ، ويهدهد كبرياءها ويستل أضغانها فلا تلبث أن تنشرح له الصدور وأن ترق له القلوب وأن تقشعر منه الجلود ، « وكم من عدو للرسول صلى الله عليه وسلم من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله فسمعوا آيات القرآن فلم يلبثوا حين وقعت فى مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول وأن يركنوا إلى مسالمته، ويدخلوا فى دينه وصارت عداوتهم موالاة ، وكفرهم إيمانا » .

خرج عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعمد لقتله ، فسار إلى دار أخته وهى تقرأ سورة طه، فلما وقع فى سمعه القرآن لم يلبث أن آمن ، ولما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن فى الموسم على النفر الذين حضروه من الأنصار آمنوا به وعادوا إلى المدينة فأظهروا الدين بها ، فلم يبق بيت من بيوت الأنصار إلا وفيه قرآن ، وقد روى عن بعضهم أنه قال : فتحت الأمصار بالسيوف وفتحت المدينة بالقرآن .

ولما سمعته الجن لم تتمالك أن قالت : ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ (الجن : ١، ٢) .

لقد شاء الله أن يكون القرآن معجزة خالدة أبد الدهر ، فجعلها معجزة عقلية تخاطب الناس جميعا فى كل زمان ومكان ، يؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ (الأنفال : ٢) .

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (المائدة : ٨٣) .

أقوال العرب فى القرآن :

تحدى القرآن العرب فوقفوا حيارى أمام بيانه وتصريفه القول ووجدوا نمطا فريدا لم يألفوه . فهو ليس بالشعر وليس بالكهانة ، ولا يستطيع أن يقوله بشر ، فشهدوا بعظمته ونطقوا بإعجازه ، « والفضل ما شهدت به الأعداء » .

روى محمد بن كعب القرظى قال : حُدثت أن عتبة بن ربيعة - وكان سيدا حليما - قال يوما : ألا أقوم إلى محمد فأكلمه فأعرض عليه أمورا لعله أن يقبل منها بعضها فنعطيه أيها شاء ؟ - وذلك حين أسلم حمزة رضى الله عنه ، ورأوا أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يكثرون .

قالوا : بلى يا أبا الوليد . فقام إليه - وهو صلى الله عليه وسلم جالس وحده فى المسجد - فقال : يابن أخى .. إنك منا حيث قد علمت من البسطة فى العشيرة والمكان فى النسب، وإنك أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت بين جماعتهم وسفهت أحلامهم وعبت آلهتهم ، وكفرت من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك أن تقبل منها بعضا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل . قال : إن كنت إنما تريد المال بما جئت به من هذا القول جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد شرفا سودناك حتى لا نقطع أمرا دونك ، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى بك رئيا لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه أو لعل هذا شعور جاش به صدرك ، فإنكم لعمرى بنى عبد المطلب تقدرون من ذلك على ما لا نقدر عليه. حتى إذا فرغ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أوقد فرغت ؟ قال : نعم . قال: فاسمع منى . قال : قل . قال: ﴿ حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (فصلت: ١-٤) ، ثم مضى فيها يقرؤها ، فلما

سمعها عتبة أنصت له ، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليها، يستمع منه حتى انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة منها فسجد ثم قال له: قد سمعت ما سمعت فأنت وذاك . فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم : لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به، فملا جلس قالوا : ماوراءك ؟ قال : ورائى أنى سمعت قولا والله ما سمعت بمثله قط ، وما هو بالشعر ولا السحر ولا الكهانة ، يا معشر قريش أطيعونى ، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعته نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وكنتم أسعد الناس به ، قالوا : سحرك بلسانه . قال: هذا رأيى فاصنعوا ما بدا لكم .

لقد نزل القرآن شفاء للصدور ورحمة للعالمين ، ودليلا للهداية وحصنا للدعوة ومعجزة خالدة أبدية : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الإسراء : ٨٢)

القرآن معجزة التاريخ :

القرآن أكبر معجزة عرفها التاريخ ، فقد ألف العرب على تعاديهم ، وزحف بهم على قلتهم وضعف وسائلهم حتى اكتسحوا دولتى الفرس والروم ، و هما يومئذ الدنيا القديمة ، وهما العينان فى رأس التاريخ .

وإذا نظرنا إلى معجزات الأنبياء والمرسلين رأينا القرآن الكريم أعظم المعجزات وأوضحها دلالة ، لأن الخوارق فى الغالب مغايرة للوحى الذى يتلقاه النبى، وتأتى المعجزة شاهدة فقط ، أما القرآن فهو نفسه الوحى المدعى وهو الخارق المعجز فدلالته فى عينه ، ولا يفتقر إلى دليل أجنبى عنه ، فهو أوضح دلالة لاتحاد الدليل والمدلول فيه ، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « ما من نبى الا وأوتى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحى إلى فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » . رواه البخارى .

لقد يئس العرب من معارضة القرآن تيقنا أنه لا قبل لهم به واستبصارا فى حقيقة هذا الكلام، وأنه مما لا يستشرى الطمع فيه وأنه وحى يوحى ، وهو عينه

أيضا بعض ما اجتذبهم إليه وعطفهم عليه وحتى كان بلغاؤهم يستمعونه وتصغى إليه أفئدتهم ثم يتلاومون على ذلك .

روى أن ثلاثة من بلغاء قريش - الذين لا يعدل بهم فى البلاغة أحد - وهم الوليد بن المغيرة والأخنس بن قيس ، وأبو جهل بن هشام ، اجتمعوا ليلة يسمعون القرآن من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى به فى بيته ، إلى أن أصبحوا، فلما انصرفوا ، جمعتهم الطريق فتلاوموا على ذلك وقالوا إنه إذا رآكم سفهاؤكم تفعلون ذلك فعلوه واستمعوا إلى ما يقوله واستمالهم وآمنوا به ، فلما كان فى الليلة الثانية عادوا وأخذ كل منهم موضعه ، فلما أصبحوا جمعتهم الطريق فاشتد نكيرهم وتعاهدوا وتحالفوا ألا يعودوا ، فلما تعالى النهار جاء الوليد بن المغيرة إلى الأخنس ابن قيس فقال : ما تقول فيما سمعت من محمد ؟ فقال الأخنس : ماذا أقول ؟ قال بنو عبد المطلب: فينا الحجابة، قلنا: نعم ، يقولون: فينا نبى ينزل عليه الوحى والله لا آمنت به أبدا .

فما صدهم عن الإيمان إلا عصبية الجاهلية ، أنفة من استماع الحق والخضوع له ، وقد حكى القرآن كلامهم فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (فصلت : ٢٦) .

لكنهم لم يغلبوا القرآن ، فهو نور الله وكلامه المبين ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف : ٢١) .

* * *

وجوه الإعجاز

تنوعت وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم ، فهو معجز كله من ناحية مبناه ومعناه ، ومن الأسرار الدقيقة فى القرآن تأثيره فى القلوب وسلطانه على النفوس وسحره للعقول لماله من طلاوة وحلاوة تخلص إلى الألباب فى روعة ومهابة، قال تعالى : ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾

(الزمر : ٢٣)

وإنما صار القرآن معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ فى أحسن نظام وتأليف ، متضمنا أصح المعانى من توحيد الله وتنزيهه فى صفاته ودعاء إلى طاعته ، وبيان لطريق عبادته ، من تحليل وتحريم وحظر وإباحة ومن وعظ وتقويم وأمر بمعروف ونهى عن منكر وإرشاد إلى محاسن الأخلاق وزجر عن مساوئها ، متضمنا أخبار القرون الماضية منبئا عن العصور الآتية جامعا فى ذلك بين الحجة والمحتج له ، والدليل والمدلول عليه . ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور والجمع بين أشتاتها حتى تنتظم وتتسق مما تعجز عنه قوى البشر ولا تبلغه قدرتهم، فانقطع الخلق دونه وعجزوا عن معارضته بمثله، أو مناقضته فى شكله، ثم صار المعاندون له يقولون مرة: إنه شعر . لما رأوه منظوما ، ومرة: إنه سحر. لما رأوا أثره فى القلوب ، ولم يتمالكوا أن يعترفوا به نوعا من الاعتراف ، ولذلك قالوا: إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة .

ومما انفرد به القرآن وباين سائر الكلام أنه لا يخلق على كثرة الرد وطول التكرار ، ولا تمل منه الإعادة وكلما نظرت فيه رأيته غضا طريا وجديدا مونقا . وصادفت من نفسك له نشاطا مستأنفا وحسا موفورا ، وهذا لعمر الله أمر يوسع فكر العاقل ويملأ صدر المفكر بما يرى من إعجاز النظم وبلاغة النغم بالهمس

والجهر والقلقلة والصفير والمد والغنة ونحوها ، ثم اختلاف ذلك فى الآيات بسطا وإيجازا وابتداء وردا وإفرادا وتكرارا .

ومن خصائص القرآن أنه جمع بين صفتى الجزالة والعذوبة، وهما كالمتضادين لا يجتمعان غالبا فى كلام البشر.

حقا إن القرآن آية الله الباقية وحجته البالغة، وهو النور الساطع والتراث الخالد : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر : ٩) .

آراؤهم فى الإعجاز :

تنوعت آراء العلماء حول بيان إعجاز القرآن فأرجعوا إعجازه إلى نواح متعددة فى معناه ومبناه .

قال الفخر الرازى : وجه الإعجاز الفصاحة وغرابة الأسلوب والسلامة من جميع العيوب .

وقال ابن عطية : الصحيح والذى عليه الجمهور والحذاق فى وجه إعجازه أنه بنظمه وصحة معانيه وتوالى فصاحة ألفاظه، وذلك أن الله أحاط بكل شيء علما وأحاط بالكلام كله فإذا أنزل لفظا من القرآن علم بإحاطته أى لفظة تصلح أن تلى الأولى وتبين المعنى بعد المعنى ، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره ، والبشر يعمهم الجهل والنسيان والذهول ، ومعلوم ضرورة أن أحدا من البشر لا يحيط بذلك ، فلهذا جاء نظم القرآن فى الغاية القصوى من الفصاحة، وبهذا يبطل قول من قال: إن العرب كان فى قدرتهم الإتيان بمثله فصرفوا عن ذلك ، والصحيح أنه لم يكن فى قدرة أحد قط ، لهذا ترى البليغ ينقح القصيدة أو الخطبة حولا ثم ينظر فيها فيغير فيها وهلم جرا .. وكتاب الله لو نزع منه لفظة ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم يوجد ، ونحن نتبين البراعة فى أكثره ويخفى علينا وجهها فى مواضع ، لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ فى سلامة الذوق وجودة القريحة . وقد قامت الحجة على العالم بالعرب ، إذ كانوا أرباب الفصاحة ومظنة المعارضة .

وقال بعضهم : وجه الإعجاز فى القرآن استمرار الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحائها استمرارا لا يوجد له فترة ولا يقدر عليه أحد من البشر ، وكلام العرب ومن تكلم بلغتهم لا تستمر الفصاحة والبلاغة فيه إلا فى الشىء اليسير المعدود ، ثم تعرض الفترات الإنسانية فينقطع طيب الكلام ورونقه فلا تستمر لذلك الفصاحة فى جميعه بل توجد فى تفاريق وأجزاء منه .

الإعجاز عند الرافعى :

تناول الرافعى إعجاز القرآن فى أقصر سورة منه فقال : « إن لهذه القصار لأمرا وإن لها في القرآن لحكمة هى من أعجب ما ينتهى إليه التأمل حتى لا يقع من النفس إلا موقع الأدلة الإلهية المعجزة » .

فقد علم الله أن كتابه سيثبت الدهر كله على هذا الترتيب المتداول فيسره للحفظ بأسباب كثيرة أظهرها فى المنفعة ، وأولها فى المنزلة هذه السور القصار التى تخرج من الكلمات المعدودة إلى الآيات القليلة ، وهى مع ذلك أكثر ما تجىء آياتها على فاصلة واحدة ، أو فواصل قليلة ، مع قصر ما بين الفاصلة والفاصلة ، فكل آية فى وضعها كأنها سورة من كلمات قليلة، لا يضيق بها نفس الطفل الصغير، وهى تتماسك فى ذاكرته بهذه الفواصل التى تأتى على حرف واحد أو حرفين أو حروف قليلة متقاربة فلا يستظهر الطفل بعض هذه السور حتى يلتئم نظم القرآن على لسانه ويثبت أثره فى نفسه فلا يكون بعد إلا أن يمر فيه مرا وهو كلما تقدم وجده أسهل ووجد له خصائص تعينه على الحفظ وعلى إثبات ما يحفظ ، فهذا من معانى قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الإسراء: ٨٢) ، وهى لعمر الله رحمة وأى رحمة .

وإذا علمنا أن ترتيب القرآن توقيفى أدركنا فضل الله فى تيسير حفظ كتابه على الناس حيث جعل هذه السور آخر القرآن كتابة وأول ما يحفظ الصبى من القرآن ، وكلما تمرن على الحفظ اتسعت السور واتسع معها ذهن الصبى واستعداده.

وإذا أردت أن تبلغ عجبا من ذلك فتأمل آخر سورة من القرآن ، وهى أول ما يحفظه الأطفال ، تلك سورة « قل أعوذ برب الناس » ، وانظر كيف جاءت فى

نظمها، وكيف تكررت الفاصلة ، وهى لفظ « الناس» ، وفيها السين أشد الحروف صفيرا وأطربها موقعا من سمع الطفل الصغير وأبعثها لنشاطه واجتماعه ، وكيف تناسب مقاطع السور عند النطق بها تردد النفس فى أصغر طفل يقوى على الكلام حتى كأنها تجرى معه وكأنها فصلت على مقداره ، وكيف تطابق هذا الأمر كله من جميع جهاته فى أحرفها ونظمها ومعانيها [١] .

ويضاف إلى ذلك حكمة أخرى وهى تيسير أداء الصلاة على العامة ، فإنهم لولا هذه السور لتركوا الصلاة جميعا إذ لا تصح الصلاة إلا بآيات مع الفاتحة وقد أغنتهم القصار ويسرت عليهم فكانت فى قلتها معجزة اجتماعية كبرى .

وحدة النظم :

من إعجاز القرآن ، اتساق عبارته وإحكام نظمه واتحاد طريقته فى الإبداع والقوة كأنما وضع جملة واحدة ليس بين أجزائها تفاوت أو تباين .

« ومرد ذلك إلى روح التركيب التى تتعطف عليها جوانب الكلام الإلهى ، وتلمح جمال هذا التركيب فى نظم الكلمة وتأليفها ثم فى تأليف هذا النظم ، فمن هنا تعلق بعضه على بعض وخرج فى معنى تلك الروح صفة واحدة هى صفة إعجازه فى التركيب وإن كان فيما وراء ذلك متعدد الوجوه التى يتصرف فيها من أغراض الكلام ومناحى العبارة على جملة ما حصل به جهات الخطاب ، كالقصص والحكم والتعليم وضرب الأمثال إلى نحو مما يدور عليه »[٢] .

فأنت ما دمت فى القرآن حتى تفرغ منه لا ترى غير صورة واحدة من الكمال وإن اختلفت أجزاؤه فى جهات التركيب وموضع التأليف وألوان التصوير وأغراض الكلام كأنها تفضى إليك جملة واحدة .

وقد ذهب العلماء إلى أن ألفاظ القرآن متميزة من جنسها بحيث إذا وجدت تركيبا قرآنيا فى نسق الكلام دل على نفسه ، وأرشدت محاسنه إليه لما له من صفة إلهية : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ (الطارق : ١٣-١٤) .

---

(١) إعجاز القران للرافعى . (٢) إعجاز القرآن للرافعى .

وحدة الفكرة :

ومن وجوه الإعجاز فى القرآن أن معانيه تجرى فى مناسبة الوضع وإحكام النظم مجرى ألفاظه، ولا يعدم المفكر وجها صحيحا من القول فى ربط كل كلمة بأختها وكل آية بضريبتها وكل سورة بما إليها وهو علم عجيب أكثر منه الإمام فخر الدين الرازى فى تفسيره ، وقد قال: إن لطائف القرآن مودعة فى الترتيبات والروابط .

ويقال إن أول من أظهر هذا العلم الشيخ أبو بكر النيسابورى ، وكان غزير المادة فى الشريعة والأدب ، فكان يقول فى تفسيره: لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه ؟ وما الحكمة فى جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة ؟ ثم كان يزرى على علماء بغداد لأنهم لا يعلمون هذه المناسبات .

وللإمام برهان الدين بن معمر البقاعى المتوفى سنة ٨٨٥ هـ تفسير مخطوط بدار الكتب المصرية ، اسمه : « نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور » . وهو تفسير جليل جمع فيه من أسرار القرآن ما تتحير فيه العقول ، واهتم ببيان ارتباط الجمل بعضها ببعض وتناسق الآيات واتساق المعنى وترابطه .

ومن أظهر من كتب فى هذا المعنى من المفسرين فى العصر الحديث الإمام الشيخ محمد عبده ، فقد عنى ببيان الوحدة الفكرية للسورة وبيان التناسب بين آياتها وتعلق نظم القرآن بعضه ببعض ، ورأى أن فكرة السورة يجب أن تكون أساسا فى فهم الآيات التى نزلت فيها ، ورفض كل تفسير لا يحقق وحدة الهدف والتناسق بين أجزاء السورة، وتأثر بالإمام جيل من أساتذة التفسير فى هذا العصر .

ومن هذا الجيل أستاذى المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز، فقد كان يفتح عيوننا أثناء الدراسة على الوحدة المعنوية للسورة ، ويعرض موضوعاتها فى سلك واحد كأنها حبات عقد مكتمل ، أحكمته يد السميع العليم القائل فى كتابه الكريم : ﴿الّر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود : ١) .

ومع أن السورة من القرآن كانت تنزل منجمة مقسطة وفى أوضاع تأليفية عجلى ومشتتة ، وبين أجزائها عناصر معنوية مختلفة ، « ومع هذا سبكتها وأحكمت

صنعتها يد الله السميع البصير ، فانظر الآن هل استطاعت هذه الأسباب على تضافرها أن تنال شيئا من استقامة النظم فى السورة المؤلفة على هذا النهج ؟ » .

« أما العرب الذين تحداهم القرآن بسورة منه فلقد علمت لو أنهم وجدوا فى نظم سورة منه مطمعا لطامع ، بله مغمزا لغامز لكان لهم معه شأن غير شأنهم وهم هم » .

وأما البلغاء من بعدهم فما زلنا نسمعهم يضربون الأمثال فى جودة السبك وإحكام السرد بهذا القرآن حين ينتقل من فن إلى فن .

وأخيرا نرى أن هذه النظرة إلى القرآن تجعل السورة وحدة كاملة أو كائنا حيا يمد الحياة بالنور والهدى .

وإذا نظرنا إلى أطول سورة فى القرآن وهى سورة البقرة وجدنا أنها تشتمل على موضوعين رئيسيين :

الموضوع الأول : توجيه الدعوة إلى بنى إسرائيل وتذكير الله لهم بنعمته، وإغراقه فرعون ، وتذكيرهم بألوان العناد التى عملوها مثل اعتدائهم فى السبت وموقفهم من موسى فى ذبح البقرة وتحريفهم آيات الله وزعمهم أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس .

الموضوع الثانى : يبدأ من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ (البقرة : ١٧٧) .

ويتحدث عن التشريع الإسلامى الذى ينظم حياة المسلمين فى المدينة مثل نظام الأسرة والصيام والحج والقصاص والقتال والعناية باليتامى والتحذير من الربا، وكتابة الدين .

وللسورة بداية تمهد لفكرتها وختام يؤكد الفكرة بطريقة مؤثرة تأخذ بالألباب، وآخر سورة البقرة بيان موجز للدعوة المحمدية فى قوله تعالى: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (البقرة : ٢٨٥)

التحدى

نزل القرآن فى بضع وعشرين سنة ، وتألف من سبعة وسبعين ألف كلمة ونيف، واكتمل القرآن فى هذه المدة على طريقة معجزة ، يستوى أولها نزولا وآخرها، فى الاطراد و النظم والبلاغة والغرابة ، بحيث لا يستطيع إنسان أن يعين فيما بين دفتيه موضع تنقيح ، أو يومئ إلى جهة مسها تهذيب ، أو يستخرج ما يدل على ضعف فى نسقه واطراده ، أو لفظه ومعناه ، ولم يعهد فى تاريخ الأرض كله أن كلام إنسان من الناس يستمر على مثل هذه الطريقة بضعة وعشرين عاما ، ولا يكون أول ذلك إلا بعد أن يبلغ الأربعين ، ثم لا ينتقض ولا يضعف ، ولا تختلف طبقاته ولا يتفاوت أمره فى كل هذه المدة ، مع اختلاف أحوال النفس وأمور الزمن، ومع إحصاء كلامه وجمعه لفظة لفظة ، والذهاب به حفظا وتلاوة ، حتى لا يجد السبيل إلى تغيير كلمة واحدة بعد أن تفصل عنه .

ومن أسرار الإعجاز فى هذا الكتاب الكريم ، أنه نزل بلسان عربى مبين، بين عرب فصحاء ، طبعوا على الصراحة فى الرأى والشجاعة فى القول ، والأنفة من الذل والضيم .

وقد تحداهم القرآن أن يأتوا بمثله ، ثم طاولهم فى المعارضة ، وتنازل لهم عن التحدى بجميع القرآن إلى التحدى بعشر سور مثله ثم إلى التحدى بسورة واحدة من مثله . وهم على رغم المطاولة ، ينتقلون من عجز إلى عجز ، ومن هزيمة إلى هزيمة ، وهو فى كل مرة من مرات هذا التحدى وهذه المطاولة ، ينتقل من فوز إلى فوز ، ويخرج من نصر إلى نصر .

تصور أنه قال لهم فى سورة الطور أول ما تحداهم : ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لاَّ يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (الطور : ٣٣ - ٣٤) .

فلما انقطعوا مد لهم في الحبل وقال في سورة هود : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (هود : ١٣-١٤)

فلما عجزوا هذه المرة أيضا ، طاولهم مرة أخرى وأرخى لهم الحبل إلى آخره، وقال في سورة البقرة : ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة : ٢٣ - ٢٤) .

فكان عجزهم بعد ذلك أشنع وأبشع ، وسجل الله عليهم الهزيمة أبد الدهر ، فلم يفعلوا ولن يفعلوا، ودحضت حجتهم وافتضح أمرهم ، وظهر أمر الله وهم كارهون .

التحدى عند الجاحظ :

قال الجاحظ : بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم أكثر ما كانت العرب شاعرا وخطيبا ، وأحكم ما كانت لغة ، وأشد ما كانت عدة ، فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد الله وتصديق رسالته، فدعاهم بالحجة فلما قطع العذر وأزال الشبهة ، وصار الذى يمنعهم من الإقرار الهوى والحمية ، دون الجهل والحيرة ، حملهم على حظهم بالسيف ، فنصب لهم الحرب ونصبوا ، وقتل من عليتهم وأعلامهم وأعمامهم وبنى أعمامهم وهو فى ذلك يحتج عليهم بالقرآن ، ويدعوهم صباحا ومساء ، إلى أن يعارضوه إن كان كاذبا بسورة واحدة ، أو بآيات يسيرة ، فكلما ازداد تحديا لهم بها ، وتقريعا لعجزهم عنها ، تكشف من نقصهم ما كان مستورا ، وظهر ما كان خفيا، فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة ، قالوا له: أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف فلذلك يمكنك ما لا يمكننا. قال: فهاتوا مفتريات ، فلم يرم ذلك خطيب ، ولا طمع فيه شاعر ، ولو طمع فيه لتكلفه ، ولو تكلفه لظهر ذلك ولو ظهر لوجد من

يستجيده، ويحامى عليه ويكابر فيه ، ويزعم أنه قد عارض وقابل وناقض ، فدل ذلك العاقل على عجز القول مع كثرة كلامهم، واستجابة لغتهم ، وسهولة ذلك عليهم، وكثرة شعرائهم وكثرة من هجاه منهم ، وعارض شعراء أصحابه وخطباء أمته ، لأن سورة واحدة أو آيات يسيرة ، كانت أنقض لقوله وأفسد لأمره، وأبلغ فى تكذيبه وأسرع فى تفريق أتباعه ، من بذل النفوس والخروج من الأوطان وإنفاق الأموال ، وهذا من جليل التدبير ، الذى لا يخفى على من هو دون قريش والعرب فى الرأى والعقل بطبقات ، ولهم القصيد العجيب والرجز الفاخر ، والخطب الطوال البليغة والقصار الموجزة ، ولهم الأسجاع والمزدوج واللفظ المنثور .

ثم تحدى به أقصاهم بعد أن أظهر عجز أدناهم ، فمحال - أكرمك الله - أن يجتمع هؤلاء كلهم على الغلط فى الأمر الظاهر ، والخطأ المكشوف البين ، مع التقريع بالنقض والتوقيف على العجز ، وهم أشد الخلق أنفة ، وأكثرهم مفاخرة ، والكلام سيد عملهم وقد احتاجوا إليه ، والحاجة تبعث على الحيلة فى الأمر الغامض فكيف بالظاهر الجليل المنفعة ، وكما أنه محال أن يطبقوا ثلاثا وعشرين سنة [١] على الغلط فى الأمر الجليل المنفعة فكذلك محال أن يتركوه وهم يعرفونه ويجدون السبيل إليه ، وهم يبذلون أكثر منه [٢] .

معارضة القرآن :

حاول قوم أن يعارضوا القرآن ، متوهمين أنه كسجع الكهان فجاءوا بسجع قلق يعارضون به القرآن - وشتان ما بين الحق والباطل - وقد باءت محاولتهم بالفشل ، وأخزتهم أمام الجماهير ، وكان مصرعهم هذا كسبا جديدا للحق ، وبرهانا ماديا على أن القرآن كلام الله القادر ، وما هو بقول شاعر ولا بقول كاهن .

يذكر التاريخ أن مسيلمة الكذاب ، زعم أنه أوحى إليه بكلام كالقرآن ، ثم طلع على الناس بهذا الهذر : « إنا أعطيناك الجماهر ، فصل لربك وجاهر » .

---

(١) هى مدة رسالته - صلى الله عليه وسلم .

(٢) إعجاز القرآن للرافعى ، فصل : التحدى والمعارضة: ٢٢٥ .

وبهذا السخف : « والطاحنات طحنا . والعاجنات عجنا . والخابزات خبزا» .
وأنت خبير بأن ذلك الإسفاف ليس من المعارضة فى قليل ولا كثير ، وأين محاكاة الببغاء من فصاحة الإنسان ؟ وأين هذه الكلمات السوقية الركيكة ، من ألفاظ القرآن الرفيعة ومعانيه العالية ، وهل المعارضة إلا الإتيان بمثل الأصل فى لغته وأسلوبه ومعانيه أو بأرقى منه فى ذلك ؟

يقول الرافعى : إن مسيلمة لم يرد أن يعارض القرآن من ناحية الصناعة البيانية ، وإنما أراد أن يتخذ سبيله إلى استهواء قومه بهذا السجع القلق وما كان مسيلمة فى قوله السجع حاذقا ، ولا فى دعوى النبوة صادقا ، وإنما كان اتباعهم إياه كما قال قائلهم : « كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر » .

روعة القرآن :

تميز القرآن بحلاوته وطلاوته ، وجماله وروعته ، تلك الروعة التى تأخذ بقلوب سامعيه عند سماعه ، وتستولى على أفئدة قارئيه عند قراءته ، وقد أسلم جماعة عند سماع آيات منه كما وقع لجبير بن مطعم، وذلك أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ فى المغرب بسورة الطور ، قال فلما بلغ هذه الآية : « أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون» إلى قوله : « المسيطرون» [1] كاد قلبى يطير ، قال وذلك أول ما وقر الإسلام فى قلبى .

وقصة إسلام أبى ذر وإسلام أخيه كان سببها سماع القرآن ، روى عن أبى ذر أنه قال: قال لى أخى أنيس : إن لى حاجة إلى مكة ، فانطلق، فراث، فقلت : ما حبسك ؟ قال : لقيت رجلا يقول إن الله تعالى أرسله فقلت : فما يقول الناس؟ قال : يقولون شاعر ساحر كاهن ، قال أبو ذر: وكان أنيس أحد الشعراء، قال : تالله لقد وضعت قوله على أقراء الشعر فلم يلتئم على لسان أحد ، ولقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون .

---

(١) سورة الطور : ٣٥ : ٣٧ ، ونصها مايأتى :
« أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون ، أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون ، أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون» .

ومن ذلك ما روى أن الوليد بن عقبة أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : اقرأ ، فقرأ عليه : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (سورة النحل : ٩٠) . فقال أعد فأعاد . فقال: والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر ، وما يقول هذا بشر .

الكلمات وحروفها :

ومن الروعة الحقة للقرآن إدراكه لخفايا النفس البشرية وتلمس السبيل لبعث عوامل الإيمان فى هذه النفس بالرغبة والرهبة والتشوق والإثارة ، وصوغ المعانى فى عبارة خلابة ولفظ رشيق تكسوه حلاوة الفواصل المتقاربة فى الوزن التى تغنى عن التفاعيل ، والتقفية التى تغنى عن القوافى ، وترى الحرف يكون رقيقا فى موضع الرقة ، شديدا فى موضع الشدة ، فترى هذه الألف اللينة ، التى تختم بها آيات سورة النجم ، تصور جلال التكريم الإلهى ، والفضل الربانى على النبى الأمين فى قوله تعالى: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾

(النجم : ١- ١٥)

الموقف موقف تكريم وإسعاد والمشهد مشهد النبى الكريم يتخطى الحجب إلى فضل هو ذروة المنتهى وجنة المأوى ، فناسب ذلك سهولة الفاصلة وليونة حرف الختام .

وإذا عرض القرآن ألوان العذاب أو الوعيد تخير الكلمات الموحية ، والألفاظ المعبرة ، التى تسلك سبيلها إلى النفس فتجسم الفكرة وتصور المعنى .

اقرأ قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ * وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ (ق : ١٦ - ٢٠) .

فهذه الدال من حروف القلقلة مسبوقة بالياء المشبعة تحدد صوت الإنذار ، وتوائم أسلوب الوعيد ، وتلمس ذلك فى قوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ (الملك : ٨) . فلفظ تميز يوحى بالقلق والغضب حتى كأن جهنم سبع مفترس يتحرق شوقا لالتهام فريسته .

وإذا قرأت قوله تعالى : ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ (سورة الشعراء : ٩٤) ، استشعرت من لفظ الكبكبة عنف العذاب الذى يصيب المجرمين حتى أنهم يدفعون دفعا ويدعون دعا ، فيتهاوون جماعة فوق أخرى .

الحروف وأصواتها :

« الحرف الواحد من القرآن الكريم معجز فى موضعه لأنه يمسك الكلمة التى هو فيها ليمسك بها الآية والآيات الكثيرة وهذا هو السر فى إعجاز جملته إعجازا أبديا فهذا أمر فوق الطبيعة الإنسانية وفوق ما يتسبب إليه الإنسان إذ هو يشبه الخلق الحى تمام المشابهة وما أنزله إلا الذى يعلم السر فى السموات والأرض » .

وربما حذف القرآن حرفا فى سياق معين وأثبت الحرف نفسه فى سياق مشابه ليشير إلى معان جمة تلحظها النفس بين السطور وتراها فى ثنايا التعبير .

فى الآيات الأخيرة من سورة الزمر ، يقول القرآن الكريم : ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ (الزمر : ٧١) فأشارت الآية إلى مشهد من مشاهد الإذلال لهؤلاء الكفار ، فهم وقوف لا يفتح الباب لهم إلا بعد إحضارهم .

وقال سبحانه بعد ذلك : ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ (الزمر : ٧٣) . فأشارت الآية إلى أن التكريم قد سبقهم بتفتيح أبواب الجنة وانتظار قدومهم .

لقد تحدث القرآن عن النار فقال : « فتحت» .

وتحدث عن الجنة فقال: « وفتحت » .

فأظهر الإذلال الذى ينال الكافرين بالانتظار على الأبواب ، والإكرام الذى ينال المؤمنين بالإعداد والاستقبال الذى يسبق قدومهم احتفاء بهم .

ولما كان الأصل فى نظم القرآن أن تعتبر الحروف بأصواتها وحركاتها ومواقعها ، من الدلالة المعنوية ، استحال أن يقع فى تركيبه ما يسوغ الحكم فى كلمة زائدة ، أو حرف مضطرب ، أو ما يجرى مجرى الحشو والاعتراض .

ونجد القرآن إذا تحدث بلسان النملة كانت كلماته كأنها تحكى صوت النملة ، وإذا تكلم بلسان الهدهد كان جرس الكلمات وموسيقاها يحكى صوت الهدهد .

فقد قال القرآن على لسان الهدهد : ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ (النمل : ٢٢) وهى على وزن صوت الهدهد : كوكو ، كوكو ، كوكوك .

فالصوت فى القرآن يؤدى غرضه كاملا غير منقوص . إن الإبداع الصوتى فى القرآن وانتقاء الكلمات بجرسها ونغمها له أكبر الأثر فى هدايته البالغة، ونظمه العجيب ، وإعجازه الرائع، وتأثيره فى قلوب سامعيه من العرب والعجم .

وما من أعجمى يسمع ترتيل القرآن فهمه أو لم يفهمه إلا اعترته رقة للشجى والنظم ، وأحس أن هذه الآيات تتموج فى نفسه وتجيش نفسه بها مع أنه لا يعتريه من ذلك شىء إذا هو سمع الألحان العربية فى الغناء والشعر وقد لا يجد فى الموسيقى ضربا أسخف منها لمكان اختلاف الأذواق ، وما نجد ملحدا لا يؤمن بالله إلا وهو مؤمن بهذا الإعجاز فى كتابه ، حين يسمعه مرتلا من صوت جميل كأن النبوة حينئذ تلامسه .

* * *

بلاغة القرآن

الحد الصحيح للبلاغة فى الكلام هو أن يبلغ به المتكلم ما يريد من نفس السامع بإصابة موضع الإقناع من العقل ، والوجدان من النفس ، ولم يعرف فى تاريخ البشر أن كلاما قارب القرآن فى قوة تأثيره فى العقول والقلوب ، فهو الذى قلب طباع الأمة العربية، وحولها عن عقائدها وتقاليدها ، وصرفها عن عاداتها وعداواتها ، وصدف بها عن أثرتها وثاراتها ، وبدلها بأميتها حكمة وعلما ، وبجاهليتها أدبا رائعا وحلما . وألف من قبائلها المتفرقة أمة واحدة سادت العالم بعقائدها وفضائلها ، وعدلها وحضارتها وعلومها وفنونها .

ولم تكن هذه البلاغة خفية على أهل مكة ، فهم خبراء الفصاحة وفرسان البيان ، وكان بعضهم يسجد عند سماع القرآن ويقول سجدت لبلاغة هذا الكلام .

ولكن غلبت عليهم العصبية ، وأعمتهم حمية الجاهلية ، عن اتباع الحق رغم وضوحه ، وعن السير فى ركب الإيمان رغم اعترافهم بصدقه .

ومن هؤلاء الوليد بن المغيرة والأخنس بن قيس وأبو جهل بن هشام ، وأمية ابن أبى الصلت وغيرهم ممن أدركوا عظمة القرآن ثم أعرضوا عن الإيمان .

روى الحاكم وصححه البيهقى فى الدلائل أن الوليد بن المغيرة أتى قريشا فقال : إن الناس يجتمعون غدا بالموسم وقد فشا أمر هذا الرجل فى الناس فهم سائلوكم عنه فماذا تردون عليهم ؟ فقالوا : مجنون يخنق ، فقال: يأتونه فيكلمونه فيجدونه صحيحا فصيحا عادلا فيكذبونكم . قالوا : نقول هو شاعر ، قال : هم العرب وقد رووا الشعر وفيهم الشعراء، وقوله ليس يشبه الشعر فيكذبونكم . قالوا: نقول : كاهن، قال: إنهم لقوا الكهان فإذا سمعوا قوله لم يجدوه يشبه الكهنة فيكذبونكم . ثم انصرف الوليد إلى منزله فقالوا : صبأ الوليد - يعنون أسلم - ولئن

صبأ لا يبقى أحد إلا صبأ . فقال لهم ابن أخيه أبو جهل بن هشام بن المغيرة : أنا أكفيكموه، قال فأتاه محزونا فقال : ما لك يابن أخى ؟ قال : هذه قريش تجمع لك صدقة يتصدقون بها عليك ، تستعين بها على كبرك وحاجتك ، قال : أولست أكثر قريش مالا ؟ قال : بلى ، ولكنهم يزعمون أنك صبأت لتصيب من فضل طعام محمد وأصحابه . قال : ما يشبعون من الطعام فيكف يكون لهم فضل ؟

ثم أتى قريشا فقال: أتزعمون أنى صبأت ولعمرى ما صبأت ، إنكم قلتم: محمد مجنون ، وقد ولد بين أظهركم لم يغب عنكم ليلة ولا يوما ، فهل رأيتموه يخنق قط ، فكيف يكون مجنونا ولم يخنق قط ؟

وقلتم شاعر ، وأنتم شعراء فهل أحد منكم يقول ما يقول؟

وقلتم كاهن ، فهل حدثكم محمد فى شىء يكون فى غد إلا أن يقول إن شاء الله ؟ قالوا : فكيف تقول يا أبا المغيرة ؟

قال: أقول هو ساحر : فقالوا: وأى شىء السحر ؟ قال : شىء يكون ببابل ، من حذقه فرق بين الرجل وامرأته والرجل وأخيه ، ألا ترون أن محمدا فرق بين فلان وفلانة زوجته ، وبين فلان وابنه ، وبين فلان وأخيه ، وبين فلان ومواليه، فلا ينفعهم ولا يلتفت إليهم ولا يأتيهم ؟ قالوا : بلى ، فاجتمع رأيهم على أن يقولوا : إنه ساحر ، وأن يردوا الناس عنه بهذا القول .

وانصرف ، فمر بأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم منطلقا إلى رحله ، وهم جلوس فى المسجد فقالوا : هل لك يا أبا المغيرة إلى خير ؟ فرجع إليهم فقال : ما ذلك الخير ؟ فقالوا : التوحيد ، قال: ما يقول صاحبكم إلا سحرا وما هو إلا قول البشر يرويه عن غيره، وعبس فى وجوههم وبسر ثم أدبر إلى أهله مكذبا ، واستكبر عن حديثهم الذى قالوا له وعن الإيمان ، فأنزل الله تعالى فيه : ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ (المدثر : ١٨ - ٢٥) (١) .

(١) انظر ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ١٢٣ ط ، دار المعارف بمصر .

حسن البيان :

حسن البيان هو إخراج المعنى فى أحسن الصور الموضحة له ، وإيصاله إلى فهم المخاطب بأقرب الطرق وأسهلها، فإنه عين البلاغة ، وقد تأتى العبارة منه عن طريق الإيجاز ، وقد تأتى عن طريق الإطناب بحسب ما يقتضيه الحال. والإطناب بلاغة ، والإسهاب عى .. وقد أتى بيان الكتاب العزيز من الطريقين ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ (الدخان : ٢٥ - ٢٧) . وكقوله تعالى وقد أراد أن يبين عن الوعد : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ *كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ * يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ (الدخان: ٥١ - ٥٥) وكقوله عز وجل - وقد أراد أن يبين الوعيد -: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الدخان : ٤٠) وكقوله فى الاحتجاج القاطع للخصم ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (يس : ٧٨ - ٧٩) وكقوله تبارك وتعالى - وقد أراد أن يبين حسرة الكفار - : ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ (الزخرف : ٣٩) ، وكقوله تعالى وقد أراد أن يبين عن العدول : ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (الأنعام : ٢٨) وأمثال هذه المواضع كثيرة [1] .

فن القول :

تناولت كتب البلاغة العربية ألوان البيان فى القرآن الكريم، وتعرضت كتب علوم القرآن لفنون القول فى القرآن الكريم ومن أشهر هذه الكتب البرهان فى علوم القرآن لبدر الدين الزركشى والإتقان فى علوم القرآن لجلال الدين السيوطى . وهما مطبوعان فى القاهرة بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم .

(١) انظر ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ط ٢ دار المعارف بمصر ص ١٩٤ .

وقد تعرض الكتابان إلى عدد من المباحث القرآنية البلاغية ، مثل تشبيهات القرآن واستعاراته ، وكناياته وتعريضاته، وحقائقه ومجازاته ، وحصره واختصاصه ، وإيجازه وإطنابه ، وخبره وإنشائه ، وجدله وأمثاله وأقسامه .. وسنذكر نماذج من هذه الفنون فى القرآن الكريم .

التشبيه والاستعارة :

من تشبيه القرآن قوله سبحانه : ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ (الجمعة : ٥) ووجه الشبه حرمان الانتفاع بأبلغ نافع مع تحمل التعب فى استصحابه .

وقوله سبحانه : ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ (الكهف : ٤٥) ووجه الشبه هنا هيئة منتزعة من متعدد [1] فقد شبه الدنيا فى سرعة زوالها وانقراض نعيمها واغترار الناس بها بحال ماء نزل من السماء وأنبت أنواع العشب ثم اخضر النبات ونما وترعرع ، ولم يلبث أن تحول إلى حطب جاف تذروه الرياح . وقريب منه قوله سبحانه فى وصف الدنيا : ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ (الحديد:٢٠)، ومن استعارات القرآن قوله تعالى : ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ (التكوير:١٨) فالحياة تخلع فى هذه الآية على الصبح حتى لقد صار كائنا حيا يتنفس بل إنسانا ذا عواطف وخلجات نفسية تشرق الحياة بإشراقة من ثغره ، المنفرج عن ابتسامة وديعة وهو يتنفس بهدوء ، ومن استعارات القرآن أيضا قوله سبحانه فى وصف جهنم ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ (الملك : ٧ - ٨) ، فقد استعيرت لجهنم شخصية آدمية ، لها انفعالات وجدانية ، وخلجات عاطفية ،

---

(١) ينقسم التشبيه باعتبار وجهه إلى مفرد ومركب ، والمركب هو ما كان وجه الشبه فيه هيئة منتزعة من أمور متعددة .

فهى تشهق شهيق الباكين ، وهى تغضب وتثور وهى نفس ذات شعور. ومن استعارة المحسوس للمعقول قول القرآن ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ (الأنبياء : ١٨) فقد صور الحق بالقذيفة الثقيلة التى تدفع الباطل وتزهقه .

ومن الاستعارات البليغة قوله سبحانه : ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾ (الكهف: ٧٧) وقوله تعالى : ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران : ١٠٣) .

* * *

العلم فى القرآن

دعا القرآن إلى العلم فى أول آيات تنزلت منه ، وأقسم الله بالقلم وهو أول أداة فى سبيل تحصيل العلم فقال تعالى : ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (القلم : ١) .

كما أشاد القرآن بمكانة العلم والعلماء فقال سبحانه : ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ (العنكبوت : ٤٩)

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ﴾ (آل عمران : ١٨) .

وقد خاطب القرآن الكريم ذوى العقول الراجحة ، ووجه الحديث إلى أهل الخبرة والمعرفة فقال سبحانه :

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾

(آل عمران : ١٩٠)

وقال عز شأنه : ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الجاثية : ٣-٥) .

وهكذا يفصل كتاب الله فى مراحل الوحى المختلفة المقصود بالعلم، وما انقسم إليه فى عصرنا هذا من فروع وتخصصات ، مثل الفلك والفيزياء ، والكيمياء، والأرصاد ، والنبات ، والحيوان، وطبقات الأرض ، ونحوها .. تلك العلوم الأساسية

التى بازدهارها تزداد الشعوب درجات فى البأس والقوة ، ودرجات فى الإيمان والتقرب من الله ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (فاطر:٢٨) .

لقد تعرض القرآن فى آيات كثيرة منه - نحو سبعمائة وخمسين آية - إلى مسائل هى من صميم العلم. وذكر جانبا من الحقائق العلمية كقضايا عامة، ودخل فى تفاصيل بعض الحقائق الأخرى، وبذلك نبه الأذهان إلى أهمية البحث وإعمال النظر والفكر، وبتلك الدفعة الكبرى ألف العرب الموسوعات الشاملة فى مختلف فروع العلم والمعرفة فكتب ابن سينا نحو ٢٦٦ كتابا فى علوم الطب والفلسفة والمنطق والفلك والرياضة والفيزياء والنبات والحيوان .. إلخ . وألف ابن الهيثم نحو ٢٠٠ كتاب منها كتابه البصريات الذى لقى رواجا بعد تحقيقه فى عصرنا هذا ، وصنف البيرونى نحو ١٧٦ مخطوطا على مستوى رفيع ، منها ما عالج فيه العديد من المسائل الرياضية والفلكية الحديثة ، وألف الجاحظ ما يربو على ٣٥٠ كتابا ورسالة فى الأدب والشعر مما تفخر به المكتبة العربية .

وفى مجال الرياضيات والحساب وضع العرب أساس الكسر العشرى واستخدموا الصفر على يد جمشيد ، وتعتبر هذه الأعمال أهم خطوة تمت فى سبيل ارتقاء العلوم الرياضية ، والعجيب أن القرآن الكريم يأخذ بالحساب العشرى ، وذلك فى العديد من الآيات التى يستخدم فيها العدد مثل قوله تعالى :

﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ (الأنعام : ١٦٠)

﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾ (الأنفال : ٦٥)

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ (هود : ١٣)

﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (الحج : ٤٧)

﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ (القدر : ٣) .

عجز الزمان عن إبطال شىء من القرآن :

إذا تأملت كلمات القرآن ، وأجلت بصرك بين سطوره، وجدت أنه يشتمل على بيان كثير من آيات الله تعالى، فى جميع أنواع المخلوقات ، من الجماد والنبات والحيوان والإنسان ، ويصف خلق السموات وشمسها وقمرها ونجومها، والأرض والهواء والسحاب والماء ، من بحار وأنهار وعيون وينابيع ، وفيه تفصيل لكثير من أخبار الأمم ، وبيان لطريق التشريع السوى الأمثل . وقد حفظ ذلك كله فيه بكلمه وحروفه منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا ، ثم عجزت هذه القرون التى ارتقت فيها جميع العلوم والفنون ، أن تنقض بناء آية من آياته أو تبطل حكما من أحكامه أو تكذب خبرا من أخباره . وهى التى جعلت فلسفة اليونان دكا ، ونسخت شرائع الأمم نسخا، وتركت سائر علوم الأوائل قاعا صفصفا ، ووضعت لأخبار التاريخ قواعد فلسفية ، ورجعت فى تحقيقها إلى ما عثر عليه المنقبون من الآثار العادية ، وحكمت فيها أصول العمران وسنن الاجتماع ، بحيث لم يتبق لعلماء الأوائل كتاب غير منقوض .

وظلت أخبار القرآن وتشريعاته وعلومه وفنونه خالدة باقية ، وذلك سر من أسرار الإعجاز فى القرآن فإن الله قد تكفل بحفظه وخلوده، فقال سبحانه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر : ٩) .

* * *

القرآن والعلم الحديث

من إعجاز القرآن الكريم إشارته إلى نشأة علوم حديثة لم يعرفها السابقون ، وإنما لفت أنظارهم إليها ، كما وجه أبصارهم إلى دراسة الكون وتأمل ظواهره والإحاطة بآيات الله فيه ، وقد حملت آيات القرآن بذور هذا التقدم العلمى وأرشدت إليه وفكت مغاليقه وتركت للعقل البشرى بعد ذلك استكمال رسالته حتى يتحقق من صواب نظريته أو خطئها .

قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت : ٥٣)

وقد استخرج بعض علمائنا من القرآن ما يشير إلى مستحدثات الاختراع وما يحقق بعض غوامض العلوم الطبيعية وبسطوا كل ذلك بسطا فى موضعه ، من ذلك أن الصعود إلى أعلى يلزمه حتما ضيق الصدر ، أى الاختناق بسبب نقص الأكسجين، وهذا يفسر لنا قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ (الأنعام : ١٢٥) .

ومن الثابت أن للأرض جاذبية ، وللأفلاك الأخرى كالشمس والقمر جاذبية ويحتاج الإنسان إلى سرعة جبارة ليندفع فى الفضاء متخلصا من جاذبية الأفلاك ، وفى ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾ (الرحمن : ٣٣) . وما هذا السلطان إلا سلطان العلم وهو أقوى ما حصل عليه الإنسان وأعظم ما منح ، وبه ملك زمام الأرض والسماء .

ويقول الله تعالى فى (سورة الفرقان : ٦١) : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾.

والبروج مجموعات النجوم المعروفة بالدلو والحوت والحمل والثور والجوزاء والأسد والسرطان والعذراء والميزان والعقرب والقوس والجدى .

أما السراج فهى الشمس المضيئة ، والإعجاز هنا إشارة القرآن إلى أن وظيفة القمر هى مجردالتنوير برد ضوء الشمس الساطعة عليه ، أما الشمس فهى مصدر الطاقة التى ترسلها عبر الفضاء الكونى كما يرسل السراج المتقد الضوء والحرارة.

وقال تعالى فى (سورة نوح : ١٦) : ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ .

وقطر الشمس أكبر من قطر الأرض مائة مرة وتبلغ درجة حرارة سطحها من ٦٠٠٠ درجة مطلقة إلى ١٠ ملايين درجة .

وتمدنا الشمس بجميع أنواع الطاقات التى تشرق بها الأرض ، وتزدهر الحياة فى كنفها . ويشير القرآن إلى تغير تلك الطاقات بتغير الشهور والمواسم حتى يعم النفع ولا يمل الناس من حر دائم أو برد مستمر .

يقول سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ (الفرقان: ٤٥) .

كما يشير القرآن إلى بعض الظواهر الفلكية فى تحديد مسار الشمس فهى تجرى ومعها سائر أجرام مجموعتها بسرعة تبلغ عدة مئات الأميال فى الثانية .

ورغم سير الشمس المستمر ، فإنها لا تتخلف عن وظيفتها ، ولا تظهر فى غير أوانها ، كما أن للقمر مداره ومنزلته وفلكه الذى يسبح فيه ، وقد قدر الله كل ذلك بنظام بديع وتقدير محكم لا يختل ولايضطرب ، وفى إعجاز رائع وأسلوب حكيم ينطق القرآن بهذه الظاهرة ، فيقول سبحانه : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا

ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس : ٣٨ - ٤٠) .

القرآن وعلوم الفضاء :

أشار القرآن إلى أسفار الفضاء ، وذكر أن أجرام السماء تظل تسبح على الدوام إلى ما شاء الله ، حيث لا يوجد فى الفضاء الكونى ما يعوق حركتها ، أو يغير من سرعتها مصداقا لقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (الأنبياء : ٣٣) .

ومن العجيب أن يذكر القرآن أسفار الفضاء كلها على أنها تتم فى مسارات منحنية، والحقيقة أن الفضاء لا يعرف الخط المستقيم ، انظر إلى قوله تعالى فى (سورة المعارج : ٤) : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ .

وفى (سورة سبأ : ٢) : ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ .

وفى (سورة الحجر : ١٤) : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ .

وحين انفتح أمام الإنسان باب الوصول إلى القمر ورحل إليه مرة بعد أخرى رأى نفسه ينطلق فى مسارات منحنية أو متعرجة ، ولا يسير فى خطوط مستقيمة ، وعندما صعد رواد الفضاء فوق جو الأرض ، نظروا إلى الأرض فرأوها قبة زرقاء معلقة فى الفضاء ، وأصبح فى مقدورهم تمييز الخط الفاصل بين الليل والنهار فى غلاف الأرض، ورأوا أن هذا الخط يلف مع دوران الأرض حول محورها ، ولقد أشار القرآن إلى هذه الحقائق بأسلوبه المعجز وبيانه الحكيم . قال تعالى ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ﴾ (سورة الزمر : ٥).

وفى (سورة النور : ٤٤) : ﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ .

وقد أشار القرآن إلى أهمية الجبال فى حفظ توازن الأرض ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ (النحل : ١٥) .

وقوله تعالى : ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ (النبأ : ٦ ، ٧) .

وثبت علميا أن قشرة الأرض ميزان حساس فكل مكان فيه هو كفة متوازنة مع كل مكان آخر ، فإذا تغير الثقل على مكان ما اضطرب هذا التوازن ونجمت عن ذلك هزات الزلازل ، وتصدعات القشرة اليابسة لإعادة هذا التوازن ، والجبال بمقتضى عوامل التعرية تزول ببطء شديد ، ولعل هذا ما تشير إليه الآية الكريمة : ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ (النمل : ٨٨) .

ومن الإعجاز العلمى للقرآن ما كشف عنه العلم من تلاقح النبات وأنه أزواج : قال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يس : ٣٦) .

وقال سبحانه : ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ (طه : ٥٣)

﴿ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ (الرعد : ٣) .

وقال عز شأنه : ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ (الحجر : ٢٢) .

وقد ظن فريق من العلماء أن الآية تشير إلى تلقيح الرياح لبعض النباتات كما هو معروف . ولكن هذا المعنى لا يربط الجزء الأول من الآية بجزئها الثانى وهو إنزال الماء العذب .

فالآية تشير إلى ما تسببه الرياح من تسخير السحاب وإنزال المطر ، وإثراء الحياة بالخيرات والنباتات والمرعى مما يستحق التفكير والتأمل . قال تعالى : ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة : ١٦٤).

وقد أقسم الله تعالى بالنجوم فى تعبير بلغ ذروة الإعجاز فى وصف أبعاد النجوم واتساع الكون المادى بصفة عامة ، قال تعالى: ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ (الواقعة : ٧٥، ٧٦) .

ومن آيات القران الكريم يتضح لنا أن لله عز وجل كتابين ، كتابًا مفتوحًا وهو الكون يقرؤه العالم والجاهل والكبير والصغير والمتعلم والأمى، وكتابًا مقروءًا أنزله على نبيه ليرشد الناس إلى آثار قدرة الله بديع السموات والأرض .

ورغم أن المقصود الأسمى من هذا الكتاب هو الهداية والإرشاد إلا أنه مع ذلك حوى أصول الإعجاز التشريعى والنفسى والبيانى والعلمى .

وإن من أدلة إعجاز هذا الكتاب الكريم أن يخطئ الناس فى تفسيره على اختلاف العصور لضعف وسائلهم العلمية ولقصر حبالهم أن تعلق بأطراف السموات أو تحيط بالأرض ، ثم تصيب الطبيعة نفسها فى كشف معانيه ، فكلما تقدمت العلوم ونازعت إلى الكشف والاختراع واستكملت آلات البحث ظهرت حقائقه الطبيعية ، ناصعة حتى كأن القرآن غاية لا يزال عقل الإنسان يتطلع إليها .

ولا عجب فى ذلك ، فالعقل أثر من آثار الله ، والوحى أثر من آثار الله وآثار الله لا تناقض بينها ولا اضطراب .

قال تعالى : ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ (الملك : ٣) .

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف : ٢١) .

* * *

عناصر الجمال الفنى فى القرآن

من نواحى الإعجاز فى القرآن الكريم أنه يعرض أمامك الصورة البارعة التى تأخذ بالألباب وتستولى على الأفئدة فتتحول إلى مشهد رائع أو لوحة خالدة .

وقد نزل القرآن على العرب والأمية فيهم منتشرة فعرض عليهم كتاب الكون بكل ما فيه ، وقدم لهم لوحات خالدة وصورا مثيرة تستلفت نظر الأعمى والبصير والأمى والمتعلم ، والمرأة والرجل ، والشيخ والشاب ، فهو كتاب العامة والخاصة على السواء .

وقد كان القرآن المكى يستلفت أنظار الناس إلى جمال هذا الكون وبديع صنعته، ويسترسل فى سوق الأدلة المتتالية حتى يأخذ على النفس كل طريق فلا تجد سبيلا من الإذعان والإيمان عن اقتناع حق بأن هذا الكون لم يخلق عبثا ولن يترك سدى .

وفى أول آيات القرآن التى نزلت على النبى بمكة وهو فى غار حراء يتلو الوحى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق : ١-٥)

آيات قصيرة موجزة ، وأسلوب بسيط أخاذ ، وحقائق عن الكون وخالقه ، والقراءة والعلم .

فالقراءة باسم الله الذى خلق كل شىء ، خلق السماء والأرض والجبال والبحار والليل والنهار والهواء والفضاء ، وسخر الشمس والقمر وأبدع الكون كله فى نسق رائع وجمال خالد .

وكما يعرض القرآن الكون الفسيح أمام الإنسان فإنه يستعرض النفس البشرية بكل أسرارها وإبداع خلقها ودقة تركيبها .

حتى يفكر الانسان فى أصله ، كيف خلق ؟ كيف تم تكوينه ؟ حتى أصبح خلقا بديعا جميلا فيقول سبحانه : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ .

ويقول الله تعالى في آية أخرى: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ (الطارق : ٥-٧) .

وهذا الحديث عن البدء يعرضه القرآن فى هدوء ويسر بدون إغراب أو ابتذال ، حتى يوشك أن يكون كلام النفس ذاتها ، فهو السهل الممتنع وهو النسق العالى والأدب الرفيع الذى يمتع العقل والفكر ويرضى العاطفة والذوق سواء بسواء.

وفى الحديث الصحيح أن عمر رضى الله عنه لما سمع قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (المؤمنون : ١٢-١٤) .

قال عمر متعجبا : « فتبارك الله أحسن الخالقين» .

وتبسم النبى صلى الله عليه وسلم لنطق عمر ، فلما سأله عمر عن سر تبسمه قال : « إن الله ختم الآية بما نطقت به » .

وليس ذلك بعجيب على عمر فقد جعل الله الحق على لسانه وقلبه وقال فيه النبى صلى الله عليه وسلم : « إنه كان فيمن مضى ملهمون ، ولو كان فى أمتى ملهمون لكان عمر » .

وإذا تأملت آيات القرآن ، رأيتها تعرض تطور الجنين وتكوينه فى صورة مشرقة تنبض بالحياة والحركة ، فإذا المعنى الذهنى حركة ومشهد ، وإذا النموذج الإنسانى شاخص حى ، وإذا اللفظ القرآنى يعرض الحياة بكل أطوارها .

فإذا ذكرنا أن الأداة التى تصور الحياة إنما هى ألفاظ جامدة ، لا ألوان تصور، وشخوص تعبر ، أدركنا موضع الإعجاز فى تعبير القرآن الكريم .

الإعجاز فى نغم القرآن :

لأسلوب القرآن حلاوة تأخذ بالألباب ، وتستهوى الأفئدة فلا تلبث آياته أن تأخذ سبيلها إلى القلوب فى إيقاع ندى وجرس جميل ونغم رائع ، ولقد سمع القرآن أحد الكفار فرجع إلى قومه قائلا : لقد سمعت من محمد آنفا قولا ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة ، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق ، وإن فرعه لجناه ، وما يقول هذا بشر .

وتستطيع أن تتبين هذا الإعجاز فى جميع آيات القرآن وكلماته، فكل كلمة قد وضعت فى مكانها ، وكل حرف قد صادف موقعه ، اقرأ مثلا سورة الرحمن ، واسترسل فى قراءتها فى سجيتك ، وأمعن نظرك فى جمال عرضها وتناسق أفكارها وتسلسل معانيها ، ثم ارجع البصر كرتين .. كيف بدئت ؟ وكيف ختمت .. وكيف تقابلت أوضاعها وتعادلت ؟ وكيف تلاقت أركانها وتعانقت .. وكيف ازدوجت مقدماتها بنتائجها ووطأت أولاها أخراها ..

ثم تأمل النغم الذى يسرى فى جميع آياتها :

﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (الرحمن : ١-٤)

فقرات قصار ، وصوت ندى ، ونشيد إلهى ، ومعان ربانية تأخذ سبيلها إلى القلوب فى أسلوب إيقاعى ، تبهرك موسيقاه وتستولى على الوجدان أنغامه وألحانه، فهو الذى جمع بين مزايا النثر والشعر كليهما ، فلا تجد فى السورة قيود القافية الموحدة ، أو التفعيلات التامة ، بل تجد حرية التعبير الكاملة ، وجمال التصوير الرائع يعرض مظاهر الكون ، وحقائق الوجود، ويسوق القيامة وأهوالها ، والجنة ونعيمها ، والنار وعذابها فى مشهد حى متحرك ، فإذا الغائب حاضر وإذا النفس سائرة مع الآيات تتأمل نعم الرحمن فى خلق الإنسان وتسخير الشمس والقمر

بحسبان ، ووضع الميزان - وبعد كل نعمة من نعم الله يعقب الرحمن بهذه الآية الكريمة : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » .

فلا يملك الإنسان إلا أن يسجد عقله وأن يزداد يقينه وأن ينطلق قلبه ولسانه قائلَيْن : ولا بشىء من نعمتك ربنا نكذب .

وقد تميز القرآن على الشعر والنثر والسجع ، فتحلى بمزاياها وتخلص من قيودها . قال تعالى:

﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾

(الحاقة : ٣٨-٤٣)

وتصور هذه الآيات موقف العرب من القرآن، وذلك أنهم أخذوا بحسن بيانه وجدة معانيه، وروعة قوافيه، فأخذوا يكيلون التهم جزافا للنبى فقالوا شاعر ثم قالوا ساحر ، وانبرى أحد الكفار يدافع عن القرآن أمام قومه، فقال لهم : لقد عرفنا الشعر فما هو برجزه ولا رمله ، وعرفنا الكهانة فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه وعرفنا السحر فما هو بنفثه ولا عقده .

وتعرض الآية الخامسة من سورة الأنبياء مشهدا من مشاهد الكافرين وقد أخذوا يتدافعون فى إلصاق التهم بالقرآن فى غير تبصر ولا روية . قال تعالى:

﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ﴾

(الأنبياء : ٥)

فكأنك تشهد أمامك منظر هؤلاء الناس ، وقد اجتمعوا فى مجلس ، أحدهم يقول : إن القرآن أضغاث أحلام لا يعلم صحيحها من سقيمها ولا حقها من باطلها . فيجيب الثانى كلا بل افتراه محمد من عند نفسه . فيرد الثالث بل هو شعر تنزلت به الشياطين ، فهى صورة متحركة لجمع مضطرب يهذى كالمحموم يحاول أن يلصق بخصمه أى تهمة تجرى على لسانه .

وقد أفحمهم القرآن وألزمهم الحجة وتحداهم بالوعيد الصادق إلى يوم الدين فقال سبحانه :

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (الشعراء : ٢١٠ - ٢١١)

وقال سبحانه :

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ (هود : ١٣)

وقال عز شأنه :

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ (الإسراء : ٨٨) .

* * *

تصوير الحالات النفسية والمعنوية

من إبداع القرآن أنه يرسم الحالات النفسية كأنها نموذج إنسانى واضح للعيان .

١- فإذا أراد أن يبين أن الإنسان لا يعرف ربه إلا فى ساعة الضيق حتى إذا جاءه الفرج نسى ربه ، لم يقل ذلك فى كلمات وإنما فى صورة مشاهدة ملموسة ، قال سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ (يونس : ٢٢ ، ٢٣) .

وهكذا تحيا الصورة وتتحرك ، وتموج وتضطرب ، وترتفع الأنفاس مع تماوج السفينة وتنخفض ، ثم تؤدى فى النهاية ذلك المعنى المراد أبلغ أداء وأوفاه .

وإذا أراد القرآن أن يبرز حالة (نموذجا) من الناس ظاهرهم يغرى وباطنهم يؤذى رسم لهم صورة كما يأتى :

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾ (البقرة : ٢٠٤، ٢٠٥) .

فيستعيض من الوصف الحركة والتصرف ، ويبرز المفارقة بين الظاهر والباطن فى نسق من الصور المتحركة فى النفس والخيال .

ومن أمثلة التصوير المشخص لمشاهد الحوادث الواقعة قوله سبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ (الأحزاب : ٩ -١١)

فقد رسم فى هذه الآيات مشهدا كاملا برزت فيه الحركات الظاهرة والانفعالات المضمرة والتقت فيه الصور الحسية بالصورة النفسية وكأنما الحادث معروض من جديد دون أن يُغفَل منه قليل أو كثير .

وإذاعرض القرآن لمشاهد القيامة أبرزها فى مشاهد متتابعة أو صورة متحركة فيقول سبحانه :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (الحج: ١ ، ٢) .

فتلحظ فى هذا المشهد صور المرضعات الذاهلات عما أرضعن و الحوامل الملقيات حملهن من الهول ، والسكارى من الذهول والخوف وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد .

مشاهد الكون :

يوجه القرآن النظر إلى مشاهد الكون ، ويلفت الإنسان إلى دلائل القدرة وآيات الابداع الالهى فيقول: ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ (الملك : ٣ ، ٤) .

ومن مشاهد الطبيعة الصامتة يعرض القرآن صورة للأرض حين تنبت صنوف النباتات التى تسقى بماء واحد ولكنها تختلف فى الطعم والمذاق فيقول سبحانه : ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الرعد : ٤) .

ومن مناظر الطبيعة المتحركة يعرض القرآن صورة الطير التى تطير باسطة أجنحتها صافة أقدامها ، ثم تقبض أجنحتها كذلك عند الهبوط فيقول سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ (الملك : ٩) .

وهى صورة حية متحركة يراها الناس كل لحظة ، فيمرون عليها غافلين ، فهو يلفت إليها أنظارهم ، ليروها بالحس الشاعر المتأثر ، دليلا على قدرته ورحمته. وفى الأرض مشاهد عدة للجمال الطبيعى منها ذلك المنظر المألوف منظر الظل الذى تلقيه الأجرام فيبدو ساكنا وهو يتحرك ببطء لطيف : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ (الفرقان: ٤٥)

ونخلص من ذلك إلى أن التصوير هو الأداة المفضلة فى أسلوب القرآن وهو القاعدة المتكررة فيه للبيان ، وهو الطريقة التى يتناول بها جميع الأغراض وهو الخصيصة التى لا يخطئها الباحث فى جميع الأجزاء .

ألوان من الصور المتحركة :

يقول سبحانه: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس : ٣٨ - ٤٠) .

وفيه ترى الشمس والقمر فى سباق جبار لا ينى ولا يفتر فى ليل أو نهار .

ويصف القرآن جهنم وصفا يخلع عليها الحياة والحركة فهى نهمة متغيظة لا يفلت منها أحد ، ولا تشبع بأحد .

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ (ق : ٣٠) .

﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيراً﴾ (الفرقان : ١٢) .

ويصف القرآن الغضب فيخلع عليه صفة الأحياء من السكون والسكوت فيقول سبحانه : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ﴾ (الأعراف : ١٥٤) .

ومن التصوير البديع قوله سبحانه : ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾ (الكهف: ١٠٩) .

فالخيال يظل يتصور تلك الحركة الدائبة : حركة الإمداد بماء البحر لكتابة كلمات الله ، فى غير ما توقف ولا انتهاء ، إلا أن ينتهى البحر بالنفاد .

ومن التعبير المصور قوله سبحانه : ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ (آل عمران: ١٨٥)

فلفظ الزحزحة ذاتها تخيل حركتها المعهودة .

ومن الصور الحسية لإضاعة الأعمال قوله سبحانه :

﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً﴾ (الفرقان : ٢٣) .

ومن بدائع القرآن فى تجسيم المعنويات قوله سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ (إبراهيم : ٢٤ - ٢٦) .

والكلمة الطيبة هنا هى كلمة التوحيد ، وهى شهادة أن لا إله إلا الله ، وهى كلمة طيبة يترتب عليها أثر حسن وأعمال جليلة النفع وتثمر الأقوال والأفعال الحسنة والعبادات والمعاملات المشروعة ، وقد صور القرآن أثرها بصورة شجرة طيبة مثمرة أصلها ثابت فى الأرض وفرعها صاعد إلى السماء . وتؤتى ثمارها الحسنة بين وقت وآخر .

والكلمة الخبيثة هى كلمة الشرك تقطع صاحبها عن الله وقد صورها القرآن بشجرة الشوك أو الحنظل التى يقطعها الفلاح لإصلاح أرضه فتنتهى حياة الشجرة بالهلاك كما تنتهى حياة المشرك بالعذاب .

ويعبر القرآن عن العمل المعنوى فيجعله حاضرا بنفسه كأنه وديعة تسلم فيقول سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً﴾ (آل عمران : ٣٠) . ويقول : ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً﴾ (الكهف:٤٩). ويقول : ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾ (البقرة : ١١٠).

ويتحدث القرآن عن حالة نفسية معنوية هى حالة الضيق والضجر فيجسمها فى صورة حسية تجعل ضيق الأرض المعنوى ضيقا حسيا واضحا وواقعيا ، إذ يصف القرآن ثلاثة من المسلمين تخلفوا عن الغزو مع الرسول فى جيش العسرة ثم ندموا وتابوا فيقول : ﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (التوبة : ١٨٨) .

ويقول سبحانه : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ (غافر : ١٨) . فالقلوب كأنما تفارق مواضعها ، وتبلغ الحناجر حقا من شدة الضيق .

وهكذا تتكشف للناظر فى القرآن آفاق وآفاق ، من التناسق والاتساق ، فمن نظم فصيح ، إلى سرد عذب ، إلى معنى مترابط ، إلى نسق متسلسل، إلى لفظ معبر، مصور ، إلى تصوير مشخص ، إلى تخيل مجسم ، إلى موسيقى داخلية ، إلى اتساق فى الأجزاء ، إلى تناسق فى الإطار ، وبهذا كله يتم الإبداع ، ويتحقق الإعجاز .

* * *

طريقة القرآن

من طريقة القرآن أنه يتخير الأسلوب المناسب للفكرة ، وينوع فى نظام الفواصل والقوافى بتنوع الموضوع الذى يعرضه ، ويتبع ذلك طول الفاصلة وقصرها وطريقة بنائها اللفظى من حيث السهولة والخشونة ، وتخير الحرف الأخير الذى تختم به، فمن ذلك ما جاء فى سورة مريم فالسورة تبدأ بقصة زكريا ويحيى ، وتليها قصة مريم وعيسى وتسير الفاصلة والقافية هكذا .

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ (مـــــريم : ٢-٣) .. الخ الآيات .

ثم يقول : ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ (مـريم : ١٦-١٧) إلى أن تنتهى القصتان على روى واحد . وفجأة يتغير هذا النسق بعد آخر فقرة فى قصة عيسى على النحو التالى :

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ (مريم : ٣٠ - ٣٢) .

إلى أن يقول سبحانه : ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ * وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (مريم : ٣٤ - ٣٦) .

وهكذا يتغير نظام الفاصلة فتطول، ويتغير ختام الفاصلة فتصبح بحرف النون أو بحرف الميم وقبلها مد طويل وكأنما هو فى هذه الآيات الأخيرة يصدر حكما بعد نهاية القصة ، مستمدا منها ، ولهجة الحكم تقتضى أسلوبا تعبيريا غير أسلوب الاستعراض ، وتقتضى إيقاعا قويا رصينا بدل إيقاع القصة الرخى المسترسل وكأنما لهذا السبب كان التغيير فإذا انتهى القرآن من إصدار الحكم وإلقاء القرار عاد إلى النظام الأول فى القافية والفاصلة ، لأنه عاد إلى قصص جديد على النحو التالى :

﴿ فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (مريم : ٣٧) .. الخ الآيات إلى أن يقول سبحانه : ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴾ (مريم : ٤١ - ٤٣) .. الخ الآيات .

ومن إبداع القرآن أن أسلوبه إذا مس الجماد نبض بالحياة وتبدل بقدرة قادرة، ومعجزة باهرة .

فالأرض والسماء والشمس والقمر والجبال والوديان والدور العامرة و الآثار الداثرة والنبات والحيوان والأشجار والأفنان ... كل أولئك أحياء ، أو مشاهد تخاطب الأحياء .

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلاً﴾ (المزمل : ١٤) فهى حية ترجف كالآدميين .

ويقول سبحانه : ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا * السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً ﴾ . (المزمل : ١٧ -١٨) فالسماء المنفطرة بجوارها الأطفال الشيب .

وهول الطوفان يصور فى الطبيعة وإلى جانبها يصور فى والد وولده : ذلك ناج فى السفينة ملهوف على فلذة كبده ، وهذا يجرفه الطوفان حيث : ﴿لا عَاصِمَ

الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ﴾ (هـود : ٤٣) . وإن الهول هنا ليكاد يكون أعظم من الهول فى الطبيعة : ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ (هـود : ٤٢) فما كان الموج فى المشهد إلا إطارا للهول النفسى الذى يفرق بين الابن وأبيه ويفصم الصلة التى لا تفصمها الأهوال .

* * *

العجز عن معرفة الإعجاز

من علماء البلاغة من يرى أن الإعجاز شىء لا يمكن التعبير عنه ولكن النفس تحس حيال القرآن بإحساس غامض أساسه العجز أمام قدرته وقوته وبيانه ، قال السكاكى فى كتابه مفتاح العلوم : « اعلم أن شأن الإعجاز عجيب يدرك ولا يمكن وصفه ، كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها ، وكالملاحة ، وكما يدرك طيب النغم العارض لهذا الصوت ، ولا طريق إلى تحصيله لغير ذوى الفطر السليمة إلا بإتقان علمى المعانى والبيان والتمرن فيها »[١] .

وذكر ابن أبى الحديد - صاحب شرح نهج البلاغة - أن معرفة مقامات الكلام لا تدرك إلا بالذوق ، فقال :

اعلم أن معرفة الفصيح والأفصح ، والرشيق والأرشق ، والجلى والأجلى ، والعلى والأعلى من الكلام أمر لا يدرك إلا بالذوق ، ولا يمكن إقامة الأدلة المنطقية عليه ، وهو بمنزلة جاريتين إحداهما بيضاء مشربة حمرة دقيقة الشفتين نقية الشعر ، كجلاء العينين أسيلة الخد ، دقيقة الأنف ، معتدلة القامة ، والأخرى دونها فى هذه الصفات والمحاسن ، لكنها أحلى فى العيون والقلوب منها وأليق وأملح ولا يدرى لأى سبب كان ذلك ، لكنه بالذوق والمشاهدة يعرف ولا يمكن تعليله، وهكذا الكلام[٢] .

---

(١) البرهان فى علوم القرآن : ٢/ ١٠٠ .

(٢) البرهان فى علوم القرآن : ٢/ ١٢٤ .

وذهب الخطابى إلى أن إعجاز القرآن يرجع إلى « صنعه فى القلوب وتأثيره فى النفوس فإنك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما ولا منثورا إذا قرع السمع خلص له القلب من اللذة والحلاوة فى حال ، ومن الروعة والمهابة فى حال أخرى ما يخلص منه إليه [1] . قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (الحشر : ٢١) .

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (الزمر : ٢٣) .

الإعجاز التشريعى :

من إعجاز القرآن اشتماله على العلوم الإلهية وأصول العقائد الدينية وأحكام العبادات ، وقوانين الفضائل والآداب، وقواعد التشريع السياسى والمدنى والاجتماعى الموافقة لكل زمان ومكان .

ولا شك أن هذا الوجه من أظهر وجوه الإعجاز فإن علوم العقائد الإلهية والغيبية والتشريع الدينى والمدنى والسياسى هى أرقى العلوم ، وقلما ينبغ فيها من الذين ينقطعون لدراستها السنين الطوال ، إلا الأفراد القليلون ، فكيف يستطيع رجل أمى لم يقرأ ولم يكتب ، ولا نشأ فى بلد علم أو تشريع ، أن يأتى بمثل ما فى القرآن منها تحقيقا وكمالا ، ويؤيده بالحجج والبراهين ، بعد أن قضى ثلثى عمره لا يعرف شيئا منها، ولا ينطق بقاعدة ولا أصل من أصولها، ولا حكم بفرع من فروعها ، إلا أن يكون ذلك وحيا من الله تعالى؟ .

(١) البرهان فى علوم القرآن : ٢/ ١٠٦ .

نور القرآن وهدايته :

نجح القرآن أى نجاح فى رسالته للهداية والإصلاح ، فهو الذى غرس الإيمان فى الكبار والصغار غرسا ، وبثه روحا عاما، وأشعر النفوس بما جاء فيه إشعارا، ودفعها إلى التخلى عن موروثاتها ومقدساتها جملة ، وحملها على التحلى بهديه الكريم علما وعملا .

وقد تم ذلك بالاقتناع والرغبة والرضا والإذعان ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة : ٢٥٦) .

أما السيف ومشروعية الجهاد فى الإسلام فلم يكن لأجل تقرير عقيدة فى نفس ، ولا لإكراه شخص أو جماعة على عبادة ، ولكن لدفع أصحاب السيوف عن إذلاله واضطهاده ، وحملهم على أن يتركوا دعوة الحق حرة طليقة ، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله .

هذا الأساس الذى وضعه القرآن وحده هو سر نهضته ، وإن شئت فقل هو نار ثورته بل هو نور هدايته ، والروح السارى لإحياء العالم بدعوته ، وذلك عن طريق أسلوبه المعجز الذى هز النفوس والمشاعر ، وملك القلوب والعقول ، وكان له من السلطان ما جعل أعداءه منذ نزل إلى اليوم يخشون بأسه وصولته ، ويخافون تأثيره وعلمه، أكثر مما يخافون الجيوش الفاتحة ، والحروب الجائحة، لأن سلطان الجيوش والحروب لا يعدو هياكل الأجسام والأشباح ، أما سلطان هذا الكتاب فقد امتد إلى النفوس والأرواح، بما لم يعهد له نظير فى أية نهضة من النهضات .

ولقد أشار القرآن نفسه إلى هذا الوجه من إعجازه ، حين سمى الله كتابه روحا من أمره بقوله : ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ (الشورى : ٥٢) وحين سماه نورا بقوله : ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ (المائدة : ١٥) .

عشرة أوجه للإعجاز :

ذكر القرطبى عشرة أوجه لإعجاز القرآن هى :

١- نظمه البديع المخالف لكل نظم معهود .

٢- أسلوبه العجيب المخالف لجميع الأساليب .

٣- جزالته التى لا يمكن أن تنسب لمخلوق .

٤- التصرف فى الألفاظ العربية على وجه لا يستقل به عربى .

٥- الوفاء بالوعد المدرك بالحس والعيان ، كوعد المؤمنين بالنصر .

٦- الأخبار عن المغيبات المستقبلة التى لا يطلع عليها إلا بالوحى .

٧- ما تضمنه القرآن من العلوم المختلفة التى بها قوام الأنام .

٨- اشتماله على الحكم البالغة .

٩- عدم الاختلاف والتناقض بين معانيه .

١٠- الإخبار عن الأمور التى تقدمت من أول الدنيا إلى وقت نزوله بما لم تجر العادة بصدوره ممن لم يقرأ الكتاب ولم يتعلم ولم يسافر إلى حيث يختلط بأهل الكتاب .

وذكر صاحب المنار سبعة أوجه لإعجاز القرآن أهمها :

صدور القرآن من أمى ، وبلاغته الفائقة ، وغرابة أسلوبه، وأنباؤه الغريبة الصادقة .

وقد بالغ بعض المحدثين فى عد وجوه الإعجاز حتى أدخل فيها ما ليس منها والقرآن غنى عن إطرائه بما ليس فيه ولا من خصائصه ، ويحضرنى فى هذا المعنى ما رواه البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تطرونى ، كما أطرت النصارى عيسى بن مريم ، قالوا : انه ابن الله » .

كما أن بعض المبشرين المحدثين حاول النيل من القرآن فذكر أن إعجاز القرآن مقصور على الناحية اللفظية وهى ناحية الفصاحة وحدها . وتطرق من ذلك إلى أن الفصاحة لا تخص القرآن وحده بل يشترك معه كل كلام فصيح. وهى مغالطة مكشوفة ، فأسلوب القرآن يتميز على غيره من الأساليب من ناحية لفظه ومن ناحية معناه .

فمن خصائص الأسلوب القرآنى ما يأتى :

١- مسحة البداوة مع اشتماله على بسائط الحضارة .

٢- إرضاؤه العامة والخاصة .

٣- إرضاؤه العقل والعاطفة .

٤- جودة السبك وإحكام السرد .

٥- براعته فى تصريف القول .

٦- جمع القرآن بين الإجمال والبيان .

٧- القصد فى اللفظ مع الوفاء بالمعنى .

هذه ألوان من نواحى الإعجاز فى القرآن الكريم، وهناك جوانب متعددة من إعجازه ، منها ما أدركه العلماء ومنها ماعجزوا عنه ولا يزال الزمان وتجدده ، والعلم وتطوره يكشفان من إعجاز هذا الكتاب كل جديد . ويتضح للعيان ما فيه من إعجاز إلهى فى الإرشاد إلى خير سبل السعادة والنجاة فى الدنيا والآخرة ، وإعجاز إلهى فى التبشير والإنذار والترغيب والترهيب، وإعجاز إلهى فى عرض بدائع الكون ومشاهد عظمته وروعته ، ونواميسه الماثلة فى كل شىء ، والبرهنة بها على وجوب وجود الله وقدرته وإحاطته ، وإعجاز إلهى فيما احتواه من فصول الجدل والحجاج والإفحام والإلزام ، وإعجاز إلهى فيما احتواه من الغيبيات السالفة والغيبيات الآتية، وإعجاز إلهى فى صلاح ما أتى به من كل ذلك لكل زمان ومكان، وجنس ولون وعقل وثقافة .

ويؤيد ذلك ما رواه الترمذى عن الحارث الأعور عن على بن أبى طالب قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ألا إنها ستكون فتنة » . فقلت ما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : « كتاب الله، فيه نبأ ما كان قبلكم ، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : « إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد » ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم » .

* * *

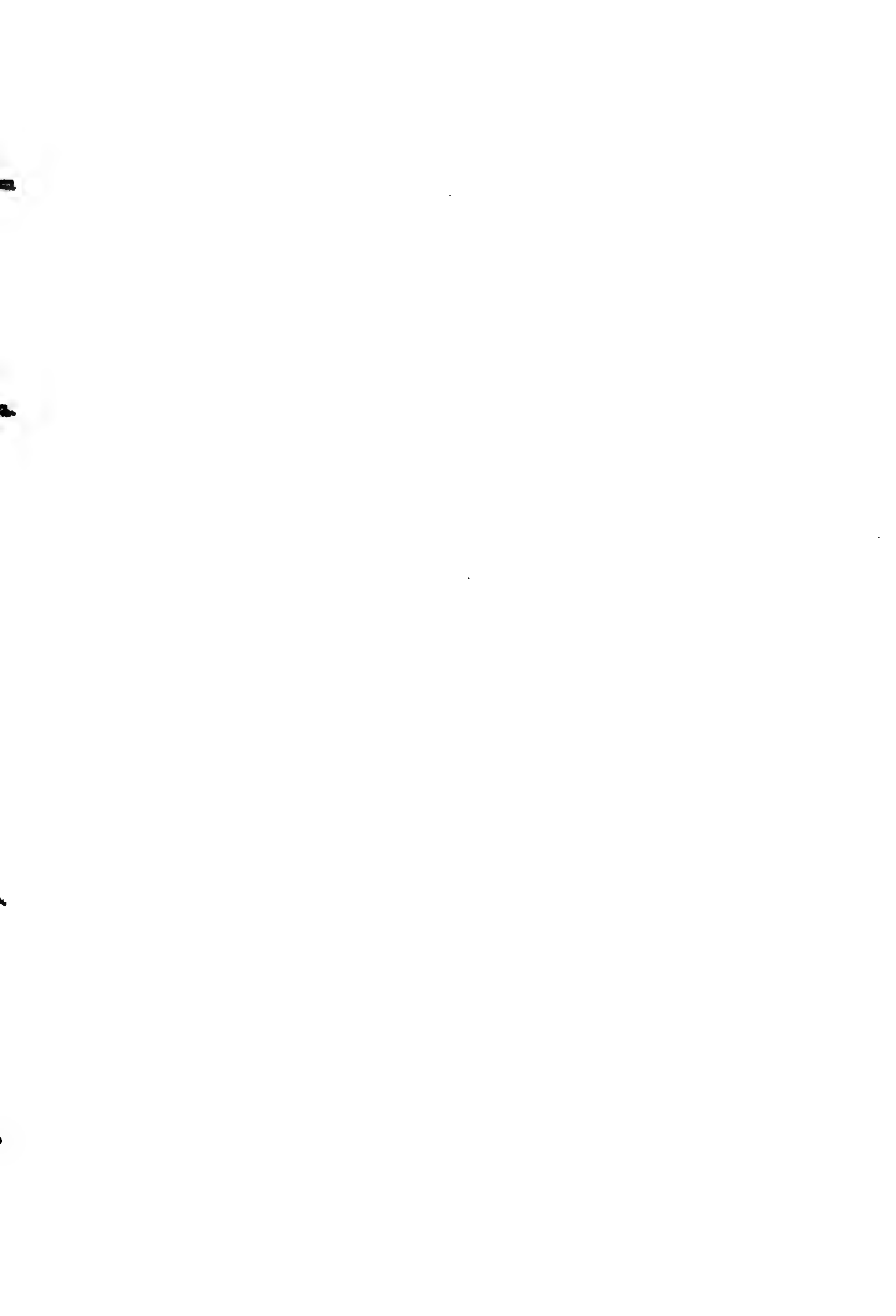
الفصل الرابع

القصة والمثل والقسم

١- القصة فى القرآن .

٢- أمثال القرآن .

٣- القسم فى القرآن .



القصة فى القرآن

القصة هى وسيلة للتعبير عن الحياة أو قطاع معين من الحياة يتناول حادثة واحدة أو عددا من الحوادث بينها ترابط سردى ، ويجب أن تكون لها بداية ونهاية [1] .

ويقسم الفن القصصى من ناحية القالب والمظهر إلى أربعة أقسام :

١- الأقصوصة : وهى قصة قصيرة يعالج فيها الكاتب جانبا من حياة ، لا كل جوانب هذه الحياة . فهو يقتصر على سرد حادثة ، أو بضع حوادث يتألف منها موضوع مستقل بشخصياته ومقوماته . على أن الموضوع ، مع قصره، يجب أن يكون تاما ناضجا من وجهة التحليل والمعالجة ، ولا يتهيأ هذا إلا ببراعة يمتاز بها الكاتب الأقصوصى ، إذ إن المجال أمامه ضيق محدود ، يتطلب التركيز الفنى .

٢- القصة : وتتوسط بين الأقصوصة والرواية ، وفيها يعالج الكاتب جوانب أرحب مما يعالج فى الأولى ، فلا بأس هنا أن يطول الزمن وتمتد الحوادث ويتوالى تطورها فى شىء من التشابك .

٣- الرواية : وفيها يعالج المؤلف موضوعا كاملا أو أكثر ، زاخرا بحياة تامة أو أكثر ، فلا يفرغ القارئ منها إلا وقد ألم بحياة البطل أو الأبطال فى مراحلها المختلفة .

٤- أما الحكاية : فهى سرد واقعة أو وقائع حقيقية أو خيالية لا يلتزم فيها الحاكى قواعد الفن الدقيقة ، بل يرسل الكلام كما يواتيه طبعه .

---

(١) القرآن والقصة الحديثة محمد كامل حسن المحامى ص ٩ .

ويفرض العلماء فى القصة الفنية بمعناها العام وجود ثلاثة عناصر رئيسية هى الموضوع ، والشخصيات ، والحوار . ثم يضيفون بدقة شروط كل من هذه العناصر ويبينون أنواع الخلل التى يطرأ عليها فتحيلها من قصة فنية إلى غير فنية ، ومن القواعد التى يقرونها ما يلى :

١- أن تكون للقصة وحدة فنية .

٢- أن يراعى فى عرضها جانب التلميح ما أمكن .

٣- أن يعنى كاتبها برسم شخصيات القصة .

٤- أن يكون للقصة هدف ومغزى .

٥- ألا تظهر فيها الموعظة أو الحكمة ظهورا مباشرا .

٦- ألا تخلو من عنصر التشويق .

٧- أن يكون أسلوبها طبيعيا لا هو بالمتهافت ولا بالبالغ الصعوبة .

والقصة فى القرآن الكريم ليست عملا فنيا مستقلا فى موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثه - كما هو الشأن فى القصة الفنية الحرة التى ترمى إلى غرض فنى طليق - إنما هى وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى أغراضه الدينية، والقرآن كتاب دعوة دينية قبل كل شىء والقصة إحدى وسائله لإبلاغ هذه الدعوة وتثبيتها .

وقد خضعت القصة القرآنية فى موضوعها وفى طريقة عرضها ، وإدارة حوادثها ، لمقتضى الأغراض الدينية ، ولكن هذا الخضوع الكامل للغرض الدينى لم يمنع بروز الخصائص الفنية فى عرضها ، ولا سيما خصيصة القرآن الكبرى فى التعبير ، وهى التصوير [١] .

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن للأستاذ سيد قطب ص ١١٧ .

أنواع القصص فى القرآن :

القصص فى القرآن ثلاثة أنواع :

النـــوع الأول : قصص الأنبياء ، وقد تضمن دعوتهم إلى قومهم والمعجزات التى أيدهم الله بها وموقف المعاندين منهم ، ومراحل الدعوة وتطورها وعاقبة المؤمنين والمكذبين ، كقصص نوح وإبراهيم وموسى وهارون ، وعيسى ، ومحمد وغيرهم من الأنبياء والمرسلين ، عليهم جميعا أفضل الصلاة والسلام .

النوع الثـــانى : قصص قرآنى يتعلق بحوادث عابرة : وأشخاص لم تثبت نبوتهم، كقصة الذين أخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وطالوت وجالوت ، وابنى آدم ، وأهل الكهف، وذى القرنين، وقارون ، وأصحاب السبت ، ومريم وأصحاب الأخدود ، وأصحاب الفيل ونحوهم .

النوع الثالث : قصص يتعلق بالحوادث التى وقعت فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم كغزوة بدر وأحد فى سورة آل عمران ، وغزوة حنين وتبوك فى سورة التوبة وغزوة الأحزاب فى سورة الأحزاب ، والهجرة ، والإسراء ونحو ذلك (١) .

أغراض القصة فى القرآن :

سيقت القصة فى القرآن لتحقيق أغراض دينية بحتة ، وقد تناولت من هذه الأغراض عددا وفيرا من الصعب استقصاؤه ، لأنه يكاد يتسرب إلى جميع الأغراض القرآنية ، فإثبات الوحى والرسالة ، وإثبات وحدانية الله ، وتوحد الأديان فى أساسها والإنذار والتبشير ، ومظاهر القدرة الإلهية ، وعاقبة الخير والشر ، والعجلة والتريث ، والصبر والجزع ، والشكر والبطر ، وكثير غيرها من الأغراض الدينية والمرامى الخلقية قد تناولته القصة وكانت أداة له وسبيلا إليه .

---

(١) مناع القطان : مباحث فى علوم القرآن ص ٢٦٠ .

فإذا نحن استعرضنا هنا أغراض القصة القرآنية فإنما نثبت أهم هذه الأغراض وأوضحها وهى :

١- إثبات الوحى والرسالة ، وبيان أن الدين كله من عند الله من عهد نوح إلى عهد محمد عليهما الصلاة والسلام ، وأن المؤمنين كلهم أمة واحدة والله الواحد رب الجميع .

وفى سورة الأنبياء مظهر واضح لوحدة الرسالة فقد تحدثت السورة عن قصص الأنبياء فذكرت طرفا من قصة موسى وهارون وإبراهيم ولوط وداود وسليمان وأيوب وإسماعيل وإدريس وذا الكفل وذا النون وزكريا ومريم، ثم عقب القرآن على ذكرهم جميعا بالآية الكريمة : ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٩٢) . وهذا هو الغرض الأصيل من هذا الاستعراض الطويل .

وغيره من الأغراض الأخرى يأتى عرضا وفى ثناياه .

٢- بيان أن وسائل الأنبياء فى الدعوة موحدة ، وأن استقبال قومهم متشابه ، فضلا عن أن الدين من عند الله - وهو إله واحد - ، وأنه قائم على أساس واحد، وفى سورة هود يقول القرآن الكريم :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَن لاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ . . . ﴾ (هود : ٢٥- ٤٩) .

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِن أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ . . . ﴾ .. إلخ الآيات (هود : ٥٠ - ٦٠) .

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ .. الخ الآيات (هود ٦١ - ٦٨) .

فنجد فى هذه الآيات من سورة هود أن دعوة الرسل واحدة وإجابة قومهم تكاد تكون واحدة ، وأن قصة كل نبى تتشابه مع الأخرى فى الدعوة والجهاد والنضال ، والبداية والختام .

٣- بيان أن الله ينصر أنبياءه فى النهاية ويهلك الكاذبين ، وفى ذلك تثبيت لقلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقلوب الأمة المحمدية ، وتقوية ثقة المؤمنين بنصرة الحق وجنده وخذلان الباطل وأهله .

لقد نصر الله نوحا وأغرق قومه، وأنقذ إبراهيم من النار ونجاه من كيد الكافرين وأنقذ لوطا وأهلك قومه بالخسف والعذاب. وقصص الأنبياء يحكى عاقبة المكذبين بالرسل وما ذاقوا من ألوان العذاب . قال تعالى :

﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ * فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (العنكبوت : ٣٩ - ٤٠)

وتلك هى النهاية الواحدة للمكذبين .

ويقول سبحانه : ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (هود : ١٢٠) .

٤- تصديق الأنبياء السابقين وإحياء ذكراهم وتخليد آثارهم وبيان نعمة الله تعالى عليه كقصص سليمان وداود وأيوب وإبراهيم ومريم وعيسى وزكريا ويونس وموسى ، فكانت ترد حلقات من قصص هؤلاء الأنبياء تبرز فيها النعمة فى مواقف شتى .

٥ - وللقصة فى القرآن أغراض أخرى متفرقة منها : بيان قدرة الله على الخوارق : كقصة خلق آدم وقصة مولد عيسى ، وقصة إبراهيم والطير الذى آب إليه بعد أن جعل على كل جبل منهن جزءا، وقصة الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها وقد أماته الله مائة عام ثم بعثه .

وبيان عاقبة الاستقامة والصلاح ، وعاقبة الانحراف والإفساد كقصة ابنى آدم، وقصة صاحب الجنتين . وقصص بنى إسرائيل بعد عصيانهم . وقصة سد مأرب وقصة أصحاب الأخدود .

وبيان الفارق بين الحكمة الإنسانية العاجلة ، والحكمة الكونية البعيدة الآجلة كقصة موسى والخضر .

إلى آخر هذه الأغراض الوعظية ، التى كانت تساق لها القصص فتفى بمغزاها .

* * *

آثار خضوع القصة للغرض الدينى

خضعت القصة فى القرآن للأغراض الدينية فترك هذا الخضوع آثارا واضحة فى طريقة عرضها، بل وفى مادتها، ومن أوضح هذه الآثار ما يأتى :

١- تكرار القصة الواحدة :

ونعنى بالتكرار أن ترد القصة الواحدة مكررة فى مواضع شتى ، ولكن هذا التكرار لا يتناول القصة كلها - غالبا - إنما هو تكرار لبعض حلقاتها ، ومعظمه إشارات سريعة لموضع العبرة فيها . أما جسم القصة كله فلا يكرر إلا نادرا ولمناسبات خاصة فى السياق .

وحين يقرأ الإنسان هذه الحلقات المكررة ملاحظا السياق الذى وردت فيه يجدها مناسبة لهذا السياق تماما ، فى اختيار الحلقة التى تعرض هنا أو تعرض هناك ، وفى طريقة عرضها كذلك ، ويجب أن نذكر دائما أن القرآن كتاب دعوة دينية، وأن التناسق بين حلقة القصة التى تعرض والسياق الذى تعرض فيه هو الغرض المقدم .

على أن هناك ما يشبه أن يكون نظاما مقررا فى عرض الحلقات المكررة من القصة الواحدة - يتضح حين تقرأ بحسب ترتيب نزولها - فمعظم القصص يبدأ بإشارة مقتضبة ثم تطول هذه الإشارات شيئا فشيئا ، ثم تعرض حلقات كبيرة تكون فى مجموعها جسم القصة ، وقد تستمر الإشارات المقتضبة فيما بين عرض هذه الحلقات الكبيرة عند المناسبات حتى إذا استوفت القصة حلقاتها كانت هذه الإشارات هى كل ما يعرض منها .

ونضرب مثالا على هذا النظام ، قصة موسى ، إذ إنها أشد القصص فى القرآن تكرارا فهى من هذه الوجهة تعطى فكرة كاملة عن هذا التكرار . وردت هذه

القصة فى حوالى ثلاثين موضعا فى القرآن : من أهمها ما ذكر فى عشرين سورة سنذكرها حسب ترتيب نزولها :

فى سورة الأعلى ثم فى سورة الفجر ثم فى سورة الأعراف .. ثم الفرقان ثم مريم ثم طه ، ثم الشعراء ثم النمل ثم القصص ثم الإسراء ثم يونس ثم هود ثم غافر ثم فصلت ثم الذاريات ثم الكهف ثم إبراهيم ثم الأنبياء ثم النساء ثم المائدة .

وإذا قرأنا الآيات التى تناولت قصة موسى فى السور رأينا أن فيها نوعا من التكرار وأنه - فيما عدا ستة مواضع - إشارات وعظية إلى القصة اقتضاها السياق، أما الحلقات الأساسية فلم تكرر تقريبا ، وإذا كررت حلقة منها جاءت بشىء جديد فى تكرارها . وهذه القصة نموذج للقصص الأخرى وعلى ضوئها ندرك أن ليس فى القصص القرآنى ذلك التكرار المطلق الذى يخيل لبعض من يقرأون القرآن بلا تدقيق ولا إمعان .

٢- انتخاب أجزاء من القصة :

وكان من آثار خضوع القصة فى القرآن للغرض الدينى - غير التكرار - أن تعرض بالقدر الذى يكفى لأداء الغرض ، ومن الحلقة التى تتفق معه ، فمرة تعرض القصة من أولها ومرة من وسطها ومرة من آخرها وتارة تعرض كاملة ، وتارة يكتفى ببعض حلقاتها ، وتارة تتوسط بين هذا وذاك ، حسبما تكمن العبرة فى هذا الجزء أو ذاك . ذلك أن الهدف التاريخى لم يكن من بين أهداف القرآن الأساسية كالهدف القصصى سواء ، فسارت القصة وهدفها الأول هو الهدف الدينى [1] . على النحو التالى :

(أ) نجد قصصا تعرض منذ الحلقة الأولى : حلقة ميلاد بطلها ، لأن فى مولده عظمة بارزة وذلك مثل قصة ميلاد آدم وعيسى . لأن مولدهما دليل القدرة الكاملة لله: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (آل عمران : ٥٩)

(١) التصوير الفنى فى القرآن ص ١٣٢ .

كما عرض القرآن قصة موسى من حين مولده ، ونجاته من القتل وقصة إسماعيل حيث ولد لإبراهيم على الكبر ، وقصة ميلاد يحيى حين استجاب الله لدعاء والده زكريا .

(ب) ونجد قصصا أخرى تعرض من حلقة متأخرة نسبيا . فيوسف تبدأ قصته صبيا يرى رؤيا تسير حياته كلها ، وتؤثر فى مستقبله ، وإبراهيم تبدأ قصته فتى ينظر فى السماء فيرى نجما فيظنه إلهه فإذا أفل قال لا أحب الآفلين ثم يرى القمر والشمس ... ثم يفىء إلى ربه ويمضى فى رسالته .

(ج) ثم نجد قصصا لا تعرض إلا فى حلقة متأخرة جدا . فنوح وهود وصالح ولوط وشعيب ، وكثيرون غيرهم ، لا تعرض قصصهم إلا عند حلقة الرسالة، وهى الحلقة الوحيدة التى تعرض من حياتهم لأنها أهم حلقة منها، والعبرة كامنة فيها .

٣- الموعظة :

وكان من أثر خضوع القصة للغرض الدينى أن تمزج التوجيهات الدينية بسياق القصة ، قبلها وبعدها، وفى ثناياها كذلك .

وفى قصة يوسف وقصة آدم ونوح وهود ما يوضح ذلك، وإذا تتبعنا قصص القرآن وجدنا عقب كل قصة تعقيبا دينيا يناسب العبرة فيها .

« لأن الغرض الأساسى من سياق القصة فى القرآن هو الغرض الدينى أولا وقبل جميع الأغراض » [١] .

تنوع المفاجأة وطريقة العرض

إن خضوع القصة للغرض الدينى لم يمنع بروز الخصائص الفنية فى عرضها فقد لمس القرآن الوجدان ، واتبع فى ذلك طريقة التصوير ، فبلغ الغاية بمادته وطريقته، وجمع بين الغرض الدينى والغرض الفنى من أقرب طريق ومن أرفع طريق .

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن ص ١٣٨ .

ومن الخصائص الفنية فى القصة القرآنية مايأتى :

تنوع طريقة المفاجأة :

١- فمرة يكتم سر المفاجأة عن البطل وعن النظارة ، حتى يكشف لهم معا فى آن واحد ، مثال ذلك قصة موسى مع الخضر فى سورة الكهف ، فقد خرق الخضر السفينة ثم قتل الغلام ، ثم أقام الجدار، وفى نهاية القصة يبين الخضر لموسى هذه الأفعال .

٢- ومرة يكشف بعض السر للنظارة . وهو خاف على البطل فى موضع وخاف عن النظارة وعن البطل فى موضع آخر فى القصة الواحدة .

مثال ذلك عرش بلقيس الذى جىء به فى غمضة عين . ثم إسلام بلقيس فى النهاية بعد أن رأت صرحا ممردا من قوارير فقالت : ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (النمل : ٤٤) .

٣- ومرة يكشف السر للنظارة منذ أول لحظة مثل قصة أصحاب الجنة فى سورة (ن) التى تبدأ بقوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ (ن: ١٧) .

تنوع طريقة العرض :

من الخصائص الفنية للقصة القرآنية تنوع طريقة العرض .

ونشاهد فى قصص القرآن أربع طرائق مختلفة للابتداء فى عرض القصة على النحو التالى :

١- مرة يذكر ملخصا للقصة يسبقها ثم يعرض التفصيلات بعد ذلك من بدئها إلى نهايتها وذلك كطريقة قصة (أهل الكهف) فى سورة الكهف .

٢- ومرة يذكر عاقبة القصة ومغزاها ثم تبدأ القصة بعد ذلك من أولها وتسير بتفصيل خطواتها، وذلك كقصة موسى فى سورة القصص ، وقريب من هذا

النحو قصة يوسف فهى تبدأ بالرؤيا يقصها يوسف على أبيه ثم تسير القصة بعد ذلك ، وكأنما هى تأويل للرؤيا ولما توقعه يعقوب من ورائها .

٣- ومرة يذكر القصة مباشرة بلا مقدمة ولا تلخيص ويكون فى مفاجآتها الخاصة ما يغنى، مثل ذلك قصة مريم عند مولد عيسى ومفاجآتها ، وقصة سليمان مع النمل والهدهد وبلقيس فى سورة النمل .

٤- ومرة يحيل القصة تمثيلية مثل قصة إبراهيم وحواره مع قومه عند تكسير الأصنام ، وحواره مع ولده عندما أمر بذبحه وتعاونه مع ولده فى بناء البيت ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة : ١٢٧) وفى حوار إبراهيم مع ربه يقول القرآن : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة : ٢٦٠) .

تلك بعض سمات القصة فى القرآن ، وهى سمات تيسر القول بأن « القرآن يجعل من الجمال الفنى أداة مقصورة للتأثير الوجدانى ، فيخاطب حاسة الوجدان الدينية ، بلغة الجمال الفنية » [1] .

ولكن مظاهرالتنسيق الفنى فى القصة القرآنية ، لا تخضع للقواعد الفنية للقصة الحديثة ولا تتقيد بها .

فهى تتوافق معها فى بعض الأحيان ، وقد تتفرد بإبداعها الفنى فى بعض الأحيان ، لكنها فى الاتفاق والاختلاف تبقى دائما قصة قرآنية لها سماتها وخصائصها وميزاتها الخاصة دون أن تكون عملا فنيا مستقلا فى موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثه ، ويبقى هدفها الأول و الأخير هو هدف القرآن ذاته . قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (يوسف : ٣) .

(١) التصوير الفنى فى القرآن ص ١٣٩ .

أمثال القرآن

من أساليب القرآن الكريم فى ضروب بيانه ونواحى إعجازه ضرب الأمثال للناس وإبراز المعقول فى صورة المحسوس وعرض الغائب فى معرض الحاضر ، وقياس النظير على النظير ، وبذلك يسلك القرآن سبيله إلى الإقناع بالحكمة والموعظة الحسنة .

وقد أفرد أمثال القرآن بالتآليف عدد من العلماء منهم الشيخ أبو عبد الرحمن محمد بن حسين السلمى النيسابورى المتوفى سنة ٤٠٦ هـ والإمام شمس الدين محمد بن أبى بكر بن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥٤ هـ والإمام أبو الحسن على بن محمد بن حبيب الماوردى الشافعى المتوفى سنة ٤٥٠ هـ وعقد السيوطى فى الإتقان بابًا لأمثال القرآن وفصلا لأقسام الأمثال وأنواعها [١] وفعل ذلك ابن القيم فى كتابه أعلام الموقعين .

وقد ذكر الله تعالى فى كتابه أنه يضرب الأمثال فقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (الزمر : ٢٧) .

وقال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾ (العنكبوت:٤٣)

﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر : ٢١) .

وأخرج البيهقى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن القرآن نزل على خمسة أوجه حلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال فاعملوا بالحلال واجتنبوا الحرام واتبعوا المحكم وآمنوا بالمتشابه واعتبروا بالأمثال» .

---

(١) الإتقان : ٢/ ١٣١ - ١٣٢ .

قال الماوردى: من أعظم علوم القرآن علم أمثاله والناس فى غفلة عنه لاشتغالهم بالأمثال وإغفالهم الممثلات، والمثل بلا ممثل كالفرس بلا لجام والناقة بلا زمام .

وقال غيره : قد عده الإمام الشافعى مما يجب على المجتهد معرفته من علوم القرآن فقال : ثم معرفة ما ضرب فيه من الأمثال الدالة على طاعته، المبينة لاجتناب مناهيه ، وقال الشيخ عز الدين: إنما ضرب الله الأمثال فى القرآن تذكيرا ووعظا فما اشتمل منها على تفاوت فى ثواب أو على إحباط عمل أو على مدح أو ذم أو نحوه فإنه يدل على الأحكام . وقال غيره: ضرب الأمثال فى القرآن يستفاد منه أمور كثيرة منها :

التذكير والوعظ والحث والزجر والاعتبار والتقرير وتقريب المراد للعقل وتصويره بصورة المحسوس، فإن الأمثال تصور المعانى بصورة الأشخاص لأنها أثبت فى الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس ، ومن ثم كان الغرض من المثل تشبيه الخفى بالجلى والغائب بالشاهد [1] .

وقال الزركشى فى البرهان : ومن حكمته تعليم البيان وهو من خصائص هذه الشريعة .

تعريف المثل :

الأمثال : جمع مثل ، والمثل والمثيل : كالشبه والشبيه لفظا ومعنى .

والمثل فى الأدب : قول محكى سائر يقصد به تشبيه حال الذى حكى فيه بحال الذى قيل لأجله ، أى يشبه مضربه بمورده ، مثل « رب رمية من غير رام» أى رب مصيبة حصلت من رام شأنه أن يخطئ ، وأول من قال هذا المثل الحكم بن يغوث النقرى ، يضرب للمخطئ يصيب أحيانا وعلى هذا فلابد له من مورد يشبه مضربه به ، ولا تختلف صيغة المثل فى كل استعمالاته فيخاطب به المفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث بصيغته التى ورد عليها ، ويطلق المثل على الحال والقصة

---

(١) الإتقان : ٢/ ١٣١ وانظر تاريخ التفسير للشيخ قاسم القيسى مطبعة المجمع العلمى بالعراق ص ٩٩ وفيه نص كلام السيوطى .

العجيبة الشأن . وبهذا المعنى فسر لفظ المثل فى كثير من الآيات . كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ (محمد : ١٥) [1] : أى قصتها وصفتها التى يتعجب منها .

وأشار الزمخشرى إلى هذه المعانى الثلاثة فى كشافه فقال : « والمثل فى أصل كلامهم بمعنى المثل والنظير ، ثم قيل: القول: السائر الممثل مضربه بمورده مثل . ولم يضربوا مثلا ولا رأوه أهلا للتيسير ولا جديرا بالتداول والقبول إلا قولا فيه غرابة من بعض الوجوه ثم قال : وقد استعير المثل للحال أو الصفة أو القصة إذا كان لها شأن وفيها غرابة .

وهناك معنى رابع ذهب إليه علماء البيان فى تعريف المثال ، فهو عندهم المجاز المركب الذى تكون علاقته المشابهة متى فشا استعماله، وصلة الاستعارة التمثيلية . كقولك للمتردد فى فعل أمر : مالى أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى .

وقيل فى ضابط المثل كذلك : إنه إبراز المعنى فى صورة حسية تكسبه روعة وجمالا . والمثل بهذا المعنى لا يشترط أن يكون له مورد . كما لا يشترط أن يكون مجازا مركبا .

وإذا نظرنا إلى أمثال القرآن التى يذكرها المؤلفون وجدنا أنهم يوردون الآية المشتملة على تمثيل حال أمر بحال أمر آخر ، سواء أورد هذا التمثيل بطريق الاستعارة ، أم بطريق التشبيه الصريح ؟ أو الآيات الدالة على معنى رائع بإيجاز ، أو التى يصح استعمالها فيما يشبه ما وردت فيه ، فإن الله تعالى ابتدأها دون أن يكون لها مورد من قبل .

فأمثال القرآن لا يستقيم حملها على أصل المعنى اللغوى الذى هو الشبيه والنظير ، ولا يستقيم حملها على ما يذكر فى كتب اللغة لدى من ألفوا فى الأمثال، إذ ليست أمثال القرآن أقوالا استعملت على وجه تشبيه مضربها بموردها ، ولا يستقيم حملها على معنى الأمثال عند علماء البيان فمن أمثال القرآن ما ليس

---

(١) انظر بلاغة القرآن للأستاذ محمد خضر حسين ص ٢٦ .

باستعارة وما لم يفش استعماله . ولذا كان الضابط الأخير أليق بتعريف المثل فى القرآن : فهو إبراز المعنى فى صورة رائعة موجزة لها وقعها فى النفس ، سواء كانت تشبيها أو قولا مرسلا .

فابن القيم يقول فى أمثال القرآن : تشبيه شىء بشىء فى حكمه ، لتقريب المعقول من المحسوس ، أو أحد المحسوسين من الآخر واعتبار أحدهما بالآخر . ويسوق الأمثلة : فنجد أكثرها على طريقة التشبيه الصريح كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ (يونس: ٢٤) . ومنها ما يجىء على طريقة التشبيه الضمنى ، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ (الحجرات: ١٢) إذ ليس فيه تشبيه صريح . ومنها ما لم يشتمل على تشبيه ولا استعارة ، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (الحج : ٧٣) ، فقوله : « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا » قد سماه الله مثلا وليس فيه استعارة ولا تشبيه .

أنواع الأمثال فى القرآن :

الأمثال فى القرآن ثلاثة أنواع : ١ - الأمثال المصرحة ٢- الأمثال الكامنة ٣- الأمثال المرسلة .

النوع الأول : الأمثال المصرحة : وهى ما صرح فيها بلفظ المثل ، أو مايدل على التشبيه . وهى كثيرة فى القرآن نورد منها ما يأتى:

(أ) قوله تعالى فى حق المنافقين : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ * أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ (البقرة : ١٧ - ١٩) .

ففى هذه الآيات ضرب الله للمنافقين مثلين : مثلا ناريا فى قوله : « كمثل الذى استوقد نارا .. » لما فى النار من مادة النور ، ومثلا مائيا فى قوله : « أو كصيب من السماء » لما فى الماء من مادة الحياة ، وقد نزل الوحى من السماء متضمنا لاستنارة القلوب وحياتها ، وذكر الله حظ المنافقين فى الحالين . فهم بمنزلة من استوقد نارا للإضاءة والنفع حيث انتفعوا ماديا بالدخول فى الإسلام ، ولكن لم يكن له أثر فى قلوبهم . فذهب الله بما فى النار من الإضاءة « ذهب الله بنورهم » وأبقى ما فيها من الإحراق وهذا مثلهم النارى .

وذكر مثلهم المائى فشبههم بحال من أصابه مطر فيه ظلمة ورعد وبرق فخارت قواه ووضع أصبعيه فى أذنيه وأغمض عينيه خوفا من صاعقة تصيبه، لأن القرآن بزواجره وأوامره ونواهيه وخطابه نزل عليهم نزول الصواعق .

(ب) وذكر الله المثلين : المائى والنارى - فى سورة الرعد للحق والباطل .

فقال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ﴾ (الرعد : ١٧).

شبه الوحى الذى أنزله من السماء لحياة القلوب بالماء الذى أنزله لحياة الأرض بالنبات ، وشبه القلوب بالأودية ، والسيل إذا جرى فى الأودية احتمل زبدا وغثاء ، فكذلك الهدى والعلم إذا سرى فى القلوب أثار ما فيها من الشهوات ليذهب بها ، وهذا المثل المائى فى قوله : « أنزل من السماء ماء ..» وهكذا يضرب الله الحق والباطل .

وذكر المثل النارى فى قوله : « ومما يوقدون عليه فى النار » فالمعادن من ذهب أو فضة أو نحاس أو حديد عند سبكها تخرج النار ما فيها من الخبث وتفصله من الجوهر الذى ينتفع به فيذهب جفاء . فكذلك الشهوات يطرحها قلب المؤمن ويجفوها كما يطرح السيل والنار ذلك الزبد وهذا الخبث .

النوع الثانى من الأمثال : الأمثال الكامنة - وهى التى لم يصرح فيها بلفظ التمثيل ولكنها تدل على معان رائعة فى إيجاز ، يكون لها وقعها إذا نقلت إلى ما يشبهها، ويمثلون لهذا النوع بأمثلة منها :

١- ما فى معنى قولهم « خير الأمور الوسط » .

(أ) قوله تعالى فى البقرة : ﴿لاَّ فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ (البقرة : ٦٨).

(ب) قوله تعالى فى النفقة : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (الفرقان : ٦٧) .

(ج) قوله تعالى فى الصلاة : ﴿ وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ﴾ (الإسراء : ١١٠) .

(د) قوله تعالى فى الإنفاق : ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ (الإسراء : ٢٩) .

٢- ما فى معنى قولهم : « ليس الخبر كالمعاينة » .

قوله تعالى فى إبراهيم عليه السلام : ﴿ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (البقرة : ٢٦٠) .

٣- ما فى معنى قولهم : « كما تدين تدان»

قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ (النساء: ١٢٣) .

٤- ما فى معنى : « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » .

قوله تعالى على لسان يعقوب ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ (يوسف : ٦٤) وقد أورد السيوطى فى الإتقان أحد عشر مثالا من هذا القبيل [1] .

النوع الثالث : الأمثال المرسلة فى القرآن : وهى جمل أرسلت إرسالا من غير تصريح بلفظ التشبيه. فهى آيات جارية مجرى الأمثال .

---

(١) الإتقان : ١٣٢/١ وقارن بالتعبير الفنى فى القرآن للدكتور بكرى شيخ أمين : ص ٢٢٩ . ومباحث فى علوم القرآن لمناع القطان : ص ٢٤٤ .

من أمثلة ذلك ما يأتى :

١- ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ (يوسف : ٥١) .

٢- ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ (النجم : ٥٨) .

٣- ﴿قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ (يوسف : ٤١) .

٤- ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (هود : ٨١)

٥- ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ (الأنعام : ٦٧)

٦- ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾ (فاطر : ٤٣)

٧- ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ (الإسراء : ٨٤)

٨- ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ (البقرة : ٢١٦) .

٩- ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (المدثر : ٣٨)

١٠ - ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ (الرحمن : ٦٠)

١١- ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (المؤمنون : ٥٣)

١٢- ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (الحج : ٧٣)

١٣ - ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ (الصافات : ٦١)

١٤- ﴿لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ (المائدة : ١٠٠)

١٥- ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (البقرة : ٢٤٩)

١٦- ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ (الحشر : ١٤) .

واختلفوا فى هذا النوع من الآيات الذى يسمونه إرسال المثل ، ما حكم استعماله استعمال الأمثال ؟

فرآه أهل العلم خروجا عن أدب القرآن ، قال الرازى فى تفسير قوله تعالى: «لكم دينكم ولى دين » جرت عادة الناس أن يتمثلوا بهذه الآية عند المتاركة ، وذلك غير جائز ، لأنه تعالى ما أنزل القرآن ليتمثل به ، بل يتدبر فيه ، ثم يعمل بموجبه ».

ورأى آخرون أنه لا حرج فيما يظهر أن يتمثل الرجل بالقرآن فى مقام الجد، كأن يأسف أسفا شديدا لنزول كارثة قد تقطعت أسباب كشفها عن الناس فيقول : « ليس لها من دون الله كاشفة » أو يحاور صاحب مذهب فاسد يحاول استهواءه إلى باطله فيقول « لكم دينكم ولى دين » والإثم الكبير فى أن يقصد الرجل إلى التظاهر بالبراعة فيتمثل بالقرآن حتى فى مقام الهزل والمزاح »[(١)] .

فوائد الأمثال :

١- الأمثال تبرز المعقول فى صورة المحسوس الذى يلمسه الناس ، فيتقبله العقل لأن المعانى المعقولة لا تستقر فى الذهن إلا إذا صيغت فى صورة حسية قريبة الفهم ، كما ضرب الله مثلا لحال المنفق رياء ، حيث لا يحصل من إنفاقه على شىء من الثواب ، فقال تعالى : ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ (البقرة : ٢٦٤) .

٢- وتكشف الأمثال عن الحقائق ، وتعرض الغائب فى معرض الحاضر، كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾

(البقرة: ٢٧٥)

٣- وتجمع الأمثال المعنى الرائع فى عبارة موجزة كالأمثال الكامنة والأمثال المرسلة فى الآيات الآنفة الذكر .

٤- ويضرب المثل للترغيب فى الممثل حيث يكون الممثل به مما ترغب فيه النفوس ، كما ضرب الله مثلا لحال المنفق فى سبيل الله حيث يعود عليه الإنفاق

---

(١) بلاغة القرآن ص ٣٣ .

بخير كثير فقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة : ٢٦١) .

٥- ويضرب المثل للتنفير حيث يكون الممثل به مما تكرهه النفوس ، كقوله تعالى فى النهى عن الغيبة ﴿وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ (الحجرات : ١٢) .

٦- ويضرب المثل لمدح الممثل كقوله تعالى فى الصحابة : ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ (الفتح : ٢٩) . وكذلك حال الصحابة فإنهم كانوا فى بدء الأمر قليلا ، ثم أخذوا فى النمو حتى استحكم أمرهم . وامتلأت القلوب إعجابا بعظمتهم.

٧- ويضرب المثل حيث يكون للممثل به صفة يستقبحها الناس ، كما يضرب الله مثلا لحال من آتاه الله كتابه ، فتنكب الطريق عن العمل به ، وانحط فى أهوائه، فقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ (الأعراف : ١٧٤ - ١٧٥) .

٨- والأمثال أوقع فى النفس ، وأبلغ فى الوعظ ، وأقوى فى الزجر ، وأقوم فى الإقناع ، وقد أكثر الله تعالى الأمثال فى القرآن للتذكرة والعبرة ، قال تعالى: « وضربنا لكم الأمثال » وقد ضربها النبى صلى الله عليه وسلم فى حديثه ، واستعان بها الداعون إلى الله فى كل عصر لنصرة الحق وإقامة الحجة، ويستعين

بها المربون، ويتخذون من وسائل الإيضاح والتشويق ، ووسائل التربية فى الترغيب أو التنفير ، فى المدح أو الذم [1] .

من أمثال العرب :

استعمل العرب المثل فى أشعارهم ونثرهم ، كما ورد فى السنة النبوية طائفة من الأمثال ، وعقد لها أبو عيسى الترمذى بابا فى جامعه أورد فيه أربعين حديثا ، وقال القاضى أبو بكر بن العربى : لم أر من أهل الحديث من صنف فأفرد للأمثال بابا غير أبى عيسى ، ولله دره لقد فتح بابا ، وبنى قصرا أو دارا ولكنه اختط خطا صغيرا فنحن نقنع به ونشكره عليه .

وسأورد هنا طائفة من الأمثلة العربية السائرة وهى فى مجموعها تدل على مفهوم خاص للطبيعة العربية فى جاهليتها وإسلامها .

* * *

---

(١) مناع القطان مباحث فى علوم القرآن .

المثل	موضوعه
إن البغاث بأرضنا يستنسر.	يضرب للضعيف يصير قويا.
إن العوان لا تعلم الخمرة.	يضرب للخبير المجرب.
إن الجبان حتفه من فوقه.	يضرب لمن يخاف من محذور فيصيبه.
إنما أكلت يوما أكل الثور الأبيض .	الاتعاظ بما حدث للغير.
إذا تخاصم اللصان ظهر المسروق .	الاختلاف يظهر الشىء الضائع.
رب أخ لك لم تلده أمك.	الأخوة الصادقة.
أن ترد الماء بماء أكيس.	الاستعداد للأمر وإحكامه.
ما يوم حليمة بسر.	اشتهار الأمر.
نفس عصام سودت عصاما.	الاعتماد على النفس.
زر غبا تزدد حبا.	تقليل الزيارة.
لعل له عذرا وأنت تلوم.	التماس الأعذار للناس.
لا ناقتى فى هذا ولا جملى.	الأمر ليس فيه مصلحة.
لو ترك القطا ليلا لنام.	الأمر الخفى يظهر ما يدل عليه .
الصيف ضيعت اللبن.	الأمر يطلب بعد فواته.
بلغ السيل الزبى.	الأمور تتجاوز فى الشدة.
إذا أردت أن تطاع فسل ما يستطاع .	الأمر بما فى الطاقة والوسع.
قلب له ظهر المجن.	تبدل الأحوال.
لكل ساقطة لاقطة.	التحرز فى الكلام.
من أكل على مائدتين اختنق.	التذبذب على الموائد.
يقدم رجلا ويؤخر أخرى.	التردد فى الأمر.

موضوعه	المثل
تعصب المرء لأهله.	من يمدح العروس إلا أهلها.
الجزاء من جنس العمل.	كما تدين تدان.
الجد والاجتهاد.	من جد وجد ومن زرع حصد .
الحاجة سبب الاختراع.	الحاجة تفتق الحيلة.
الراحة بعد التعب.	عند الصباح يحمد القوم السرى .
الرجل العارف بوجه المنفعة.	يعلم من أين تؤكل الكتف.
رجوع الفرع إلى أصله.	كل إناء بالذى فيه يرشح.
رفض الكريم العمل الخسيس.	تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها.
الرفق والتوسط فى الأعمال (حديث شريف) .	إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى.
عاقبة الظلم .	الظلم مرتعه وخيم.
العلم ببواطن الأمور.	عند جهينة الخبر اليقين.
قد يكون الهلاك فى الشىء المحبوب.	إن لله جنودا منها العسل.
كل إنسان أكتم لسره.	صدرك أوسع لسرك.
المزاحمة فى معترك الحياة.	ألق بدلوك فى الدلاء.
مطابقة المقال للحال[1].	لكل مقام مقال .

(١) انظر : من أمثال العرب - تأليف محمد عبد الغنى حسن .

وتلاحظ على الأمثال العربية أنها تجمع صفات أربعة :

١- إيجاز اللفظ .

٢- إصابة المعنى .

٣- حسن التشبيه .

٤- جودة الكناية .

ولكن المثل فى القرآن لا يخضع لهذه الشروط لأن أمثله القرآن أنواع منها الأمثال المصرحة ، والأمثال الكامنة والأمثال المرسلة، وقد اعترض بعض الكتاب المحدثين على ما ذهب إليه السيوطى فى الإتقان حيث عد السيوطى أحد عشر مثالا من الأمثال الكامنة فى القرآن مثل ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾ (النساء : ١٢٣) فهى فى معنى قولهم « كما تدين تدان » .

وأيضا قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ (يونس: ٢٩) فهى فى معنى «من جهل شيئا عاداه » .

قال هذا الباحث : « ويبدو لنا أن ذلك تنطع وتكلف لا حد لهما .. إن الصيغة التى تشترط فى المثل لا تتوافر فيها ولذلك فنحن نرفض ما جاء به السيوطى ومن تبعه ولا نعتبر الأمثال الكامنة شيئا يستحق أن يدرج فى بحث الأمثال »[(١)] .

ونحن لا نوافق هذا الباحث على رأيه ونرى أن الأمثال القرآنية لا تخضع لما يشترطه الدارسون العرب فى المثل السائر من إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى وحسن التشبيه وجودة الكناية ، لأن للقرآن أسلوبا يتميز به على سائر الكلام، فأحيانا يوافق الشروط المطلوبة فى المثل وأحيانا يخرج عليها ولكنه فى كلتا الحالتين يظل مثلا من أمثلة القرآن المتعددة الأنواع كما أسلفنا .

* * *

---

(١) دكتور بكرى شيخ أمين - التعبير الفنى فى القرآن ص ٢٣٩ .

القسم فى القرآن

ورد القسم فى القرآن بالحق سبحانه فى سبعة مواضع ، وباقى أنواع القسم كلها بمخلوقات الله ، والملاحظة أن القرآن قد أقسم بلفظ الرب فى المواضع السبعة التى ورد فيها القسم بالله سبحانه . مثل قوله تعالى:

﴿فوربك لنسألنهم أجمعين﴾ (الحجر : ٩٣) .

﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ (الذاريات : ٢٣) .

﴿فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ (المعارج : ٤٠) [(١)] .

ومن قسم القرآن بمخلوقات الله قوله :

﴿وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ (الضحى : ١-٢)

وقوله سبحانه: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ (التين: ١) .

وقوله عز شأنه : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ (الواقعة: ٧٥ - ٧٦)

تمتاز اللغة العربية بدقة التعبير واختلاف الأساليب ، وبتنوع الأغراض ، وللمخاطب حالات مختلفة ، هى المسماة فى المعانى بأضرب الخبر الثلاثة :

الابتدائى والطلبى والإنكارى .

---

(١) عد الزركشى فى البرهان بقية المواضع التى أقسم الله فيها بنفسه (ج ٣ ص ٤٠) وهى قوله تعالى (قل إى وربى إنه لحق) سورة يونس ٥٣، وقوله سبحانه (قل بلى وربى لتبعثن) سورة التغابن: ٧. وقوله (فوربك لنحشرنهم والشياطين) سورة مريم : ٦٨، وقوله (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم) سورة النساء : ٦٥ .

فقد يكون المخاطب خالى الذهن من الحكم فيلقى إليه الكلام غفلا من التأكيد ويسمى هذا الضرب ابتدائيا .

وقد يكون مترددا فى ثبوت الحكم وعدمه ، فيحسن تقوية الحكم له بمؤكد ليزيل تردده، ويسمى هذا الضرب طلبيا .

وقد يكون منكرا للحكم ، فيجب أن يؤكد له الكلام بقدر إنكاره قوة وضعفا ، ويسمى هذا الضرب إنكارا .

والقسم من المؤكدات المشهورة التى تمكن الشىء فى النفس وتقويه .

وقد نزل القرآن الكريم للناس كافة ، وخاطب جميع الناس على السواء « والمعروف أن الاستعداد لتقبل الحق عند الناس مختلف ، فالنفس الصافية تستجيب للهدى وتفتح قلبها لإشعاعه ويكفيها فى الانصياع إليه اللمحة والإشارة ، أما النفس التى ملأها الشك والتردد فهى فى حاجة إلى مطارق الزجر وتأكيد الخبر وتقرير الحكم فى أكمل صورة» (١) .

فالقسم فى كلام الله تعالى لتأكيد الحكم وتقوية الحجة وسوق الأدلة والبراهين على تقرير المعنى وتوضيحه ، والقسم واليمين واحد، وسمى يمينا لأن العرب كان أحدهم يأخذ بيمين صاحبه عند التحالف .

وأسلوب القسم ثلاثة أمور :

١- أداة القسم .　　٢- المقسم به .　　٣- المقسم عليه .

أولا : أداة القسم :

الصيغة الأصلية للقسم هى « أقسم» أو « أحلف» مع تعدى الفعل بالباء إلى المقسم به، كقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ (النحل:٣٨)

---

(١) مناع القطان : مباحث فى علوم القرآن ص ٢٤٨ بتصرف .

ولما كان فعل القسم يكثر فى الكلام اختصر فصار فعل القسم يحذف ويكتفى بالباء ثم عوض عن الباء بالواو فى الأسماء الظاهرة كقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ (الليل : ١)، ﴿وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾ (الأنبياء : ٥٧) .

وهذا قليل أما الواو فكثيرة .

ثانيا : المقسم به :

أما المقسم به فهو أمر جليل دائما، ولله وحده أن يقسم بما شاء أما العباد فليس لهم أن يقسموا بغير الله ، روى عن عمر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من حلف بغير الله فقد كفر ، أو أشرك» ، والمعنى: من حلف بغير الله معظما له تعظيم الله فقد كفر أو أشرك . وقد أقسم الله تعالى فى القرآن بذاته وبمخلوقاته .

قال تعالى: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ (المعارج: ٤٠) .

ومما أقسم الله به مخلوقاته كالشمس والقمر والليل والنهار والفجر والنجوم والضحى والتين والزيتون وطور سينين وغيرها .

قال تعالى : ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا﴾ (الشمس : ١) .

وقال تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ (الفجر : ١-٣) .

ثالثا : المقسم عليه :

أما المقسم عليه فيراد توكيده وتحقيقه ولاسيما إذا كان من الأمور الغائبة والخفية إذا أقسم على ثبوتها ، مثل ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (النجم : ١-٤) .

وجواب القسم يذكر تارة وهو الغالب - وتارة يحذف مثل قوله تعالى: ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ (القيامة : ١-٢)

فجواب القسم محذوف دل عليه قوله بعد : ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ (القيامة : ٣) ، والتقدير لتبعثن ولتحاسبن .

معنى لا أقسم :

أدخلت (لا) النافية على فعل القسم فى بعض المواضع كقوله تعالى: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ (سورة الواقعة : ٧٥ - ٧٦) وقوله سبحانه : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴾ (الانشقاق: ١٦- ١٨) وقوله عز شأنه: ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ . (الحاقة : ٣٨ - ٤٠) وقوله سبحانه : ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ (القيامة: ١-٢)

وقد ذكر المفسرون فيها عدة آراء .

الأول : أن « لا » نافية لمحذوف يناسب المقام، والتقدير - مثلا - : لا صحة لما تزعمون من إنكار البعث والجزاء، ثم استأنف فقال: (أقسم بيوم القيامة) و(بالنفس اللوامة) أنكم ستبعثون .

الثانى : أن « لا » زائدة وجواب القسم فى الآية المذكورة محذوف دل عليه قوله بعد : أيحسب ... إلخ والتقدير : لتبعثن ولتحاسبن .

الثالث : قول أبى مسلم أن « لا » ههنا لنفى القسم كأنه قال لا أقسم عليك بذلك اليوم وتلك النفس ، ولكننى أسألك غير مقسم: أتحسب أنا لا نجمع عظامك إذا تفرقت بالموت ؟ فإن كنت تحسب ذلك فاعلم أنا قادرون على أن نفعل ذلك ، أ. هـ . فظاهر الكلام نفى القسم لكن المراد بهذا النفى التوصل إلى التأكيد وكأنه يقول: إن الأمر بين فلا أحتاج إلى أن أقسم عليه، وهذا القول يؤكد الخبر أشد تأكيد [١] .

---

(١) دكتور عبد الله شحاته : فى نور القرآن ص ١٦٨ مطبعة الهيئة العامة للكتاب .

المقسم عليه فى القرآن :

أقسم الله على أصول الإيمان التى يجب على الخلق معرفتها، فتارة يقسم على صدق التوحيد كقوله ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا * إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ (الصافات : ١-٤) ، وتارة يقسم على أن القرآن حق كقوله تعالى : ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ (الواقعة : ٧٥ - ٧٧) وتارة على أن الرسول حق كقوله : ﴿يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (يس:١-٣).

وتارة يقسم على الجزاء والوعد والوعيد كقوله : ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا * فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا * فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا * فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ (الذاريات : ١-٤)

وتارة يقسم على حال الإنسان كقوله : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ (الليل : ١-٤)

والمتتبع للقسم فى القرآن يستخلص الفنون الكثيرة [١] .

المقسم به فى القرآن :

الملاحظ أن الله عز وجل أكثر من القسم فى الآيات المكية لأن أهل مكة أنكروا الوحى وقاوموا الرسالة فكان مقتضى الحال يتطلب هذا اللون من الأسلوب البليغ .

وقد أقسم الله عز وجل بنفسه فى القرآن فى سبعة مواضع مثل قوله سبحانه: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعملون﴾ (الحجر : ٩٢، ٩٣) . وقوله سبحانه : ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ (التغابن : ٧) .

---

(١) انظر الإتقان للسيوطى ٢/ ١٣٥ فقد أتى بشواهد متعددة للأقسام المذكورة .

القسم بالمخلوقات :

أقسم القرآن بكثير من مخلوقات الله وبالملائكة وبالنبى وبمظاهر الكون كالشفق، والليل وما وسق ، والقمر إذا اتسق ، وبالعصر ، وبالضحى ، والشمس ، والبلد ، ووالد وما ولد، وبالفجر والتين ...

قال الإمام بدر الدين الزركشى فى كتابه البرهان فى علوم القرآن .

فإن قيل : كيف أقسم الله بمخلوقاته وقد ورد النهى علينا ألا نقسم بمخلوق؟

قيل فيه ثلاثة أجوبة :

أحدها : أنه على حذف مضاف أى (ورب الفجر) و (رب التين) وكذلك الباقى.

والثانى : أن العرب كانت تعظم هذه الأشياء وتقسم بها فنزل القرآن على ما يعرفون .

والثالث : أن القسم إنما يكون بما يعظمه المقسم أو يجله وهو فوقه والله تعالى ليس فوقه شىء فأقسم تارة بنفسه وتارة بمصنوعاته لأنها تدل على بارئ وصانع [1] .

وقال ابن أبى الأصبع فى أسرار الفواتح : القسم بالمصنوعات يستلزم القسم بالصانع لأن ذكر المفعول يستلزم ذكر الفاعل إذ يستحيل وجود مفعول بغير فاعل [2] .

وقسمه تعالى بالنبى صلى الله عليه وسلم فى قوله سبحانه: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (الحجر : ٧٢) ، ليعرف الناس عظمة الرسول عند الله ومكانته لديه .

والقسم بالشىء لا يخرج عن وجهين إما لفضيلة أو لمنفعة [3] .

---

(١) البرهان فى علوم القرآن للزركشى ٣/ ٤٢ .

(٢) الإتقان للسيوطى : ٢/ ٣٤ .

(٣) البرهان : ٣/ ٤٢ نقلا عن الأستاذ أبو القاسم القشيرى فى كنز اليواقيت. والإتقان : ٢/ ١٣٤.

فالفضيلة كقوله تعالى : ﴿ وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ (التين : ٢، ٣) .

والمنفعة نحو ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴾ (التين : ١)

وقال بعضهم : أقسم الله تعالى بثلاثة أشياء: بذاته كالآيات السابقة وبفعله نحو ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ وبمفعوله [١] نحو ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ (النجم : ١) . ﴿وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ﴾ (الطور : ١، ٢) .

* * *

رأى جديد فى القسم بالمخلوقات :

رأينا أن العلماء والمفسرين [٢] ذهبوا إلى أن الله أقسم بمخلوقاته لبيان نواحى العظمة فيها وجلال قدرها وعظيم نفعها، ولكن العالم الهندى عبد الرحمن فراهى يذهب مذهبا جديدا خلاصته أن القسم إذا كان بمخلوقات الله فليس لتعظيمها وإنما للاستشهاد بها وسياقها مساق الدليل على صحة الكلام وصدقه ، فهى بمثابة لفت النظر إلى التأمل فى ملكوت السموات والأرض وإرشاد المخاطبين إلى بديع صنعة الله فى الكون . ونحن نلخص رأى الأستاذ عبد الرحمن فراهى بما يلى :

لما [٣] كانت الشهادة بالله أكبر الشهادات كثر القسم بها ، ولذلك ظن من قل التفاته إلى أساليب الكلام وفنون بلاغته أن الاستشهاد لا يكون إلا بالمعبود على جهة التعظيم ، ولكنك إذا سرحت النظر فى كلام العرب وغيرهم وجدت أنهم استشهدوا بأشياء لم يعبدوها ولم يعظموها ، وإنما أرادوا الاستدلال بجعل القسم

---

(١) الإتقان : ٢/ ١٣٤ .

(٢) انظر الفخر الرازى فى تفسيره الكبير مفاتيح الغيب والسيوطى فى الإتقان وابن قيم الجوزية فى كتابه (التبيان فى أقسام القرآن) وغيرهم من المفسرين عند تفسير (والتين والزيتون) و (لا أقسم بيوم القيامة) ..... وغيرها .

(٣) استفدت فى هذا الملخص من جهد الدكتور بكرى شيخ أمين فى كتاب التعبير الفنى فى القرآن ص ٢٣٩ وما بعدها .

بها شاهدا على أقوالهم . وضرب المؤلف على ذلك عددا من الأمثلة من الشعر العربى كقول الراعى:

إن السماء وإن الريح شاهدة والأرض تشهد والأيام والبلد
لقد جزيت بنى بدر ببغيتها يوم الهباءة يوما ما له قود

وكقول عنترة :

والخيل تعلم والفوارس أننى فرقت جمعهم بضربة فيصل

فقد رأيت فى هذه الأمثلة أنهم استشهدوا بالسماء والريح والأرض والأيام والبلد ، والخيل والفوارس ، وليس المراد إلا أنك لو سألتهن ونطقن لشهدن على دعواهم .

ومن هذا الأسلوب ما قاله الفضل بن عيسى بن أبان فى وعظه (سل الأرض فقل: من شق أنهارك ، وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك ؟ فإن لم تجبك حوارا ، أجابتك اعتبارا) .

ويتساوى التعبير بكلمة « يشهد » أو « يعلم» أو ما يشبههما بالألفاظ الصريحة الدالة على القسم كواو القسم ، ولعمر ، أو ما يماثلها . ومثل ذلك قسم الهجرس حين قتل جساسا قاتل أبيه فقال: « وفرسى وأذنيه ، ورمحى ونصليه ، وسيفى وغراريه ، لا يترك الرجل قاتل أبيه وهو ينظر إليه » . فقد أقسم بهذه الأشياء استدلالا بها ، كأنه قال : فكيف أترك قاتل أبى وأنا قادر على الكر والفر والطعن والضرب . فذكر فى قسمه ما يصدق دعواه ويستدل به على وجوب ما أراد به ، كما مثل الفارابى بشواهد من هذا القبيل من شعر طرفة بن العبد ، والحصين بن حمام فى رثاء نعيم بن الحارث خليله ، واستشهد بكلام ديماستنس أعظم بلغاء اليونان ، ويوليوس الشاعر اليونانى على أن هؤلاء الناس من عرب وغير عرب يقسمون بأشياء عادية لا لغاية تعظيمها ، أو لكونها ، مقدسة ، بل لتكون شاهدا على ما يقولون ودليلا على ما يتكلمون .

ثم جاء الكاتب إلى أقسام القرآن فبين أنها لا تكون للتعظيم إلا إذا كان المقسم به هو الله تعالى وشعائره ، وما عدا ذلك فهو لمحض الاستدلال .

وفى فصل طويل راح يأتى بالبرهان تلو البرهان على أن بعض ما أقسم به الله ليس لتعظيمه وإنما لمحض الاستدلال به ومن جملة ما قاله :

« ما تهتدى إليه من حمل النظير على النظير ، وتفسير الآيات بعضها ببعض فإنك ترى القرآن يذكر الأمور الدالة على أسلوب الآية والعبرة ، وكلها إشهاد – أى إقسام – لمن يتفكر فيها ، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة : ١٦٤). ومثل هذا كثير . فيذكر الله آياته ويحتج بها . ثم ترى هذه الآيات استشهد بها القرآن على أسلوب القسم ، فأقسم بالسماء والأرض ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والفجر والضحى ، و الرياح والسحاب ، والجبال ، والبحر ، والإنسان ، والوالد والولد والذكر والأنثى ، والشفع والوتر ، فكونها آيات دالة له نظير ، ولا سبيل إلى إرادة تعظيمها .

ومن الأدلة قوله : إن العاقل لا يتوهم أن الله تعالى يضع مخلوقاته موضع المعبود المقدس ، ولا سيما الذى ليس له كبير تقدس ، كالخيل العادية ، والريح الذارية .

وقد صرح القرآن بكون هاتيك المقسم بها من السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم وغيرها مسخرة مذللة طائعة . ففى نفس القسم بها دلالة على أن المراد بها محض القسم بها .

ومن الأدلة قوله : إن ما يتبع المقسم به من التنبيه على كون المقسم به دليلا للعقلاء قوله تعالى: ﴿ وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِي

ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ (الفجر : ١-٥) . هذه الجملة الأخيرة « هل فى ذلك قسم لذى حجر » تشبه ما يرد فى القرآن بعد ذكر الدلائل ، كقوله تعالى فى سورة النحل﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (النحل : ١٢) ، أو كما جاء فى سورة طه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَىٰ﴾ (آية : ٥٤) ، أو كما جاء فى سورة آل عمران ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ (آية : ١٣) وهذا كثير . فهكذا التنبيه بعد القسم فى سورة الواقعة حيث قال : ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ (الواقعة : ٧٥ ، ٧٦) أى أن فيها دلالة عظيمة وشهادة كبيرة ، فصرح بعظمة القسم لا بعظمة المقسم به [١] ، وفرق كبير بينهما .

* * *

---

(١) التبيان فى أقسام القرآن ص ٣٩ .

الفصل الخامس

الإسرائيليات

١- تمهيد .

٢- اليهود والنصارى .

٣- التوراة .

٤- قصص الأنبياء بين القرآن والتوراة .

٥- أقسام الإسرائيليات .

٦- نماذج من الإسرائيليات .

٧- رأى الحافظ ابن كثير فى الإسرائيليات .

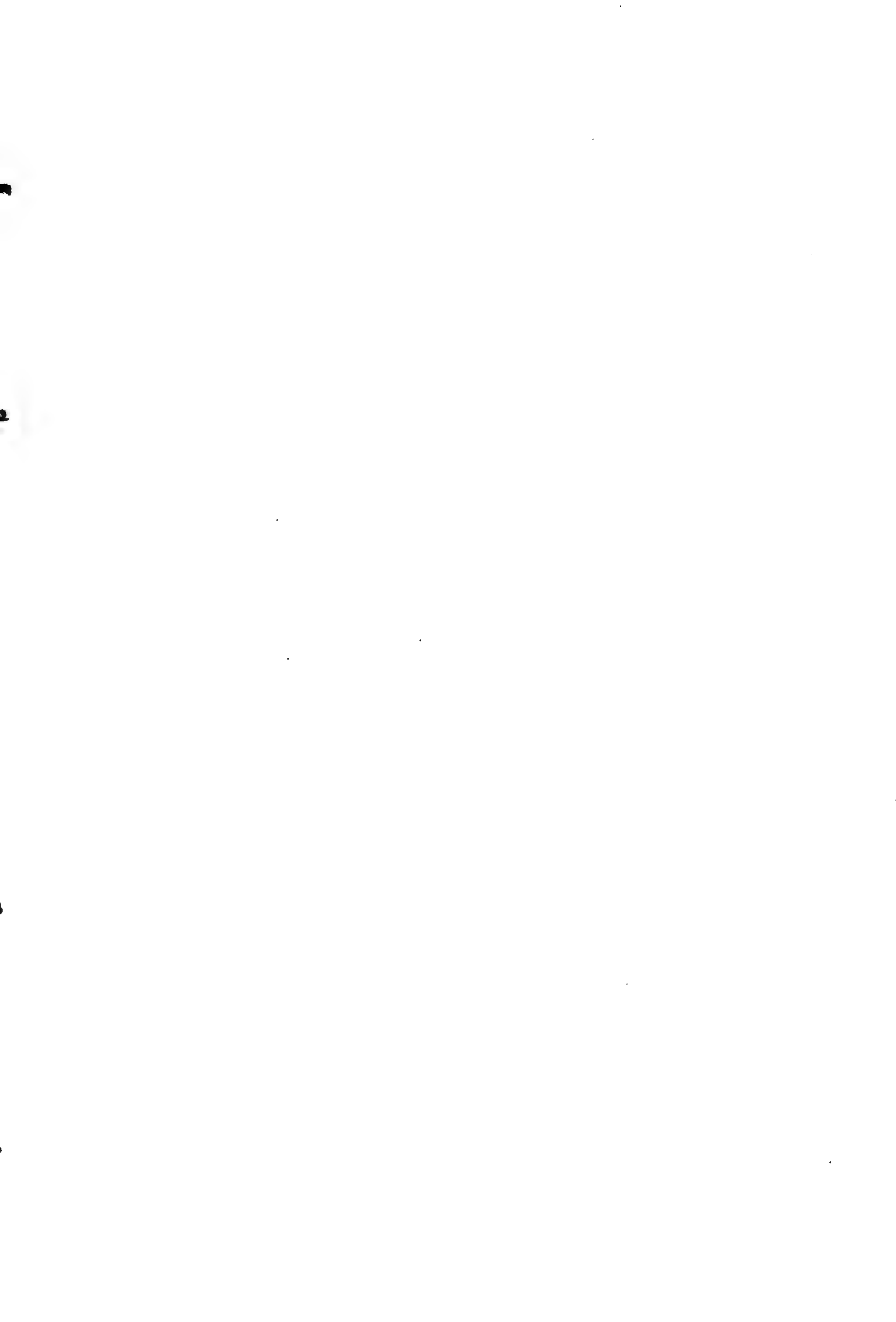
٨- الإسرائيليات فى كتب التفسير .

٩- مسئولية المفسرين .

١٠- اعتذار الطوفى عن المفسرين .

١١- تفنيد فرية .

١٢- تأثير الإسلام فى اليهودية .



-١-

تمهيد

نشأ التفسير بالمأثور مقصورا على أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقد أنزل الله عليه القرآن عربيا مبينا ، وكان الصحابة يقرأون القرآن ، فيتسابقون إلى العمل بأحكامه ، وامتثال أوامره .

وربما أشكل على أحدهم معنى من المعانى أو آية من الآيات ، فيسأل النبى صلى الله عليه وسلم ، ويجيبه النبى فى بساطة ويسر .

ومن ذلك تفسيره عليه الصلاة والسلام الظلم بالشرك ، وتفسيره القوة بالرمى ، وتفسيره المغضوب عليهم، باليهود ، والضالين بالنصارى .

وكان التفسير مقصورا على ما أشكل معناه أو غمض لفظه ، فقد كانت حياة النبى تطبيقا عمليا لأوامر القرآن ونواهيه ، حتى قالت عائشة رضى الله عنها : (كان خلقه القرآن) .

(ولعل الروعة الدينية لهذا العهد ، والمستوى العقلى لأهله وتحدد حاجات حياتهم العملية ، كل أولئك جعلهم لا يقولون فى تفسير القرآن إلا بما روى عن صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام توقيفا) [١] .

(وقد جمعت كتب الصحاح والسنن مقادير مختلفة من التفسير بالمأثور ، حتى لترى فى صحيح البخارى : كتابين هما : كتاب تفسير القرآن ، وكتاب فضائل القرآن ، وهما يشغلان حيزا واضحا من الكتاب ربما كان نحو الثمن منه) [٢] .

ولما انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، وبدأ عصر الصحابة ، زادت حاجة الناس إلى التفسير ، نظرا لاتساع الرقعة الإسلامية ،

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية مادة تفسير : ٥/ ٣٤٩ .

(٢) المرجع السابق .

ولظهور أحداث وقضايا لم تكن موجودة فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم ، ولدخول كثيرمن الأعاجم فى الإسلام ، مع ضعف إلمامهم بالعربية ، وبعدهم عن البيئة التى نزل فيها القرآن .

وفى هذا العصر - أعنى عصر الصحابة - بدأ دخول الإسرائيليات فى التفسير ، وساعد على ذلك دخول كثير من اليهود والنصارى فى الإسلام، ومعهم ثقافتهم وأفكارهم، ومعلوماتهم الدينية ، حول كثير من قصص الأنبياء السابقين .

فلما كان عصر التابعين زادت الإسرائيليات ، وزاد الوضع فى التفسير .

-٢-

اليهود والنصارى

كان اليهود فى ماضيهم الطويل قد شرقوا راحلين من مصر ، ومعهم آثار حياتهم فيما معهم ، ثم أبعدوا مشرقين إلى بابل فى أسرهم ، ثم عادوا إلى موطنهم وقد حملوا ما حملوا .

ووفد على البيئة العربية الإسلامية من كل هذا المزيج وفد، إلى جانب ما بعث إليها من الديانات الأخرى التى دخلت تلك الجزيرة ، وألقت إلى أهلها ما ألقت من خبر أو قصص دينى ، وكل أولئك قد تردد على آذان قارئى القرآن ومتفهميه ، قبل أن يخرجوا إلى ما حول جزيرتهم شرقا وغربا فاتحين .

ثم ملأ آذانهم حين خالطوا أصحاب تلك البلاد التى نزلوها وعاشوا بها ، وإن كان الذى اشتهر من ذلك هو اليهودى ، لكثرة أهله ، وظهور أمرهم فاشتهرت تلك التزايدات التى اتصلت بمرويات التفسير النقلى باسم الإسرائيليات [١] .

وساعدت سماحة الإسلام مع معتنقى الأديان الأخرى على انتشار اليهود والنصارى فى المملكة الإسلامية .

وكان أغلب الماليين فى الشام يهودا ، وأغلب أطباء القصور فى بغداد نصارى .

---

(١) أمين الخولى ، دائرة المعارف الإسلامية ، مادة تفسير : ٥/ ٢٥١ .

واشتهار اليهود باحترافهم حرفا خاصة ، كالصيرفة ، ودباغة الجلود والصباغة [1] ، « وكان عدد اليهود فى المملكة الإسلامية غير العرب نحو ثلاثمائة ألف » فى سنة ٥٦٠ هـ [2] .

وكان اليهود منتشرين على نهر دجلة والفرات ، وفى جزيرة ابن عمر والموصل ، وعكيرة وواسط ، وفى بغداد والحلة ، والكوفة والبصرة ، وفى كثير من بلاد فارس [3] .

-٣-
التوراة

وأهم منبع للثقافة اليهودية هو التوراة ، وقد ذكرت فى القرآن الكريم ، ووصفت بأنها كتاب من كتب الله المنزلة : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ (المائدة:٤٤) ونص القرآن على بعض أحكام وردت فى التوراة : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ (المائدة:٤٥) .

وأشير فى الأحاديث كذلك إلى التوراة وبعض أحكامها .

جاء فى تفسير مقاتل بن سليمان :

(أن نفرا من اليهود دعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاهم فى بيت المدراس ، فقالوا يا أبا القاسم إن رجلا منا زنا بامرأة فاحكم ، فوضعوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وسادة فجلس عليها ، ثم قال: ائتونى بالتوراة فأتى بها ، فنزع الوسادة من تحته ووضع التوراة عليها ، ثم قال: آمنت بك وبمن أنزلك ثم قال: ائتونى بأعلمكم فأتى بشاب ثم ذكر قصة الرجم) [4] .

---

(١) الجاحظ : الرد على النصارى ص ١٧ .
(٢) أحمد أمين : ضحى الإسلام ١/ ٣٢٥ ، ونسب هذا القول إلى رحالة يهودى يدعى بنيامين .
(٣) المرجع السابق .
(٤) تفسير مقاتل مخطوطة أحمد الثالث ١/ ١٠٠ انظر تحقيقى له مجلد ١/ ٣١٦ - ٣١٨ . وانظر كذلك البخارى باب التوحيد وباب الاعتصام وباب التفسير ، وقد رواه أبو داود عن ابن عمر .

وكلمة التوراة يستعملها المسلمون كثيرا للدلالة على كل الكتب المقدسة عند اليهود ، فتشمل الزبور وغيره كما يستعملها اليهود أحيانا بهذا الإطلاق .

وكان لليهود بجانب ذلك سنن ونصائح وشروح لم تنقل عن موسى عليه السلام كتابة ، وإنما تداول الناس نقلها شفاها ، ونمت على تعاقب الأجيال ، ثم دونت ، وهى المسماة بالتلمود . والتلمود مختلف فيه فيما بينهم ، فمنهم من يقبله وهم طائفة الربانيين ، ومنهم من لا يقبله وهم طائفة القرائين .

فأما التوراة بالمعنى الدقيق فخمسة أسفار : سفر التكوين (١) ، وسفر الخروج (٢) ، وسفر اللاويين – أى الأحبار (٣) – وسفر العدد (٤) ، وسفر التثنية (٥) .

وفى العهد القديم غير التوراة : سفر يوشع . وهو فى استيلاء بنى إسرائيل على فلسطين . ثم سفر القضاة أى الحكام ، ثم أسفار الملوك الأربعة :

الأول فى أخبار شمويل أو سمويل وشاول أو طالوت ، والثانى فى ذكر داود ، والثالث والرابع فى سليمان بن داود ، ومن ملك بنى إسرائيل من بعده .

وأما التلمود فمجموعة من المناقشات الدينية الأولى ، مع شروح لرجال الدين من الأجيال المتعاقبة . يسجل أفكار اليهود فى حياتهم وتقاليدهم (٦) فى نحو ألفى عام ، ويمزج مزجا تاما نواحى الشعب الخلقية بنواحيهم الدينية .

وقد تسربت ثقافة اليهود إلى العرب قبل الإسلام وبعده .

---

(١) وفيه خلق العالم ، وقصة آدم وحواء وأولادهما ونوح والطوفان وتبلبل الألسنة ثم قصة إبراهيم وابنه إسحاق وابنيه يعقوب وعيصو وقصة يوسف .

(٢) وفيه خروج اليهود من مصر وقصة موسى من ولادته وبعثته وفرعون وصعود موسى الجبل وإيتاء الله إياه الألواح .

(٣) وفيه حكم القربان والطهارة .

(٤) وفيه قصة البقرة وأخبار بنى إسرائيل وبعض الشرائع .

(٥) أى إعادة الناموس .

(٦) أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ١/ ٣٢٩ ط ٧ .

جاء فى الحديث عن ابن عباس : (كان هذا الحى - من الأنصار - وهم أهل وثن ، مع هذا الحى من اليهود وهم أهل كتاب ، فكانوا يرون لهم فضلا عليهم فى العلم ، وكانوا يقتدون بكثير من فعلهم) [1] .

وفى الحديث عن أبى هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها لأهل الإسلام بالعربية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا، وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد» [2] .

- ٤ -

قصص الأنبياء بين القرآن والتوراة

عرض القرآن الكريم لكثير من قصص الأنبياء السابقين ، مقتصرا على مواضع العظة والعبرة ، مكتفيا من القصة بما يحقق الهداية ، ويوحى بمتابعة الحق والإيمان .

ولذا لم يتعرض للتفصيل ، فلم يذكر تاريخ الوقائع ، ولا أسماء البلدان التى حصلت فيها ، ولا أسماء الأشخاص الذين جرت على أيديهم بعض الحوادث ، وإنما تخير ما يمس جوهر الموضوع ، وما يحرك العقول للتفكير ، وينبه القلوب إلى الخير ، وينفرها من عاقبة الشر .

ولنضرب لهذا مثلا قصة آدم عليه السلام ، فقد ورد ذكرها فى القرآن الكريم [3] ، كما ورد ذكرها فى التوراة . بيد أن القرآن لم يتعرض لمكان الجنة ، ولا

---

(١) أخرجه أبو داود ، وجاء فى تفسير مقاتل لقوله تعالى : « نساؤكم حرث لكم» كما جاء فى تفسير ابن كثير لهذه الآية ، وجاء فى أسباب نزول القرآن للواحدى والسيوطى .

(٢) البخارى فى كتاب التفسير : ٨/ ١٢٠ من فتح البارى .

(٣) انظر الآيات التى وردت فى القرآن فى قصة آدم، ومنها آية ٣٤ فى سورة البقرة ، وآية ٣٣ فى آل عمران ، وآية ٢٠ وما بعدها فى الأعراف ، وآية ٦١ فى الإسراء ، والآيات ١١٥ - ١٢٢ فى طه ، حيث يقول سبحانه ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ * فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ =

لنوع الشجرة التى نهى آدم عن الأكل منها ، ولا لبيان الحيوان الذى تقمصه الشيطان ليزلهما ، ولا ما كان من تفصيل الحوار بين الله تعالى وآدم ، ولا للبقعة التى طرد إليها آدم بعد خروجه من الجنة .

ولكن التوراة تعرضت لكل ذلك وأكثر منه ، فأبانت أن الجنة فى عدن شرقا ، وأن الشجرة التى نهيا عنها كانت فى وسط الجنة ، وأنها شجرة الحياة . وذكرت ما انتقم الله به من الحية التى أغوتهما بأن جعلها تسعى على بطنها وتأكل التراب ، وانتقم من حواء بتعبها هى ونسلها فى حملها .. إلخ [١] .

وقد نقل المفسرون قصة آدم وإبليس فى تفاسيرهم [٢] . كما ذكروا كثيرا من قصص الأنبياء وغيرها . ويهيأ للقارئ أن هذه الإسرائيليات التى لا نعرف صدقها من كذبها بيان لمعنى قول الله سبحانه، وتفصيل لما أجمل فيه ، وحاشا لله ولكتابه من ذلك .

« إن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أذن بالتحدث عنهم - أمرنا ألا نصدقهم ولا نكذبهم . فأى تصديق لرواياتهم وأقاويلهم أقوى من أن نقرنها بكتاب الله ونضعها منه موضع التفسير أو البيان .. اللهم غفرا » [٣] .

* * *

= فَتَشْقَىٰ * إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ * فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ * فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ (طه: ١١٥ - ١٢٢) .

(١) العهد القديم : الإصحاح الأول من سفر التكوين ص ٤ - ٥ .

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان . مخطوطة أحمد الثالث ١/٨ ب ، ١٩ ، وانظر تحقيقى له جزء ١ ص ١٨ - ٢١ .

(٣) أحمد محمد شاكر : مقدمة كتاب عمدة التفسير لابن كثير ص ١٧ .

- ٥ -

أقسام الإسرائيليات

تنقسم الأخبار الإسرائيلية إلى أقسام ثلاثة :

القسم الأول : ما يعلم صحته بأن نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نقلا صحيحا ، أو كان له من الشرع شاهد يؤيده . ومنه تعيين اسم صاحب موسى عليه السلام بأنه الخضر ، فقد جاء هذا الاسم صريحا فى حديث البخارى [١] . وهذا القسم بنوعيه صحيح مقبول .

القسم الثانى : ما يعلم كذبه بأن يناقض ما عرفناه من شرعنا ، أو يكون مخالفا لما يقرره العقل ، وهذا القسم لا يصح قبوله ولا روايته .

القسم الثالث : هو المسكوت عنه، فلا هو من قبيل الأول، ولا هو من قبيل الثانى ، وهذا القسم متوقف فيه فلا نصدقه ولا نكذبه .

وذهب ابن كثير إلى جواز رواية هذا القسم [٢]، ولم يوافقه فى ذلك المحقق أحمد شاكر ، لأن رواية هذا القسم جوار تفسير القرآن إقرار له وتصديق به ، قال ابن كثير « ... ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتضاد فإنها ثلاثة أقسام : أحدها ما علمنا صحته مما بأيدينا مما نشهد له بالصدق فذلك صحيح ، والثانى ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه الثالث : ما هو مسكوت عنه، لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل ، فلا نؤمن به ولا نكذبه ، وتجوز حكايته لما تقدم .

وهو حديث : « بلغوا عنى ولو آية، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » .

---

(١) باب التفسير : ٨/ ٢٩٧ من فتح البارى .

(٢) وقد تابعه فى هذا الشيخ محمد حسين الذهبى فى كتابه التفسير والمفسرون ص ١٧٩ ، ١٨٠، ونقل كلام ابن كثير بدون أن يعزوه إليه .

وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر دينى ، ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب فى مثل هذا كثيرا ، ويختلف المفسرون عادة بسبب ذلك ، كما يذكرون فى مثل أسماء أصحاب الكهف ولون كلبهم وعدتهم ، وعصا موسى من أى شجر كانت ؟ وأسماء الطيور التى أحياها إبراهيم ، وتعيين البعض الذى ضرب القتيل من البقرة ، ونوع الشجرة التى كلم الله منها موسى ، إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى فى القرآن ، حيث لا فائدة منه تعود على المكلفين فى دنياهم أو دينهم ، ولكن الخلاف عنهم جائز ، كما قال تعالى: « سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم» إلى آخر الآية .

ويعلق أحمد شاكر بقوله : إن إباحة التحدث عنهم شىء ، وذكر ذلك فى تفسير القرآن شىء آخر ، إذ إنه يوهم البيان والتفصيل لكتاب الله وحاشا لله ولكتابه من ذلك [١] .

- ٦ -
نماذج من الإسرائيليات

تفسير القرآن غنى عن هذا الركام الهائل من الإسرائيليات التى أولع بها بعض المفسرين وتناقلها عنهم من بعدهم . والإنسان مولع بالقصة عموما وبغرائب القصص بوجه خاص، وذلك هو الطابع الغالب على هذه الإسرائيليات .

وسنكتفى بالإشارة إلى بعضها .

١- لقد خلق الله آدم بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته ، وتكبر إبليس عن السجود لآدم .

وقد نقل المفسرون عن التوراة كثيرا مما يتعلق بخلق آدم وبدء الخليقة من السفر الأول وهو سفر التكوين أو الخلق . وفى هذا السفر قصة آدم وحواء وأولادهما .

---

(١) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ، ص ١٤ .

قال المفسرون فى شرح قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة : ٣٠) .

(خلق آدم من طين أحمر وأسود وأبيض من السبخة والعذبة فمن ثم نسله أبيض وأحمر وأسود ، مؤمن وكافر ، فحسد إبليس تلك الصورة فقال للملائكة الذين هم معه أرأيتم هذا الذى لم تروا شيئا من الخلق على هيئته إن فضل على ماذا تصنعون ؟ قالوا نسمع ونطيع لأمر الله ، وأسر عدو الله فى نفسه لئن فضل آدم عليه لا يطيع وليستفزنه ، فترك آدم طينا أربعين سنة مصورا فجعل إبليس يدخل من دبره ويخرج من فيه ويقول أنا نار وهذا طين أجوف والنار تغلب الطين، لأغلبنه) [١] .

قال الحافظ ابن كثير : هذا سياق غريب وفيه أشياء فيها نظر تطول مناقشتها . وقد أسند السدى هذا التفسير إلى ابن عباس وإلي أناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم - مع أنه مختلط بالإسرائيليات فلعل بعضها مدرج [٢] ليس من كلام الصحابة أو أنهم أخذوه من بعض الكتب المتقدمة، والله أعلم [٣] .

* * *

٢- وفى تفسير قوله تعالى : ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ (الحاقة : ١٧).

ذكروا أن العرش يحمله ثمانية أوعال [٤] ما بين ركبهم وأظلافهم كما بين السماء والأرض .

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان ١ : ٩٧ .

(٢) الإدراج هو أن يزاد فى الحديث شيء من كلام بعض الرواة ، فيتوهم من يسمع الحديث أن هذه الزيادة من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٣) تفسير ابن كثير : ٧٦/١ - ٧٧ .

(٤) الوعل : هو التيس الجبلى .

وفى تفسير آية الكرسى وهى الآية ٢٥٥ من سورة البقرة ، ذكر مقاتل فى تفسيره : أن الكرسى يحمله أربعة أملاك لكل ملك أربعة وجوه ، أقدامهم تحت الصخرة التى تحت الأرض السفلى مسيرة خمسمائة عام وما بين كل أرض مسيرة خمسمائة عام .

وفى هذا الأثر علل قادحة تمنع من قبوله ، وقد ساق الكوثرى سند حديث الأوعال التى تحمل العرش ثم نقل عن أحمد بن يحيى بن العلاء أن (فى سنده كذابا يضع الحديث)[1].

وقال أبو حيان فى تفسير قوله تعالى: « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية» . وذكروا فى صفات هؤلاء أشكالا متكاذبة ضربنا عن ذكرها صفحا .

٣- وورد العديد من الإسرائيليات فى وصف القرية التى مر عليها العزير عند تفسير قوله تعالى : ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ (البقرة : ٢٥٩) .

ويقول الإمام محمد عبده : (ونسكت عن تعيين القرية كما سكت عنها القرآن) . (.. والقرآن لم يعين الزمان ولا المكان ، والعبرة المقصودة لا تتوقف على تعيين هذه الجزئيات ..) .

٤- كما وردت الإسرائيليات فى وصف المائدة التى نزلت على سيدنا عيسى ، عند تفسير الآيات ١١٢ - ١١٤ من سورة المائدة التى بدئت بقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾.

وقد أورد المفسرون تفصيلا للمائدة ومحتوياتها لا سند له من النقل أو العقل .

---

(١) الملطى : التنبيه والرد : ٩٨ ، ومقالات الكوثرى : ٣٠٨ .

٥- وقد استهل القرآن سورة فاطر بقوله سبحانه :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ .

ويقول مقاتل فى تفسيره : (وذلك أن فى الجنة نهرا يقال له نهر الحياة ، يدخله كل يوم جبريل عليه السلام، بعد ثلاث ساعات من النهار يغتسل فيه ، وله جناحان ينشرهما فى ذلك النهر ، وبجناحه سبعون ألف ريشة ، فيسقط من كل ريشة قطرة من ماء فيخلق الله عز وجل منها ملكا يسبح الله تعالى إلى يوم القيامة، فذلك قوله عز وجل « يزيد فى الخلق ما يشاء » . ملكا يسبح الله تعالى إلى يوم القيامة ، فذلك قوله عز وجل : « يزيد فى الخلق ما يشاء» .

وغنى عن البيان أن هذا الكلام من الإسرائيليات التى لا يقبلها العقل ولم يرد بها أثر صحيح، فما أجدر تفسير كتاب الله أن ينقى منها .

٦ - وقد ألصقت بالأنبياء تهم هم أبعد الناس عنها ، فاتهم داود بأنه أعجب بامرأة أوريا فأرسله إلى الحرب حتى قتل ثم تزوج امرأته استنادا إلى قوله تعالى:

﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ .

وهذا غلو واعتساف فى فهم الآية وخروج بالكلمة عن مفهومها اللفظى إلى تعبير مجازى .

ومن عقائد المسلم ثقته بأن الأنبياء قوم حفظ الله ظواهرهم وبواطنهم من التلبس بمنكر منهى عنه ، فكيف يليق أن ننسب إلى داود عدوانه على الأشخاص والأعراض . قال النسفى فى تفسيره : (وما يحكى من أن داود بعث مرة بعد مرة أوريا إلى غزوة البلقاء وأحب أن يقتل ليتزوج امرأته ، فلايليق بين المتسمين بالصلاح من أفناء [1] الناس فضلا عن بعض أعلام الأنبياء . وقال على رضى الله

---

(١) أفناء : أوساط .

عنه: من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة جلدة وهو الفرية على الأنبياء)[1] .

وقد نقل الخازن فى تفسيره قصة داود وامرأة أوريا ، كما ذكر قصصا عن داود أشبه ما تكون بالخرافة ، ولكنه عقب على هذا القصص بقوله : (فصل فى تنزيه داود عليه الصلاة والسلام عما لا يليق به وينسب اليه) . وفند فى هذا الفصل كل ما ذكره مما يتنافى مع عصمة نبى الله داود عليه السلام [2] .

ويطول بنا القول لو ذهبنا نذكر جميع الإسرائيليات التى أوردها المفسرون فى تفاسيرهم ، ولكنى أحب أن أذكر هنا أن كثيرا من المفسرين قد اغتروا بوجود هذه القصص فى كتب العهد القديم والجديد ، فنقلوها بجوار تفسيرهم للاستشهاد لا للاعتضاد ، فجاء من بعدهم وظنها من تفسير القرآن أو أنها رأى للمفسر فى الآية .

ومع ورود النهى الشديد عن تصديق أهل الكتاب أو تكذيبهم ، فيما لا نعرف صحته من باطله ، ووجوب تكذيبهم فيما نعرف كذبه ، وتصديقهم فيما نعرف صدقه - رأينا بعض المفسرين يصدقونهم فيما صح عندنا كذبه وما ثبت لنا عن المعصوم صلى الله عليه وسلم أنه باطل وافتراء .

* * *

- ٧ -

رأى الحافظ ابن كثير فى الإسرائيليات

(أ) قال ابن كثير فى تفسيره لأول سورة ق (وقد روى عن بعض السلف أنهم قالوا : ق جبل محيط بجميع الأرض ، يقال له جبل قاف . وكان هذا - والله أعلم - من خرافات بنى إسرائيل التى أخذها عنهم بعض الناس ، لما رأى من جواز الرواية

---

(١) تفسير النسفى ٤/ ٢٩ - ٣٠ .

(٢) تفسير الخازن ٣٨/٦ - ٤٢ .

عنهم مما لا يصدق ولا يكذب ، وعندى أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زناديقهم ، يلبسون به على الناس أمر دينهم كما افترى فى هذه الأمة - مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها - أحاديث عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وما بالعهد من قدم فكيف بأمة بنى إسرائيل ، مع طول المدى ، وقلة الحفاظ والنقاد فيهم، وبشربهم الخمور ، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه ، وتبديل كتب الله وآياته . وإنما أباح الشارع الرواية عنهم فى قوله : « وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج » - فيما قد يجوزه العقل فأما فيما تحيله العقول ، ويحكم فيه بالبطلان ، ويغلب على الظنون كذبه - فليس من هذا القبيل، والله أعلم .

وقد أكثر كثير من السلف من المفسرين وكذا طائفة كثيرة من الخلف من الحكاية عن كتب أهل الكتاب فى تفسير القرآن المجيد ، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم، ولله الحمد والمنة .

حتى أن الإمام أبا محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم الرازى رحمة الله عليه أورد ههنا أثرا غريبا - لا يصح سنده - عن ابن عباس رضى الله عنهما ، فقال: حدثنا أبى ، قال حدثت عن محمد بن إسماعيل المخزومى ، حدثنا ليث بن أبى سليم ، عن مجاهد ، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

خلق الله تبارك وتعالى من وراء هذه الأرض بحرا محيطا بها ثم خلق من وراء ذلك البحر جبلا يقال له قاف ، سماء الدنيا مرفوعة عليه .. الحديث [١] .

قال ابن كثير : وإسناد هذا الحديث فيه انقطاع . والذى رواه لى ابن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله عز وجل (ق) هو اسم من أسماء الله عز وجل . والذى ثبت عن مجاهد أنه حرف من حروف الهجاء كقوله تعالى: « ص - ن - حم - طس - الم » ونحو ذلك . فهذه تبعد ما تقدم عن ابن عباس رضى الله عنهما [٢] .

---

(١) ذكر ابن كثير تمام الحديث حتى عد سبع أرضين وسبعة أبحر وسبعة جبال وسبع سموات (والبحر يمده من بعده سبعة أبحر) انظر تفسير ابن كثير : ٤ / ٢٢١ .

(٢) تفسير ابن كثير : ٤/ ٢٢١ .

(ب) وتوالت حملات الحافظ ابن كثير على هذه الإسرائيليات وانتقد ما أورده المفسرون من روايات إسرائيلية فى تفسير آيات معينة من القرآن الكريم .

فعند تفسيره للآية ٥٠ من سورة الكهف [١] - بعد أن ذكر أقواله فى (إبليس) واسمه ومن أى قبيل هو - قال : (وقد روى فى هذا آثار كثيرة عن السلف ، وغالبها من الإسرائيليات التى تنقل لينظر فيها، والله أعلم بحال كثير منها ، ومنها ما يقطع بكذبه لمخالفته للحق الذى بأيدينا) .. (وفى القرآن غنية عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة، لأنها لا تكاد تخلو من تبديل ، وزيادة ونقصان ، وقد وضع فيها أشياء كثيرة . وليس لهم من الحفاظ المتقنين الذين ينفون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين - كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء والسادة والأتقياء ، والبررة والنجباء ، من الجهابذة النقاد والحفاظ الجياد ، الذين دونوا الحديث وحرروه وبينوا صحيحه من حسنه من ضعيفه من منكره وموضوعه ومتروكه ومكتوبه ، وعرفوا الوضاعين والكذابين والمجهولين وغير ذلك من أصناف الرجال. كل ذلك صيانة للجناب النبوى والمقام المحمدى وخاتم الرسل وسيد البشر - صلى الله عليه وسلم- أن ينسب إليه كذب، أو يحدث عنه بما ليس منه . فرضى الله عنهم وأرضاهم ، وجعل جناب الفردوس مأواهم . وقد فعل) [٢] .

(جـ) وقد ذكر مقاتل فى تفسيره للآيات ٧٤ - ٨٠ من سورة الأنعام قصة إبراهيم عليه السلام ، وأن أباه حفر له سربا فى الأرض بعيدا عن الناس ، فلما رأى إبراهيم الكواكب لأول مرة قال للكوكب: هذا ربى .

وذكر ابن كثير عند تفسيره للآيات ٥١ - ٥٦ من سورة الأنبياء قصة إبراهيم مع أبيه ، ونظره إلى الكواكب ثم قال : (وما يذكر من الأخبار عنه فى إدخال أبيه له فى السرب وهو رضيع ، وأنه خرج به بعد أيام، فنظر إلى الكواكب والمخلوقات

---

(١) هى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ .

(٢) تفسير ابن كثير : ٤/ ٨٩ .

فتبصر فيها ، وما قصه كثير من المفسرين وغيرهم - فعامتها أحاديث بنى إسرائيل)[1] .

(د) وفى تفسير الآية ١٠٢ من سورة البقرة ورد ذكر هاروت وماروت . وأورد مقاتل فى تفسيره قصة نقلها عن بنى إسرائيل . خلاصتها أن هاروت وماروت كانا من الملائكة وأنهما هبطا بالسحر إلى الأرض ابتلاء من الله لخلقه .

أما ابن كثير فإنه بين فساد هذا المسلك من المفسرين فقال :

وقد روى فى قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين ، كمجاهد والسدى والحسن البصرى وقتادة وأبى العالية والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وغيرهم، وقصها خلق من المفسرين ، من المتقدمين والمتأخرين وحاصلها راجع فى تفصيلها إلى أخبار بنى إسرائيل ، إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى . وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب فنحن نؤمن بما ورد فى القرآن على ما أراده الله تعالى، والله أعلم بحقيقة الحال[2] .

(هـ) وعند تفسير الآيات ٤١ - ٤٤ من سورة النمل أورد مقاتل كثيرا من الإسرائيليات عن بلقيس ملكة سبأ[3] .

أما ابن كثير فقد ذكر طرفا من هذه الإسرائيليات ثم علق عليها بقوله : (والأقرب فى مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب ، ومما وجد فى صحفهم كروايات كعب ووهب ، سامحهما الله فيما نقلاه إلى هذه الأمة من أخبار

---

(١) تفسير ابن كثير : ٣/ ١٨١ ، عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ والآيات التى تليها من سورة الأنبياء من آية ٧٤ - ٨٠ .
ثم علق ابن كثير بحديث طويل عن الإسرائيليات وأقسامها الثلاثة وهى : ١- ما يعلم صدقه فنقبله . ٢- ما يعلم كذبه فنرفضه . ٣- ما لا يعلم صدقه من كذبه فنتوقف عنه ، فلا نصدقه ولا نكذبه .

(٢) انظر تفسير ابن كثير للآية ١٠٢ من سورة البقرة - الجزء الأول من ص ١٣٣ - ١٤٨ .

(٣) تفسير مقاتل مخطوطة أحمد الثالث ٣/ ٥٩ وانظر تحقيقى له مجلد ٣ ص ١٠٦٠/ ١٠٦١ .

بنى إسرائيل من الأوابد والغرائب والعجائب ، مما كان وما لم يكن ، ومما حرف وبدل ونسخ . وقد أغنانا الله سبحانه عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع ، وأوضح وأبلغ . ولله الحمد والمنة) [١] .

(و) وتعقب ابن كثير فى تفسيره كثيرا من هذه الإسرائيليات بالنقد والتمحيص بعد روايتها . كما فى تفسيره للآية ٤٦ من سورة العنكبوت [٢] ، وللآية ٧٩ من سورة البقرة . حيث أورد كلمة لابن عباس رواها البخارى فى صحيحه وهى قول ابن عباس : (يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شىء وكتابكم الذى أنزل الله على نبيه أحدث أخبار الله ، تقرأونه محضا لم يشب، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيروه وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا: هو من عند الله ، ليشتروا به ثمنا قليلا . أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم؟ ولا والله ما رأينا منهم أحدا قط سألكم الذى أنزل إليكم) .

وهذه الموعظة القوية الرائعة، رواها البخارى فى ثلاثة مواضع من صحيحه [٣] .

* * *

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٦٦ .

(٢) فقد روى ابن كثير حديث : (إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم) ثم قال : (وليعلم أن أكثر ما يتحدثون به غالبه كذب وبهتان ، لأنه قد دخله تحريف وتبديل وتغيير وتأويل ، وما أقل المصدق فيه ثم ما أقل فائدته لو كان صحيحا) .

(٣) انظر عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ، اختصار وتحقيق أحمد شاكر ١/ ١٩ والمواضع الثلاثة التى روى فيها موعظة ابن عباس هى ص ٢١٥ جـ ٥ – ص ٨٢، ٤١٤ جـ ١٣ من فتح البارى .

- ٨ -

الإسرائيليات فى كتب التفسير

نمت الإسرائيليات واتسعت فى كتب التفسير وخاصة المطولة التى تعتمد المأثور مثل الطبرى والبغوى والخازن وابن كثير والقرطبى وغيرهم .

ورغم تحذير بعض هؤلاء المفسرين من هذه الإسرائيليات ونقدهم لبعضها فى كتبهم ، نراهم عند التطبيق قد حشدوا كثيرا من هذه الروايات الإسرائيلية ، وخصوصا عند توضيح جزئيات قصص القرآن . وعند ذكر الشخصيات والأحداث ، وكيفياتها ووقائعها وظروفها .

ومعظم هذه الروايات معزوة إلى كعب الأحبار ، وعبد الله بن سلام وثعلبة ومحمد القرظيين ، وابن جريج ، وابن نوف ، وأبناء منبه ، وغيرهم من مسلمى أهل الكتاب ، وخاصة مسلمى اليهود .

وابن خلدون فى مقدمته يذكر من أسباب الاستكثار من هذه المرويات اعتبارات عدة : اجتماعية ، ودينية ، أغرت المسلمين بهذا الأخذ والنقل ، الذى اتسعت له كتب التفسير المروى فاشتملت على الغث والسمين . والمقبول والمردود ، فيعد ابن خلدون من الاعتبارات الاجتماعية غلبة البداوة والأمية على العرب وتشوفهم لمعرفة ما تشوفت إليه النفوس البشرية فى أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود ، وهم إنما يسألون فى ذلك أهل الكتاب قبلهم ، ثم يذكر من الاعتبارات الدينية التى سوغت عنده هذا التلقى الكثير لمثل تلك المرويات فى تساهل وعدم تحر للصحة . إن مثل هذه المنقولات ليست مما يرجع إلى الأحكام فيتحرى فيها الصحة التى يجب العمل بها .

فتساهل المفسرون فى مثل ذلك ، وملأوا كتبهم بمنقولات عن عامة أهل التوراة الذين كانوا بين العرب وكانوا بداة مثلهم ، لا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب ، ولا تعلق لها بالأحكام الشرعية التى يحتاط لها [١] .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٨٣ ، ٣٨٤ بتصرف .

والحق أن هذه الروايات التى امتلأت بها كتب التفسير المذكورة وغير المذكورة ، والمطبوعة وغير المطبوعة - قد استغرقت حيزا كبيرا . إن لم يكن الحيز الأكبر منها ، وكادت تطغى على ما فى القرآن من مبادئ وأحكام ووصايا ، هى جوهر القرآن ومحكمه الذى فيه الهدى والذكر والموعظة والنور والفرقان ، حتى كادت تشغل المسلمين وتستغرق تفكيرهم .

ولقد كان كثير من القصص والشخصيات القرآنية مما ذكر فى الكتب والأسفار التى كانت متداولة فى أيدى أهل الكتاب . ولم تكن هذه الكتب والأسفار مترجمة إلى العربية ، ولم يكن لدى المسلمين الوسيلة للتأكد من صدقهم فى الترجمة أو تحريفهم لها . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم » [1] .

ونحن نرجح أن جل ما روى عن مسلمى أهل الكتاب كان أجوبة على أسئلة من المسلمين عن جزئيات الأحداث و الشخصيات والأعلام والمسائل القرآنية ، وأنهم كانوا يعزون أجوبتهم إلى ما فى أيديهم من الأسفار ، فيتقبله السامعون على علاته، ويرويه الرواة ويدونه المدونون ، لأنه لا سبيل إلى التحقق من صحته ، بالنسبة للسائلين والرواة والمدونين ، من أهل القرون الثلاثة الأولى .

ولا يمنع هذا ، أن أهل الكتاب كانوا يسترسلون فى شرح الأجوبة والتعليق عليها من عند أنفسهم .

* * *

---

(١) رواه البخارى عن أبى هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) .

- ٩ -

مسئولية المفسرين

إن المسئولية الأولى عن هذه الإسرائيليات التى حشدت بها كتب التفسير لا تقع على عاتق الرواة والمدونين القدماء ، سواء الذين رووا ودونوا أجوبة أهل الكتاب وشروحهم لأول مرة فى كتب لم تصل إلينا ، أو الذين دونوها فى الكتب التى وصلت إلينا نقلا عن الكتب المتقدمة .

وكلهم مفروض فيه القدرة على تمييز الغث من السمين ، والباطل من الحق ، والكذب من الصدق ، وعلى لمح ما فى هذه الروايات من غلو ومبالغات لا يصح كثير منها فى عقل أو منطق أو واقع ، ولا يؤيدها أثر صحيح .

ولا شك أن هناك مفسرين وقفوا من بعض هذه الروايات موقف المفكر الناقد ، غير أن الحق يقتضينا أن نقول : إن هذا لم يكن شاملا ولا عاما ، وإن الناقدين والمفكرين أنفسهم رووا كثيرا منها فى مناسبات كثيرة دون نقد أو إنكار .

أمثلة كثيرة :

الدارس لكتب التفسير القديمة يجد بيانات مسهبة حول القصص والشخصيات والأعلام والأحداث القرآنية ، معزوة إلى بعض أصحاب رسول الله وتابعيهم ، من غير مسلمى أهل الكتاب أمثال عبد الله بن مسعود ، وابن عباس ، وأبى هريرة ، وأبى ذر ، وعبد الله بن جابر ، ومسروق ، ومجاهد ، وعكرمة ، والحسن والضحاك ، وسعيد بن جبير ، وزيد بن أسلم ، وعطاء ، وطاوس ، وابن إسحاق ، وغيره . ويجد فى هذه البيانات إغرابا ومبالغة وخيالا وبعدا عن المنطق والعقل والإمكان .

ومنها ما رواه بصيغة أحاديث نبوية غير واردة فى كتب الأحاديث المعتبرة - بحيث تكون تسمية البيانات جميعها بالإسرائيليات - ليس صحيحا ، وإنما هو من قبيل التغليب .

* * *

ومن هذه البيانات ما يدور حول قصص وشخصيات وأعلام وأحداث قرآنية ليست واردة فى أسفار أهل الكتاب ، وبخاصة أسفار العهد القديم ، مثل قصص هود وقومه عاد فى الأحقاف ، وتبع ، وصالح وقومه ثمود فى الحجر ، وشعيب وقومه فى مدين ، وأصحاب الأيكة وأهل الرس ، ولقمان ، وذى القرنين، وأصحاب الكهف ، وغير ذلك مما هو عربى أو غير إسرائيلى بالإضافة إلى البيانات التى تساق على هامش قصص إبراهيم عليه السلام ، والتى لم تذكر فى الأسفار [١] .

والأمثلة على هذا القصص لا حصر لها فى كتب التفسير ، ومن ذلك ما يروى عن قتادة فى سياق إنشاء إبراهيم بيت الله مع إسماعيل [٢] ، من أن آدم حين هبط إلى الأرض كان رأسه فى السماء ورجلاه فى الأرض ، وأنه طاف بالبيت فى مكة، ومد الله له فى خطوه فكان بين كل خطوتين مفازة ، فطاف آدم بالبيت ، وطاف به من بعده الأنبياء [٣] .

ومن ذلك ما يروى عن السدى عن زيد بن أسلم فى سياق المناظرة بين إبراهيم عليه السلام والملك نمروذ ، وهذه القصة قد وردت فى تفسير مقاتل [٤] ، كما وردت فى تفسير ابن كثير [٥] وفيها أن الله سلط البعوض على النمروذ وجنوده وقت طلوع الشمس فلم يروا عين الشمس ، وسلطها عليهم فأكلت لحومهم ودماءهم وتركتهم عظاما بالية، ودخلت واحدة منها فى منخرى الملك فمكثت فيها أربعمائة سنة يعذبه الله بها ، حتى كان يضرب رأسه بالمرزبة فى هذه المدة ، ثم أهلكه الله بها [٦] .

---

(١) محمد عزة دروزة ، مقال بمجلة الوعى الإسلامى (بالكويت) السنة الثانية عدد ١٩ رجب سنة ١٣٨٦ هـ ، أكتوبر ١٩٦٦ م . والسيد أبو القاسم الموسوى الخوئى ، البيان فى تفسير القرآن: ١/ ٣٥ - ٤٠ المطبعة العلمية بالنجف .

(٢) انظر تفسير ابن كثير للآية ١٢٧ من سورة البقرة ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ إلخ الآية .

(٣) انظر تفسير ابن كثير للآية ١٢٧ من سورة البقرة .

(٤) تفسير مقاتل للآية ٢٥٨ من سورة البقرة .

(٥) تفسير ابن كثير للآية ٢٥٨ من سورة البقرة .

(٦) المرجع السابق .

على أن هناك وجها آخر لهذه المسألة ، فنحن لا نعتقد أن هذه البيانات العجيبة الغريبة سواء منها ما روى عن أصحاب رسول الله وتابعيهم من غير مسلمى أهل الكتاب ، أم ما روى عن مسلمى أهل الكتاب ، مخترعة من قبل الذين أوردوها جوابا عن سؤال أو توضيحا لمسألة من المسائل أو قصة من القصص ، لأن هذا يقتضى أن يكونوا جميعهم كذابين مفترين .

ونحن ننزههم عن ذلك ، ونرجح أن هذه البيانات مما كان متداولا فى بيئتهم. ومن المحتمل جدا أن تكون واردة فى كتب وقراطيس لم تصل إلينا . كما أن من المحتمل أن بعضها كان من اختراع بعض الناس ، ثم لفقوا لها الأسانيد .

وعلماء الحديث يذكرون أن من أسباب رفض الحديث أن يكون به علة قادحة تمنع من قبوله .. وكم فى هذه الإسرائيليات من شذوذ وعلل قادحة .

* * *

-١٠-

أخبار انفرد بها القرآن

كثير من أخبار الأنبياء وقصصهم ورد ذكره فى القرآن ، كما ورد فى كتب العهد القديم والجديد .

ومع ذلك انفرد القرآن بأخبار عن بعض هؤلاء الأنبياء لم ترد فى الأسفار المتداولة اليوم ، مثل المحاورة بين الله والملائكة فى صدد خلق آدم وخلافته. وأمر الله الملائكة بالسجود له ، وامتناع إبليس، وتخلف أحد أبناء نوح عن الركوب فى السفينة وغرقه . وتوبة آدم وقبولها من الله . وقصص إبراهيم مع أبيه وقومه ، وإسكان إبراهيم بعض ذريته فى منطقة المسجد الحرام ، وبنائه البيت هو وإسماعيل . وإيمان سحرة فرعون . ومؤمن آل فرعون . وصنع داود للدروع . وحكومة داود وسليمان فى الحرث الذى نفشت فيه غنم القوم ، وتسخير الخيل والطير لداود ، وتسخير الجن والريح والطير لسليمان، وبناء الجن له التماثيل والمحاريب ، وغوصهم له ، وتقييده إياهم بالأغلال وقصة الهدهد وملكة سبأ وعرشها ، والصرح الممرد من القوارير ، وإحضار الذى عنده العلم عرشها فى لمح

البصر . والجسد الملقى على عرشه والصافنات الجياد ، ومائدة عيسى وكلامه فى المهد وغير ذلك كثير [١] .

وقد وردت أشياء كثيرة فى القرآن مغايرة قليلا أو كثيرا لما ورد فى الأسفار مثل نسبة صنع العجل للسامرى فى القرآن بدلا من هارون فى الأسفار . وشق قميص يوسف وهمه بامرأة العزيز ، ومثل ما جاء مباينا للقرآن فى قصص يونس وأيوب وزكريا ومريم وأمها، وغير ذلك كثير أيضا .

ونحن نرجح أنه كانت هناك أسفار وقراطيس لم تصل إلينا فيها ما هو متطابق مع ما جاء فى القرآن ، وأنه كان فى هذه الأسفار والقراطيس التى لم تصل إلينا كثير من البيانات التى تروى عن مسلمى أهل الكتاب . وعن بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتابعيهم من غير مسلمى أهل الكتاب . وفى الأسفار المتداولة اليوم إشارات إلى أسفار كانت موجودة فى القديم ثم فقد تداولها فى هذه الأيام .

من جملتها توراة موسى التى كتبها بيده ، ودون فيها تبليغات الله تعالى ووصاياه ، والألواح ، ومدونة وصفت بالنشيد الربانى ، وأسفار عديدة أخرى : مثل أسفار ياشر وعدى وأخيلو وشيلو ، وأخبار أيام كل ملك من ملوك إسرائيل ويهوذا إلخ، مما يمكن أن يكون يقاس عليه) [٢] .

وقد ذكر القرآن أن اليهود حرفوا التوراة [٣] وكتبوا بعض ما أنزل الله [٤] ،

---

(١) انظر عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ، وكتاب الإنجيل والصليب تأليف الأب عبد الأحد داود الأشورى العراقى ، نقله من التركية إلى العربية مسلم عراقى طبع فى القاهرة ١٣٥١ هـ، وبه تعليقات مهمة انظر ص ١٤١ - ١٦٠ هامش كتاب الإنجيل والصليب المذكور ، وانظر مجلة الوعى الإسلامى عدد ١٩ رجب ١٣٨٦ هـ مقال محمد عزة دروزة .

(٢) المرجع السابق ، وانظر : أبو القاسم الموسوى الخوئى، البيان فى تفسير القرآن ، ١/ ٣٩ .

(٣) فى الآية ٧٥ من سورة البقرة ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ .

(٤) فى الآية ٧٦ من سورة البقرة .

وأضافوا إلى التوراة ما ليس منها [1] ، وجحدوا ما أنزل الله كفرا وعنادا .
قال تعالى :

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (الأنعام : ٩١) [2] .

★ ★ ★

- ١١ -

اعتذار عن المفسرين

وقد اعتذر الطوفى [3] عن المفسرين فى ملء تفاسيرهم بالإسرائيليات (بأن كثيرا من المفسرين قد دونوا من الإسرائيليات ما يظنون به أن له نفعا لتبيين بعض النواحى فى أنباء القرآن الحكيم من معارف عصرهم ، المتوارثة من اليهود وغيرهم، تاركين أمر غربلتها لمن بعدهم من النقاد ، حرصا على إيصال تلكم المعارف إلى من بعدهم ، لاحتمال أن يكون فيها بعض فائدة من إيضاح ما أجمل من الأنباء فى الكتاب الكريم ، لا لتكون تلك الروايات حقائق فى نظر المسلمين ، يراد اعتقاد صحتها والأخذ بها على علاتها دون تمحيص فلا تثريب على من دون الإسرائيليات بهذا القصد) .

ذكر الطوفى ذلك فى كتابه (الإكسير فى قواعد التفسير) ، ثم ضرب لذلك مثلا بصنيع رواة الحديث حين عنوا بادئ ذى بدء بجمع الروايات كلها تاركين أمر التمييز بين صحاحها وضعافها لمن بعدهم من النقاد [4] .

---

(١) فى الآية ٧٩ من سورة البقرة .   (٢) الآية ٩١ من سورة الأنعام .

(٣) هو نجم الدين أبو الربيع سليمان بن عبد القوى بن عبد الكريم الطوفى نسبة إلى طوفى وهى قرية من سواد بغداد . ولد سنة ٦٧٥ هـ وتوفى سنة ٧١٦ هـ .

(٤) مقالات الكوثرى ص ٣٤ مطبعة الأنوار بالقاهرة ، وذكر الكوثرى أن اعتذار الطوفى عن المفسرين اعتذار وجيه . وفى معهد المخطوطات بالجامعة العربية نسخة مصورة من كتاب الإكسير من مكتبة « حلبى زادة » بتركيا .

وذكر ابن كثير فى تفسيره كلاما قريبا من كلام الطوفى [١] .

بيد أن المحقق أحمد شاكر فند كلام ابن كثير ورفض اعتذاره عن المفسرين، وعاب على ابن كثير إيراده كثيرا من الإسرائيليات والأحاديث الواهية فى تفسيره، رغم النقد الشديد الذى وجهه ابن كثير لمن يفعل ذلك ، إلا أنه عند التطبيق خانه التوفيق .

يقول أحمد محمد شاكر رحمه الله : (إن إباحة التحدث عن بنى إسرائيل شىء ، وذكر ذلك فى تفسير القرآن - وجعله قولا أو رواية معنى الآيات ، أو فى تعيين ما لم يعين فيها أو فى تفصيل ما أجمل فيها - شىء آخر ، لأن فى إثبات مثل ذلك بجوار كلام الله ما يوهم أن هذا الذى لا نعرف صدقه ولا كذبه مبين لمعنى قول الله سبحانه ، ومفصل لما أجمل فيه ، وحاشا لله ولكتابه من ذلك . وأن رسول الله صلى عليه وسلم - إذ أذن بالتحدث عنهم - أمرنا ألا نصدقهم ولا نكذبهم فأى تصديق لرواياتهم وأقاويلهم أقوى من أن نقر بها بكتاب الله ونضعها منه موضع التفسير أو البيان ؟ اللهم غفرا) [٢] .

وأخيرا فإنا نرى أن اعتذار الطوفى وغيره من المفسرين لا يعفيهم أبدا من المسئولية ولا يعفى من نقل عنهم جيلا بعد جيل تلك البيانات والروايات العجيبة التى شغلت الحيز الكبير من كتب التفسير ، وأدت إلى تشويش الأذهان ، والتغطية على محكم القرآن ، فوجود هذه الإسرائيليات فى أسفار اليهود وكتبهم لا يسوغ إيرادها فى كتب التفسير على علاتها ، حيث توهم من يقرأها أنها بيان للقرآن وتوضيح لأهدافه ، مع أنها صارفة للذهن عما اقتضت حكمة التنزيل إيراده .

« وبعضها من عمل القصاص ووضاع الحديث وأهل الدس والكيد من اليهود» [٣] . قال الإمام أحمد : (ثلاثة أمور ليس لها أصل : التفسير والملاحم والمغازى) ، ويريد من التفسير هنا التفسير بالرواية ، ويعنى بأنها ليس لها أصل : أنها ليس لها إسناد صحيح ، ومعنى هذا أن كثيرا مما روى من هذا النوع على كثرته مما يتوجه إليه الاتهام [٤] .

---

(١) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ص ١٤ - ١٥ تحقيق أحمد شاكر .

(٢) المرجع السابق .

(٣، ٤) محمد الزفزاف ، التعريف بالقرآن والحديث ، ص ١٤٩ .

-١٢-

نتائج

يمكن أن نخلص من هذه الدراسة إلى بيان الواجب علينا نحو التفسير بالرواية، ويتلخص ذلك فيما يأتى :

١- نقد هذه المجموعة المركومة من التفسير النقلى على هدى قواعد القوم فى نقد الرواية متنا وسندا ثم يستبعد منها الكثير الذى لا يستحق البقاء ، ولست أظن أن هذا العمل الشاق المضنى يستطيع أن يقوم به فرد وحده، بل لابد من جماعة كبيرة تتفرغ له ويتسع أمامها الزمن ، وتتوافر لديها المصادر أو المراجع التى تتعلق بالموضوع وتتصل به، كالمكتب الفنى للدعوة بوزارة الأوقاف ، أو اللجان التابعة للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية أو للأزهر .

٢- تخريج الأحاديث الواردة فى كتب التفسير كما فعل الحافظ الزيلعى فى كتابه (نصب الراية فى تخريج أحاديث الهداية) وكما فعل ابن حجر فى كتابه (الكافى الشافى فى تخريج أحاديث الكشاف) وبذلك نميز الصحيح من العليل .

٣- إلقاء المحاضرات التى تنبه الأذهان إلى خطر هذه الإسرائيليات والرقابة على الأئمة والخطباء والمتصوفة والقصاص وأضرابهم ممن تشيع على ألسنتهم الإسرائيليات ويذكرونها لاستمالة العامة . كما يجب أن تفرض رقابة دقيقة على الكتب التى تدرس فى دور العلم ومعاهده وبخاصة كتب التفسير والوعظ والتصوف ونحوها . ولكى يخرج هذا العمل الجليل كاملا يجب أن يتولاه عدد من الأساتذة ذوى الاختصاص .

٤- بذل الجهود لإعادة طبع كتب السنة المعتمدة وبخاصة تلك التى نبهت على الموضوعات والإسرائيليات وأن يحقق وينشر القسم الذى ما زال مخطوطا منها ومجهولا لكثير من الباحثين .

٥- أن تؤلف كتب أو رسائل خاصة تجمع فيها الإسرائيليات الموجودة فى كتب التفسير - كل على حدة - ثم ينبه على زيفها ، فمثلا تؤلف رسالة خاصة يستقصى فيها ما فى تفسير الخازن .. و هكذا . وبهذه الطريقة نجمع جميع الإسرائيليات الموجودة فى كتب التفسير فيتحاشى الناس سمومها .

٦- أن تتوفر الأفراد والهيئات على إعادة طبع كتب التفسير مجردة من الإسرائيليات ، فيعاد طبع الخازن مثلا بعد حذف الإسرائيليات منه وبذلك نستفيد بهذا التراث الغالى ونجرده من الشوائب التى علقت به .

* * *

-١٣-
تفنيد فرية

إذا كان المسلمون قد تأثروا باليهود فى الإسرائيليات التى تناقلها بعض المفسرين - وأفلح المصلحون - أو كادوا - فى تطهير العقول منها والرجوع بها إلى الجادة الإسلامية .. فإن بعض المستشرقين يتخذ من ذلك ذريعة للقول بأن الإسلام نسخة من اليهودية .

وهو قول خاطئ وإشاعة رائجة « لم يبرأ منها رجل فى طبقة الدكتور « شويتزر » فى الثقافة والخلق »[1] .

والحقيقة المجردة هى :

أن اليهودية دين سماوى ، والإسلام دين سماوى، ومصدر الوحى فى القرآن وغيره من الكتب السماوية ، واحد ، وهو الله جل وعلا .

وقد كان القرآن خاتم الكتب السماوية فمن الطبيعى أن يكون فى القرآن بعض ما فى هذه الكتب والرسالات السماوية من أنباء وقصص ، وإن كان بعضها على نحو أبسط وأوجز . لا عجب فيه » ولو كان الأمر غير هذا لكان هو العجب .

(١) عباس العقاد ، ما يقال عن الإسلام ، ص ١٤٦ .

« من هنا كان خطأ بعض المستشرقين خطأ كبيرا فى المنهج حين يتعرضون لشىء مما حوى القرآن من تلك الأنباء وذلك القصص متخذين التوراة وحدها المقياس للحقيقة والمصدر لكل شىء من أخبار الماضين ، متناسين أن كلا من التوراة والقرآن من عند الله الذى أودع فى كل من الكتابين ما شاء من البسط أو الإيجاز [1] .

لا معنى إذًا للقول بأن القرآن أخذ هذه القصة أو تلك عن التوراة ، أو الادعاء بأن الرسول كان عرف التوراة وأخذ عنها . وهذا وذاك لا ضرورة لافتراضه ، ما دام كل من الكتابين من عند الله . وبخاصة أنه قد تعارف الناس جميعا أن محمدا عليه الصلاة والسلام كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، قال تعالى : ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ [2] .

ثم كيف يفسر هؤلاء المتعنتون اشتمال القرآن على قصص وأنباء لم تجئ فى التوراة بل لم تشر إليها إن كانت هى المصدر الذى أخذ منه الرسول ما أخذ فى هذه الناحية [3] ؟ .



- ١٤ -
تأثير الإسلام فى اليهودية

إن المقارنة بين عبادات اليهود قبل اتصالهم بالمسلمين وعباداتهم بعد هذا الاتصال ببضعة أجيال تثبت أن القدوة بالمسلمين عادت باليهود إلى إحياء السنن التى هجروها من عباداتهم الأولى وعلمتهم سننا أخرى لم يعلموها ومنها شعائر فى صميم العبادة كشعائر الوضوء والغسل ونظام الصلاة الجامعة وغيرها من الشعائر فلم يرد فى نصوص التلمود ذكر للوضوء أكثر من غسل اليدين ، ولم يرد أمر بالغسل من الجنابة فى كتب اليهود . قال موسى بن ميمون « إنه لا يرى فى كتب السلف

(١) د. محمد يوسف موسى ، دائرة المعارف الإسلامية ، مادة داود ٩ / ١٢٤ .
(٢) سورة العنكبوت . الآية ٤٨ .
(٣) د. محمد يوسف موسى . دائرة المعارف الإسلامية مادة داود ٩ / ١٢٤ .

الأولين ما يوجب غسل الجنابة ولكنه يغتسل بحكم العادة حيث عاش ونشأ فى بلاد المسلمين »[1] .

وقد كانت صلاة الهمس تصلى فى المعابد الإسرائيلية ، وكان جمهور المصلين يتحدثون إلى من بجوارهم ويبصقون ويثرثرون أثناء صلاة الهمس ، ظنا منهم أن الصلاة مقصورة على ما يهمس به الكاهن ولا يسمعونه .

وكانت خير وسيلة للقضاء على هذه الحالة أن دعا بعض المصلحين اليهود مثل (ميمون بن مهران) إلى أن يسلك اليهود مسلك المسلمين فى صلواتهم الجامعة. بعد الاقتداء بهم فى فرائض الوضوء والتطهير ، ورعاية المسجد من جميع الوجوه.

وفى هذا كله تفنيد لخرافة القائلين بأن الإسلام شعبة من اليهودية ، أو أن الإسلام مدين لها بشعائره وأحكامه ، فالواقع أن اليهودية بعد الإسلام قد استفادت من آدابه وشعائره كما استفادت من ثقافته فى علم الأصول وفى نحو اللغة وعروضها وأوزان شعرها[2] .

وأما قبل الإسلام فمصادر اليهودية فى المسائل المتفق عليها هى مصادر الإسلام، كلاهما دين سماوى من عند الله . بيد أن اليهود حرفوا كلام الله وكتموا بعض أحكام التوراة بينما حفظ الله القرآن الكريم من التحريف والتبديل .

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ .

* * *

---

(١) عباس العقاد : ما يقال عن الإسلام ص ١٥٠ نقلا عن كتاب (تأثير الإسلام فى العبادة اليهودية) تأليف نفتالى فيدر .

(٢) عباس العقاد : ما يقال عن الإسلام ص ١٥٠ .

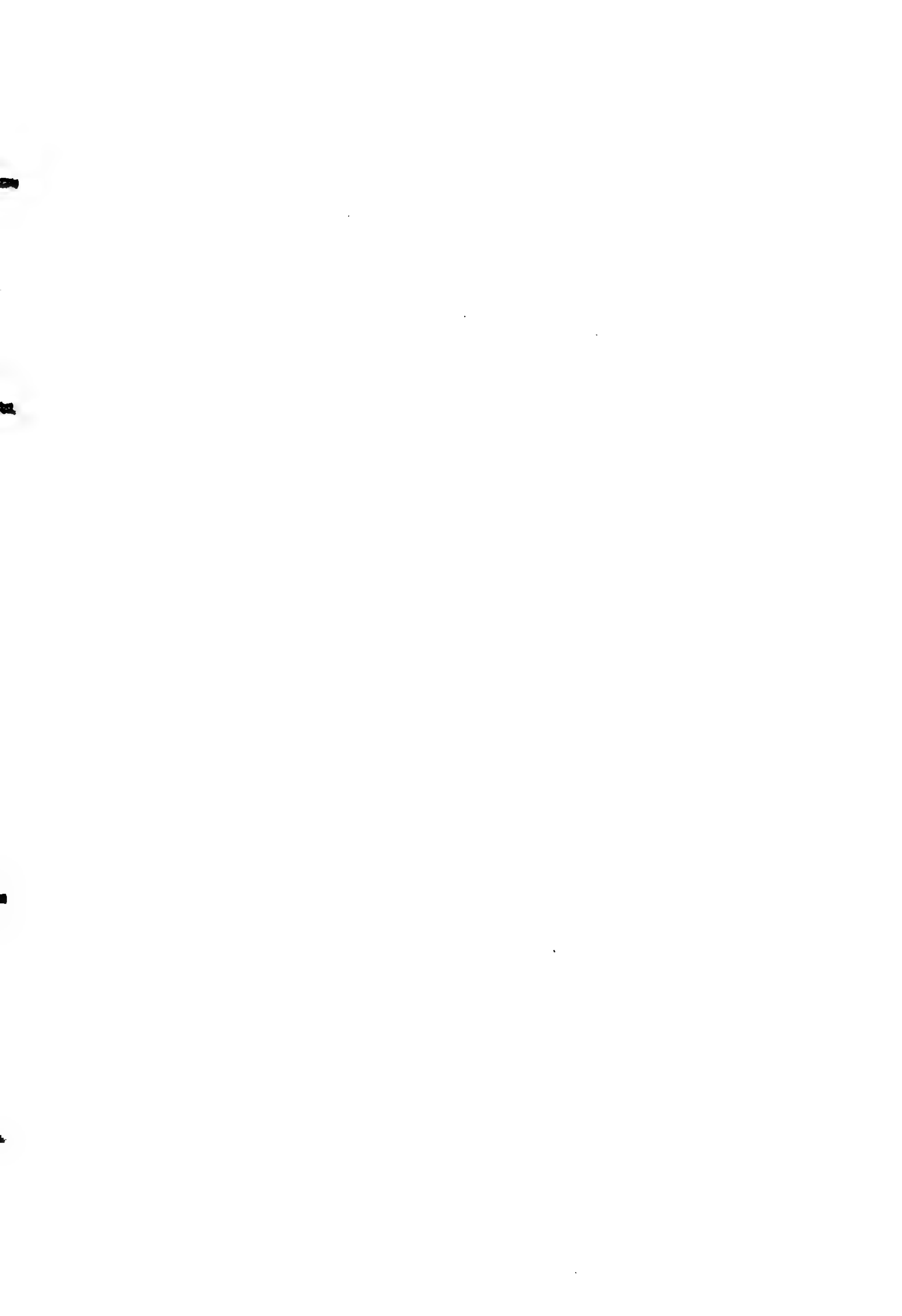
الفصل السادس

آيات الصفات فى القرآن الكريم

١- مسلك الصحابة فى فهم آيات الصفات .

٢- إنكار الصفات

٣- مذهب الأشعرى فى الرؤية .



أ - مسلك الصحابة فى فهم صفات الله

١- جاء فى القرآن الكريم آيات تدل بظاهرها على أن لله وجها [١] ويدين[٢] وجهة هى السماء [٣] ومكانا هو العرش [٤] ، ونحو ذلك مما يوهم التشبيه والجسمية والانتقال ، وآيات أخرى تثبت له صفات مختلفة من العلم والقدرة والكلام ونحوها.

وطائفة ثالثة : منها ما يصرح بأنه لا تدركه الأبصار ومنها ما يدل على جواز رؤيته تعالى .

فرأى رجال السلف الصالح متابعة الصحابة والتابعين فى موقفهم منها .

« فغلبوا - كما يذكر ابن خلدون - أدلة التنزيه لكثرتها ووضوح دلالتها وعلموا استحالة التشبيه ، وقضوا بأن الآيات من كلام الله فآمنوا بها ولم يتعرضوا لمعناها ببحث ولا تأويل » [٥] .

---

(١) ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ سورة الرحمن ٢٦، ٢٧ وفى سورة القصص الآية ٨٨ ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ .

(٢) ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ آية ١٠سورة الفتح ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾ ٧٣ آل عمران . ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ سورة (ص) ،آية ٧٥ . ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ المائدة : ٦٤ .

(٣) ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ﴾ تبارك : ١٦ .

(٤) ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ طـه : ٥ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ الأعراف : ٥٤ .

(٥) المقدمة ص ٣٦٧ ومثل هذا فى الملل والنحل : ١/ ١١٦ ، ١١٧ .

وقد سئل الإمام مالك عن معنى قوله تعالى: « الرحمن على العرش استوى» فقال : « الاستواء معلوم ، والكيفية مجهولة ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة »[1].

وقال تقى الدين المقريزى[2] فى كتاب « الخطط » :

(اعلم أن الله تعالى لما بعث من العرب نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم رسولا إلى الناس جميعا ، وصف لهم ربهم سبحانه وتعالى بما وصف به نفسه الكريمة فى كتابه العزيز، الذى نزل به على قلبه - صلى الله عليه وسلم - الروح الأمين ، وبما أوحى إليه ربه تعالى .

(فلم يسأل ، صلى الله عليه وسلم ، أحد من العرب بأسرهم قرويهم وبدويهم عن معنى شىء من ذلك ، كما كانوا يسألونه ، صلى الله عليه وسلم عن أمر الصلاة والزكاة والصيام والحج وغير ذلك مما لله سبحانه فيها أمر ونهى ، وكما سألوه ، صلى الله عليه وسلم ، عن أحوال القيامة والجنة والنار ، ولو سأله إنسان منهم عن شىء من الصفات الإلهية لنقل كما نقلت الأحاديث الواردة عنه صلى الله عليه وسلم فى أحكام الحلال والحرام ، وفى الترغيب والترهيب وأحوال القيامة ، والملاحم والفتن ، ونحو ذلك مما تضمنته كتب الحديث ، ومعاجمها ومسانيدها وجوامعها .

(ومن أمعن النظر فى دواوين الحديث النبوى ووقف على الآثار السلفية ، علم أنه لم يرو قط من طريق صحيح ولا سقيم عن أحد من الصحابة رضى الله عنهم ، على اختلاف طبقاتهم وكثرة عددهم، أنه سأل رسول اله، صلى الله عليه وسلم ، عن معنى شىء مما وصف به الرب سبحانه نفسه الكريمة فى القرآن الكريم ، وعلى لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، بل كلهم فهموا معنى ذلك ، وسكتوا عن الكلام فى الصفات ، نعم ولا فرق أحد منهم بين كونها صفة ذات أو صفة فعل ، وإنما أثبتوا له تعالى صفات أزلية من العلم والقدرة ، والحياة والإرادة، والسمع

---

(١) الملل والنحل : ١/ ١١٨ .

(٢) توفى سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١ - ١٤٤٢ م) .

والبصر والكلام والجلال والإكرام ، والجود والإنعام ، والعز والعظمة ، وساقوا الكلام سوقا واحدا .

وهكذا أثبتوا، رضى الله عنهم ، ما أطلقه الله سبحانه على نفسه الكريمة من الوجه واليد ونحو ذلك، مع نفى مماثلة المخلوقين ، فأثبتوا ، رضى الله عنهم ، بلا تشبيه ، ونزهوا من غير تعطيل ، ولم يتعرض مع ذلك أحد منهم إلى تأويل شىء من هذا ، ورأوا بأجمعهم إجراء الصفات كما وردت .

« ولم يكن عند أحد منهم ما يستدل به على وحدانية الله تعالى وعلى إثبات نبوة محمد ، صلى الله عليه وسلم ، سوى كتاب الله ، ولا عرف أحد منهم شيئا من الطرق الكلامية ولا مسائل الفلسفة »[1] .

* * *

---

(١) المقريزى : الخطط ٤/ ١٨٠ - ١٨١ .

ب - إنكار الصفات

كان الجعد بن درهم الذى قتل سنة ١٢٠ هـ / ٧٣٧ م [١] مؤدبا لمروان بن محمد الملقب بالجعدى [٢] .

وهو أول من قال بنفى الصفات عن الله [٣] ثم أخذ عنه الجهم بن صفوان المقتول سنة ١٢٨ هـ (٧٤٥ م) .

وقد أخذت المعتزلة عن جهم قوله بنفى الصفات وقوله بخلق القرآن .

ويلقب المعتزلة أحيانا بالجهمية نسبة إلى جهم بن صفوان .

« وقال جهم بنفى التشبيه وقال أيضا لا يجوز أن يقال إن الله شىء ولكنه منشئ الشىء ، قال لأنه لم يقع اسم الشىء إلا على مخلوق ولا يكون الله تعالى بصفة الخلق » [٤] .

كما نفى عن الله تعالى: « العين ، والوجه ، واليد ، والاستواء ، والكرسى ، والعرش ، والنظر إليه ، والتكلم » [٥] .

---

(١) ابن عساكر : التاريخ الكبير ٥/ ٦٨ .

(٢) الثعالبى : لطائف المعارف ٤٣ والمطهر بن طاهر المقدسى . البدء والتاريخ ٦ / ٥٤ . وابن الأثير : الكامل فى التاريخ ٥/ ١٧١ والذهبى : تاريخ الإسلام ٤ / ٢٣٨ .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية : مادة تشبيه ٥ / ٢٥٣ . وابن تيمية : رسالة الفرقان من مجموعة الرسائل الكبرى ١/ ١٣٧ القاهرة ١٣٢٣ هـ . وذكر أنه السبب فى سقوط آخر خلفاء بنى أمية. وابن كثير : البداية والنهاية ٩/ ٣٥٠ . والذهبى : تاريخ الإسلام ٤/ ٢٣٩ . وذكر أن الجعد كان يختلف إلى وهب بن منبه ويسأله عن صفات الله عز وجل فقال له وهب يوما : ويلك يا جعد، أقصر المسألة عن ذلك ، إنى لأظنك من الهالكين ، لو لم يخبرنا الله فى كتابه أن له يدا ما قلنا ذلك ، وأن له سمعا ما قلنا ذلك ، وذكر الصفات من العلم والكلام وغير ذلك، ثم لم يلبث الجعد أن صلب ، ثم قتل) وقد ذ كر ذلك ابن كثير فى البداية والنهاية فى التاريخ ٩/ ٣٥٠ نقلا عن ابن عساكر .

(٤) نشوان الحميرى : الحور العين. تحقيق كمال مصطفى : ١٤٨ القاهرة ١٩٤٨م ، ومقالات الإسلاميين ١/ ٢٣٣ ، ٢/ ١٨٠ ، والبدء والتاريخ ١/ ١٠٥ ، والشهرستانى : نهاية الإقدام فى علم الكلام / ١٥١ ، وابن تيمية : الحسنة والسيئة ٢٢٤ .

(٥) ابن حنبل. الرد على الجهمية ١٦ - ٢٣ . رد الدارمى على بشر المريسى : ٢٣ .

ج - مذهب الأشعرى فى الرؤية

كان مذهب الأشعرى وسطا بين المبالغة فى الإثبات والغلو فى التنزيه والتعطيل .

فقد بالغ مقاتل فى إثبات رؤيته تعالى حتى أثبت الفوقية والجهة [١] .

كما بالغ الحنابلة المشبهة فذهبوا إلى جواز رؤيته تعالى فى الدنيا ، جريا وراء الظاهر من الآيات والأحاديث، وقد ذكر غلوهم أبو الفرج ابن الجوزى فى كتابه دفع شبه التشبيه [٢] وأجازوها فى جهة ومكان [٣] بينما أحالها المعتزلة لما تستلزمه فى رأيهم من جهة يكون فيها المرئى فى مقابلة الرائى [٤] .

وبذلك كان الأشاعرة وسطا فى هذه المسألة . كما كانوا وسطا فى مسألة الصفات .

* * *

---

(١) التنبيه والرد ص ٦٣ حيث يقول : فأما تفسير (لا تدركه الأبصار) يعنى لا يراه الخلق فى الدنيا دون الآخرة ولأحد السموات دون الجنة .

(٢) ص ٢٩ وما بعدها .

(٣) المقاصد ٢/ ٨٢ .

(٤) المواقف ص ٣٠٧ وما بعدها .

المناهج الرئيسية فى فهم آيات الصفات

الدارس لتاريخ الفرق الإسلامية يجد نفسه أمام ثلاثة أنماط من التفكير :

النمط الأول :

يرى أن تفهم النصوص على ظاهرها بلا تأويل وهؤلاء هم بعض الحنابلة.

النمط الثانى :

يبالغ فى التأويل حتى يصرف النصوص عن ظاهرها ويؤولها بمعنى يليق بذاته تعالى ، وهؤلاء هم المعتزلة .

والنمط الثالث :

يتوسط بين الفريقين وهؤلاء هم الأشاعرة. ولنتعرف على هذه الأنماط الثلاثة فى التفكير فيما يأتى :

* * *

المناهج الرئيسية فى فهم آيات الصفات

١- الحنابلة .

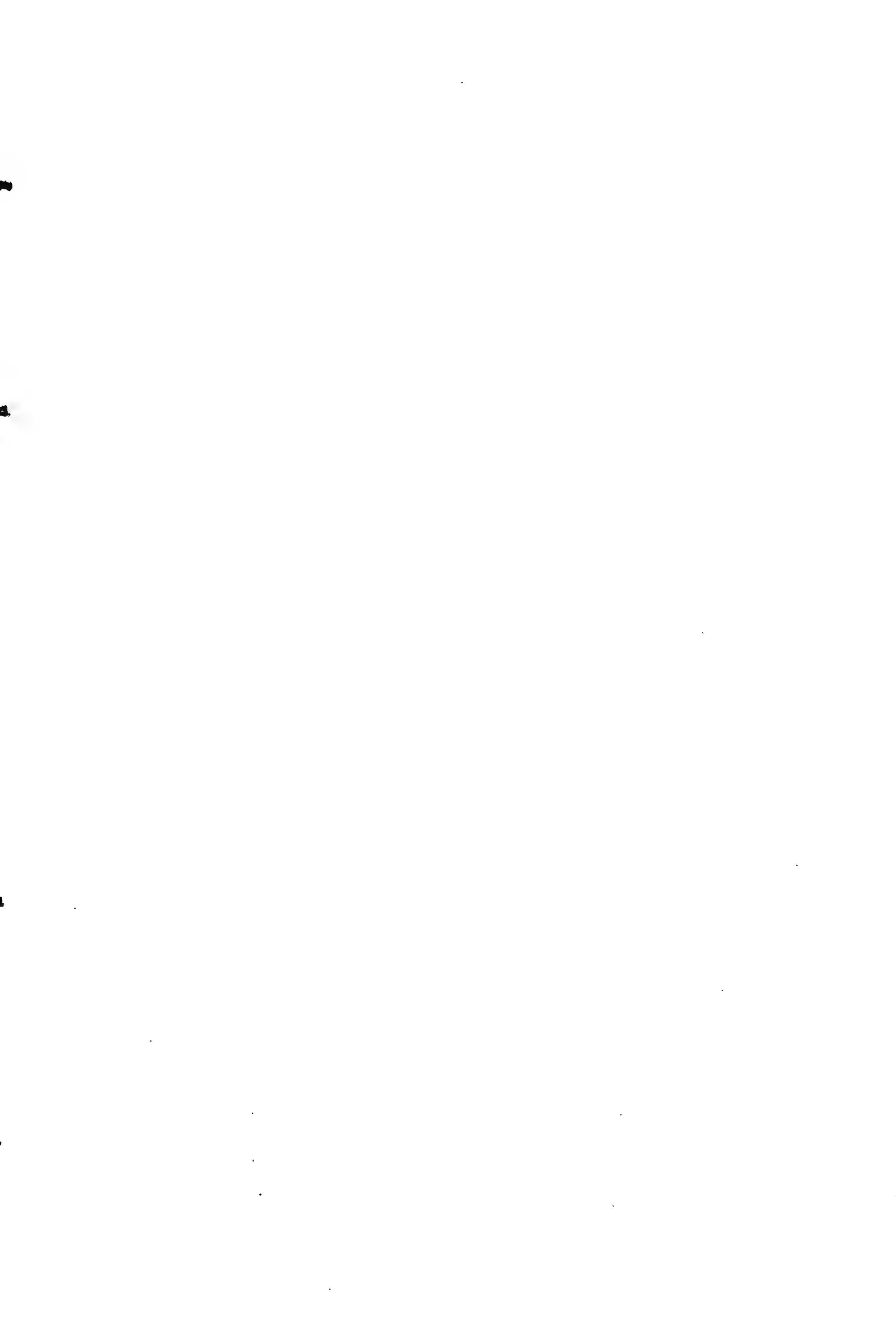
٢- المعتزلة وتعطيل الصفات .

٣- الأشاعرة .

❊ الأشاعرة وابن تيمية .

❊ عودة إلى منهج الصحابة .

❊ ❊ ❊



١ - الحنابلة

ذهب الحنابلة إلى المبالغة فى إثبات الصفات ، ورأوا الأخذ بظاهر الآيات والأحاديث كما وردت من غير تأويل ، وتطرف جماعة منهم فى الأخذ بالظاهر وتفسيره كما ورد . وقد ذكر جمال الدين بن الجوزى فى كتاب « دفع شبه التشبيه» كثيرا من آراء هؤلاء المتطرفين فقال فى ذلك :

رأيت من أصحابنا (الحنابلة) من تكلم فى الأصول بما لا يصلح وانتدب للتصنيف ثلاثة .

أبو عبد الله بن حامد [١] والقاضى أبو يعلى [٢] وابن الزغوانى [٣] .

« فصنفوا كتبا شانوا بها المذهب ، ورأيتهم قد نزلوا إلى مرتبة العوام ، فحملوا الصفات على مقتضى الحس، فسمعوا أن الله سبحانه وتعالى خلق آدم عليه السلام على صورته ، فأثبتوا له صورة ووجها زائدا على الذات ، وعينين وفما ولهوات وأضراسا ، ويدين وأصابع وكفا وخنصرا وإبهاما وصدرا وفخذا وساقين ، ورجلين .

---

(١) هو شيخ الحنابلة فى عصره : أبو عبد الله بن حامد بن على البغدادى الوراق المتوفى سنة ٤٠٣ هـ كان من أكبر مصنفى الحنابلة ، له كتاب فى أصول الاعتقاد سماه شرح أصول الدين، وفيه أقوال تدل على التشبيه والتجسيم .

(٢) هو القاضى أبو يعلى محمد بن الحسين بن خلف بن الفراء الحنبلى المتوفى سنة ٤٥٨ هـ ولقد تكلم فى أصول الاعتقاد كلاما تبع فيه أستاذه ابن حامد وأكثر من التشبيه والتمثيل ، حتى لقد قال فيه بعض العلماء : « لقد شان أبو يعلى الحنابلة شينا لا يغسله ماء البحار » .

(٣) هو أبوالحسن على بن عبيد الله بن نصر الزغوانى الحنبلى المتوفى سنة ٥٢٧ هـ وله كتاب فى أصول الاعتقاد اسمه الإيضاح ، قال فيه بعض العلماء « إن فيه من غرائب التشبيه ما يحار فيه النبيه » .

« وقالوا: ما سمعنا بذكر الرأس .. وقد أخذوا بالظاهر فى الأسماء والصفات. فسموها بالصفات تسمية مبتدعة ، ولا دليل لهم فى ذلك من النقل ولا من العقل ، ولم يلتفتوا إلى النصوص الصارفة عن الظواهر إلى المعانى الواجبة لله تعالى، ولا إلى إلغاء ما توجبه الظواهر من سمات الحدث ، ولم يقنعوا أن يقولوا صفة فعل ، حتى قالوا صفة ذات ، ثم لما أثبتوا أنها صفات قالوا: لا نحملها على توجيه اللغة، مثل يد على نعمة وقدرة ، ولا مجىء وإتيان على معنى بر ولطف ، ولا ساق على شدة ، بل قالوا نحملها على ظواهرها المتعارفة . والظاهر المعهود من نعوت الآدميين ، والشىء إنما يحمل على حقيقته إذا أمكن ، فإن صرف صارف حمل على المجاز ثم يتحرجون من التشبيه ، ويأنفون من إضافته إليهم ويقولون نحن أهل السنة وكلامهم صريح فى التشبيه » [1] .

---

(١) انظر دائرة المعارف الإسلامية : ٥ / ٥٣٥ ، ، أبو زهرة ابن تيمية / ٢٧٣ .

الإمام جمال الدين بن الجوزى الحنبلى : دفع شبه التشبيه والرد على المجسمة ص ١٠ .

وقد حصر أغلاطهم فى سبعة مواضع :

(الأول) : أنهم سموا الأخبار أخبار صفات وإنما هى إضافات وليس كل مضاف صفة فإنه تعالى قال : (ونفخت فيه من روحى) وليس لله صفة تسمى الروح فقد ابتدع من سمى المضاف صفة .

(الثانى) : أنهم قالوا هذه الأحاديث من المتشابه الذى لا يعلمه إلا الله تعالى ثم قالوا نحملها على ظواهرها فواعجبا ما لا يعلمه إلا الله تعالى أى ظاهر له ، وهل ظاهر الاستواء إلا القعود، وظاهر النزول إلا الانتقال .

(والثالث) أنهم أثبتوا لله سبحانه وتعالى صفات ، وصفات الحق جل جلاله لا تثبت إلا بما تثبت به الذات من الأدلة القطعية .

(الرابع) : أنهم لم يفرقوا فى الإثبات بين خبر مشهور كقوله صلى الله عليه وسلم : (ينزل الله تعالى إلى السماء الدنيا) وبين حديث لا يصح كقوله : (رأيت ربى فى أحسن صورة) .

(الخامس) : أنهم لم يفرقوا بين حديث مرفوع إلى النبى صلى الله عليه وسلم وبين حديث موقوف على صحابى أو تابعى فأثبتوا بهذا ما أثبتوا بهذا .

(والسادس) : أنهم تأولوا بعض الألفاظ فى موضع ، ولم يتأولوها فى موضع كقوله : (ومن أتانى يمشى أتيته هرولة) قالوا: ضرب مثلا للإنعام .

(والسابع) : أنهم حملوا الأحاديث على مقتضى الحس ، فقالوا: ينزل بذاته وينتقل ويتحول بذاته ، ثم قالوا: لا كما نعقل. فغالطوا من يسمع وكابروا الحس والعقل) .

(ابن الجوزى : دفع شبه التشبيه والرد على المجسمة ص ٨) .

٢- المعتزلة وتعطيل الصفات

على النقيض من رأى هؤلاء الغلاة ، فى التمسك بظاهر ما تشابه من الآيات والأحاديث الذين صاروا إلى التشبيه والتجسيم .

نجد المعتزلة الذين غلوا فى فهم وحدة الله وتنزيهه فصاروا إلى التعطيل بنفى كل الصفات .

وهؤلاء المعتزلة يرجعون فى الأصل إلى شعبتين : شعبة البصرة التى أسسها واصل بن عطاء (٨٠ - ١٣١ هـ) وشعبة الكوفة التى أسسها بشر بن المعتمر المتوفى عام ٢١٠ هـ وهم فرق كثيرة تختلف فى بعض التفاصيل والجزئيات إلا أنها كلها يجمعها أصول خمسة .

التوحيد ، والعدل ، والوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (١) .

وتطبيقا لأصلهم الأول ، وهو التوحيد تراهم يغلون فى فهم تنزيه الله عن سمات المخلوقين فينفون صفات المعانى من العلم والقدرة والإرادة والحياة حذرا من تعدد القديم ، كما قضوا بنفى السمع والبصر والكلام من عوارض الأجسام (٢).

وهكذا أمعنوا فى هذه الناحية بنفى الصفات حتى سموا أيضا معطلة (٣) .

---

(١) أبو الحسين الخياط المعتزلى الانتصار ص ١٢٦ نشرة الدكتور نيبرج (طبع دار الكتب المصرية عام ١٩٢٥ م) . المسعودى مروج الذهب : ٣/ ١٥٣ - ١٥٤ . الشهرستانى الملل والنحل : ١/ ٥١ .

(٢) ابن خلدون ص ٣٦٨ ، والتفتازانى فى المقاصد ٢ / ٥٤ .

(٣) الملل والنحل ١/ ١١٦ ، التفتازانى ، المقاصد : ٢/ ٥٤ .

أى الذين عطلوا الذات من صفاتها ، فى مقابلة الذين أثبتوها من السلف فسموا بالصفاتية .

* * *

وخير ما يمثل شرح المعتزلة لأصلهم الأول - أعنى التوحيد - هو ما حكاه عنهم الأشعرى فى كتابه القيم مقالات الإسلاميين [1] .

(... إن الله تعالى واحد ليس كمثله شىء فليس بجسم ولا صورة ولا جوهر ولا عرض ، ولا بذى لون ولا رائحة ولا طول ولا عرض ولا عمق ، ولا يتحرك ولا يسكن وليس بذى أعضاء وأجزاء وجوارح، وليس بذى جهات ولا يحيط به مكان ، ولا تجوز عليه المماسة ولا تدركه الحواس ، ولا يقاس بالناس ، ولا يشبه الخلق بوجه من الوجوه ولا تدركه الأبصار ولا يسمع بالأسماع) .

إلى آخر تلك الصفات السلبية كلها التى بها يسلم أصلهم الأول ، وهو توحيد الله فى كل شىء وتنزيهه عن كل مشابهة لشىء من خلقه ما خطر منها بالبال وما لم يخطر .

وهكذا نرى أن رأى المعتزلة فى هذه المسألة يقوم على الاستمساك بآيات التنزيه وتأويل الآيات المتشابهة تأويلا يتفق والتنزيه والتوحيد اللذين جاء بهما الإسلام .

وكان من هذا أنّ أولوا الاستواء على العرش بالاستيلاء واليد بالقدرة أو النعمة ، والعين - فى قوله تعالى : (ولتصنع على عينى) - بالعلم [2] ، وإن أجمعوا على أن الله لا يرى بالأبصار [3] لاستلزام الرؤية الجهة والجسمية عندهم .

* * *

(١) ص ١١٥ - ١٥٦ .

(٢) مقالات الإسلاميين ص ١٥٧ .

(٣) مقالات الإسلاميين ص ١٥٧ .

وقد انتدب المعتزلة أنفسهم للدفاع عن الدين وكانوا أكثر الفرق اتصالا بالفلسفة اليونانية وأسرعهم للإفادة منها .

وقد قربهم بعض الخلفاء العباسيين . فاشتد طغيانهم ولم يتركوا فقيها معروفا ، أو محدثا مشهورا ، أو إماما متبعا إلا أنزلوا به محنة فى رأيه وفكره .

فلم ينج من شرهم إلا من نهج نهجهم [1] .

* * *

---

(١) محمد أبو زهرة : ابن تيمية ١٨٤ .

- ٣ -

الأشاعرة وابن تيمية

ظهر الأشعرى [١] فى آخر القرن الثالث الهجرى وأول القرن الرابع ، وهى فترة تطاحن الملل والنحل والمذاهب والآراء .

فأسس مذهبه الذى عرف فيما بعد بمذهب أهل السنة والجماعة من أصحاب الحديث والرأى وجملة فرق الفقهاء ، أى أصحاب الحق دون من عداهم من المبتدعين .

* * *

تخرج الأشعرى على المعتزلة فى علم الكلام وتتلمذ على أبى على الجبائى حتى صار إمام المعتزلة فى عصره ثم وجد من نفسه ميلا إلى آراء الفقهاء والمحدثين مع أنه لم يغش مجالسهم ولم يتل العقائد على طريقتهم [٢] .

ولذا عكف فى بيته مدة عنى فيها بتحكيم العقل والنظر الصحيح فى آراء تلك الفرق المتعارضة المتناقضة وبخاصة فى آراء المعتزلة أصحابه القدامى .

حتى هدى فى كثير من الحالات إلى رأى وسط يعتبر الحق لدى جمهرة النظار المعتبرين، وفى ذلك يقول ابن خلدون بعد ما حكى فى إيجاز آراء المشبهة والمجسمة ، وما كان من المعتزلة من عقائد تخالف مذهب أهل السلف - يقول :

---

(١) أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعرى، وتوفى سنة ٣٣٠ هـ على أرجح الأقوال .

(٢) محمد أبو زهرة : ابن تيمية ص ١٨٥ .

وكان ذلك سببا لانتهاض أهل السنة بالأدلة العقلية ، على هذه العقائد ، دفعا فى صدور هذه البدع .

وقام بذلك الشيخ أبو الحسن الأشعرى إمام المتكلمين - فتوسط بين الطرق ونفى التشبيه ، وأثبت الصفات المعنوية وقصر التنزيه على ما قصره عليه السلف وشهدت له الأدلة المخصصة لعمومه، ورد على المبتدعة فى ذلك كله، وتكلم معهم فيما مهدوه لهذه البدع من القول بالصلاح ، والتحسين والتقبيح [1] .

وفى مكانة الأشعرى يقول أيضا الحافظ ابن عساكر الدمشقى المتوفى عام ٥٧١ هـ :

إنه فى ذلك العصر [2] قام سوق البدع وحاد أهل الاعتزال عن سنن الاعتدال فنفوا عن الرب سبحانه ما أثبته من صفاته ، وتمادى أهل التشبيه حتى توهموا ربهم جسما يقبل تحيزا وافتراقا وانضماما . حتى جاء أبو الحسن الأشعرى.

فكان لديه الخصام لمن حاول الإلحاد فى أسماء الله وصفاته ، وألزم الحجة لمن خالف السنة فلم يسرف فى التعطيل ، ولم يغل فى التشبيه وكان بين ذلك قواما) [3] .

وقد ظهر توسط الأشعرى وكبار النظار الذين نصروا رأيه من بعده وسموه مذهب أهل السنة والجماعة فى مسائل كثيرة من أهمها مشكلة الصفات .

فقد وجد الأشاعرة أن المشبهة والمجسمة ألغوا عقولهم بحجة التمسك بالظاهر فأضافوا له ما لا يرتضيه عاقل من الصفات التى تدل على أن له تعالى جهة ومكانا و أجزاء ونحو هذا ، وأن المعتزلة غلوا فى الطرف الآخر فنفوا عن الله كل صفة فوقعوا فى التعطيل ، وأن الحق هو التوسط فى الأمر فأضافوا له صفات العلم والقدرة ونحوهما مما لا يوهم التجسيم والتشبيه، وبذلك كانوا بحق وسطا بين طرفى الإفراط والتفريط .

---

(١) المقدمة : ص ٣٦٨ .

(٢) أى عصر الأشعرى فى آخر القرن الثالث وأول القرن الرابع .

(٣) ابن عساكر : تبين كذب المفترى ص ٢٥ ، ٢٦ نشر القدسى بدمشق سنة ١٣٤٧ هـ .

(وقد ذكر شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام أن عقيدة الأشعرى اجتمع عليها الشافعية والمالكية والحنفية والفضلاء من الحنابلة)[1] .

الأشاعرة وابن تيمية :

فصل المقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ ، ١٤٤١ حال المذهب الأشعرى منذ نشأته إلى عهده فقال :

« وحقيقة مذهب الأشعرى رحمه الله أنه سلك طريقا بين النفى الذى هو مذهب الاعتزال . وبين الإثبات الذى هو مذهب أهل التجسيم ، وناظر على قوله هذا، واحتج لمذهبه فمال إليه جماعة وعولوا على رأيه. منهم :

القاضى أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى المالكى .

وأبو بكر محمد بن الحسن بن فورك .

والشيخ إبراهيم بن محمد بن مهران الإسفراييني والشيخ أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالى وأبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستانى.

والإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازى وغيرهم ممن يطول ذكره ، ونصروا مذهبه وناظروا عليه وجادلوا فيه ، واستدلوا له في مصنفات لا تكاد تحصر ، فانتشر مذهب أبى الحسن الأشعرى فى العراق من نحو سنة ثمانين وثلاثمائة وانتقل منه إلى الشام ... »[2] .

وبعد أن ذكر انتشار المذهب فى مصر وفى بلاد المغرب قال :

(فكان هذا هو السبب فى اشتهار مذهب الأشعرى وانتشاره فى أمصار الإسلام بحيث نسى غيره من المذاهب وجهل ، وحتى لم يبق اليوم مذهب يخالفه ، إلا أن يكون مذهب الحنابلة أتباع الإمام أبى عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل رضى الله عنه فإنهم كانوا على ما كان عليه السلف لا يرون تأويل ما ورد من الصفات ،

---

(١) ابن السبكى « طبقات الشافعية الكبرى » ٢/ ٢٥٤ - ٢٥٥ .

(٢) « الخطط» ٤ / ١٨٤ .

إلى أن كان بعد السبعمائة من الهجرة ، اشتهر بدمشق وأعمالها تقى الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحرانى .

فتصدى للانتصار لمذهب السلف وبالغ فى الرد على مذهب الأشاعرة ، وصدع بالنكير عليهم وعلى الرافضة وعلى الصوفية . فافترق الناس فيه فريقين:

فريق يقتدى به ويقول على أقواله ويعمل برأيه ، ويرى أنه شيخ الإسلام وأجل حفاظ أهل الملة الإسلامية ، وفريق يبدعه ويضلله ويزرى عليه إثباته الصفات ، وينتقد عليه مسائل منها ما له فيه سلف ، ومنها ما زعموا أنه فرق فيه الإجماع ولم يكن له فيه سلف [1] وكانت له ولهم خطوب كثيرة ، و حسابه وحسابهم على الله الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ... وله إلى وقتنا هذا عدة أتباع بالشام وقليل بمصر) [2] .

ثم ضعفت الهمم عن الدراسات القوية لعلم الكلام .

« ولم يبق بين الناظرين فى كتب السابقين إلا تحاور فى الألفاظ وتناظر فى الأساليب ، على أن ذلك فى قليل من الكتب اختارها الضعف وفضلها القصور » كما يقول الشيخ محمد عبده فى رسالة التوحيد [3] .

---

(١) أثبت ابن تيمية الفوقية وأن الله فوق إلى أن قال : (ليس فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - ولا عن أحد من سلف الأمة . ولا من الصحابة والتابعين ، ولا عن الأئمة الذين أدركوا زمن الأهواء والاختلاف حرف واحد يخالف ذلك لا نصا ولا ظاهرا ، ولم يقل أحد منهم أن الله ليس فى السماء ، ولا أنه فى كل مكان ، ولا أن جميع الأمكنة بالنسبة إليه سواء ، ولا أنه لا داخل فى العالم ولا خارجه ، ولا متصل ولا منفصل ، ولا أنه لا تجوز الإشارة الحسية إليه بالأصابع ونحوها) .
العقيدة الحموية الكبرى ص ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ .
أقوال قد أثبتها ابن تيمية هى الإشارة الحسية بالأصابع ، والإقرار بأنه فى السماء وأنه يستوى على العرش ، ثم ادعى التنزيه كما ادعى ذلك مقاتل بن سليمان من قبله .

(٢) « الخطط » ٤ / ١٨٥ .

(٣) ص ١٧ طـ صبيح ١٩٦٥ م .

أمـا النهـضـة الحـديثـة لعلم الكلام فـتـقـوم على نوع من التنـافس بين مـذهب الأشعرية ومذهب ابن تيمية .

* * *

وإنا لنشهد تسابقا فى نشر كتب الأشعرى وكتب ابن تيمية [1] .

ويسمى أنصار ابن تيمية أنفسهم بالسلفية . ولكن الغلبة فى بلاد الإسلام لا تزال إلى اليوم لمذهب الأشاعرة .

* * *

---

(١) روى ابن بطوطة ونقل عنه كثيرون ، أن ابن تيميـة قال: إن الله ينزل إلى السمـاء الدنيا «كنزولى هذا » (وكان على المنبر) .

(دائرة المعارف الإسلامية مادة تشبيه ، ٥ / ٢٥٦) .

« كان ابن تيمية يرى الألفاظ فى اليد والنزول والقدم والوجه والاستواء على ظاهرها ، ولكن بمكان يليق بذاته الكريمة » . (أبو زهرة ، ابن تيمية ٢٧٦) ، وأحرى بالقبول أن نحملها على المجاز كتفسير اليد بمعنى القوة أو النعمة والاستواء بمعنى السلطان الكامل ، وتفسير النزول بفيوض النعم الإلهية .. إلخ ، (أبو زهرة ، ابن تيمية ٢٧٧) .

٤- عودة إلى منهج الصحابة

لقد فهم الصحابة والسلف الصالح آيات القرآن ومنها آيات الصفات فهما عمليا ، وهو الذى يتبادر إلى الذهن لأول وهلة، وأيقنوا أن هذه الآيات تصف قدرة الله وجليل نعمائه فاستقر الإيمان فى قلوبهم بالله ربا وخالقا .

واندفعوا إلى الفتح والجهاد والعلم والعمل ، ثم اتسعت الفتوحات واستقرت الدول فى عصورها الذهبية ، فاتجه العلماء والخلفاء إلى ترجمة الكتب الأجنبية ونقلها إلى اللغة العربية، وترجمت كتب الفلسفة والحكمة ، ودخلت تيارات متعددة فى علم الكلام وتفسير القرآن الكريم ، وينادى المخلصون من العلماء الآن بتجريد تفسير القرآن من آراء الفرق ومذاهب المتكلمين . وأن نعود إلى بساطة الصدر الأول ، فى فهم الآيات على معناها الظاهرى، الذى يتبادر إلى الذهن لأول وهلة .

ومنذ أربعين عاما اجتمعت لجنة التفسير بالأزهر برئاسة مفتى مصر الأسبق ووضعت شروطا لتفسير القرآن منها :

ألا تخضع اللجنة إلا لما تدل عليه الآية الكريمة ، فلا تتقيد بمذهب معين من المذاهب الفقهية ، ولا مذهب معين من المذاهب الكلامية وغيرها .

إن من إعجاز القرآن قدرته على مواجهة الحياة ، وإثراء نواحى الخير فيها ومواكبة الإنجازات العلمية والنفسية وما يتصل بها .

وفى العصر الحديث نلمس صدق القرآن فى إشارته إلى حقائق تتصل بعلوم الكون والحياة ووظائف الأعضاء والحيوان والنبات وطبقات الأرض وغيرها .

ورغم مضى أربعة عشر قرنا على نزول القرآن فإن قوانينه باقية وأصوله ثابتة وهدايته مستمرة وآياته صادقة .

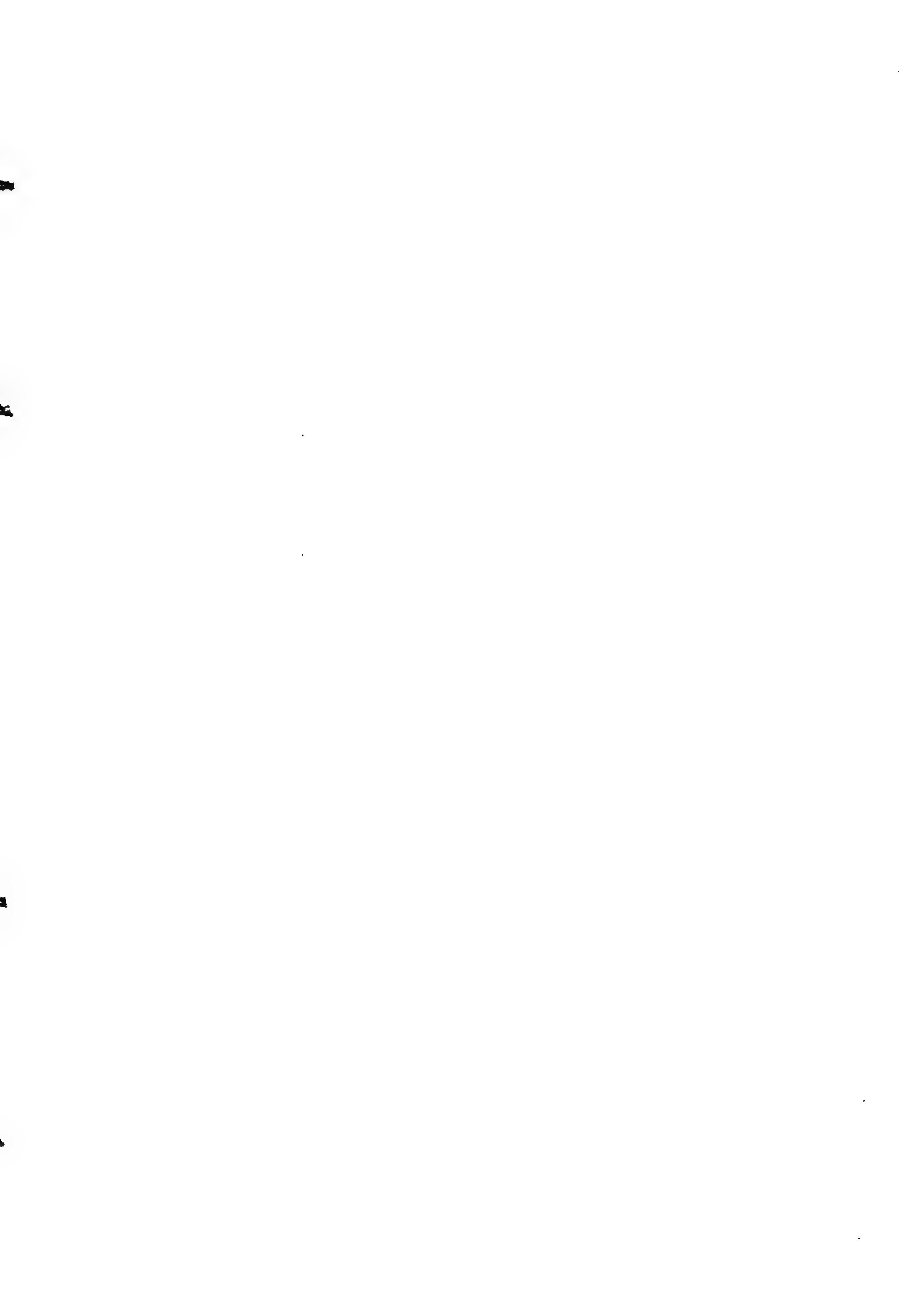
قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً﴾ (الأنعام : ١١٥) .

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت : ٥٣) .

* * *

الفصل السابع

نزول القرآن على سبعة أحرف



الفصل السابع

نزول القرآن على سبعة أحرف

١- روى مسلم وابن جرير عن أبى بن كعب أن النبى صلى الله عليه وسلم كان عند أضاة بنى غفار [١] ، فأتاه جبريل فقال : « إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرف » ، فقال : « أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتى لا تطيق ذلك » ، ثم أتاه الثانية فقال: « إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرفين » ، قال: «أسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمتى لا تطيق ذلك » ، ثم جاءه الثالثة: « إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف » ، قال: « أسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمتى لا تطيق ذلك» . ثم جاءه الرابعة فقال : « إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على سبعة أحرف ، فأيما حرف قرأوا عليه فقد أصابوا» .

٢- وروى الإمام أحمد من حديث أبى بكرة أن جبريل قال للنبى صلى الله عليه وسلم : « اقرأ القرآن على حرف ، فقال ميكائيل : استزده، حتى بلغ إلى سبعة أحرف ، فقال : كلها كاف شاف ، كقولك : هلم وتعال، ما لم تختم آية عذاب برحمة، أو آية رحمة بعذاب » ، وقد فسر ابن عبد البر هذا الحديث بأنه تمثيل لنوع التغيير الذى يرد فى الأحرف السبعة ، ومعناه أن القراءات لا ترد بالمعانى المتضادة، لا أن الناس أحرار فى وضع كلمة مكان أخرى ما لم يختموا آية عذاب برحمة ، أو آية رحمة بعذاب .

٣- وروى الترمذى عن أبى بن كعب أنه قال: لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل فقال: « يا جبريل ، إنى بعثت إلى أمة أمية ، منهم العجوز و الشيخ

---

(١) الأضاة: كقناة مستنقع الماء كالغدير والجمع أضا كعصا .

الكبير والغلام والجارية والرجل الذى لم يقرأ كتابا قط » ، فقال له : « يا محمد ، إن القرآن أنزل على سبعة أحرف » .

٤- وروى البخارى ومسلم ومالك فى الموطأ وأبو داود والنسائى وغيرهم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستمعت لقراءته ، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكدت أساوره فى الصلاة ، فتصبرت حتى سلم ، فلببته بردائه ، فقلت : من أقرأك هذه السورة التى سمعتك تقرأ ؟ قال: أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقلت : كذبت ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أقرأنيها على غير ما قرأت . فانطلقت به أقوده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : إنى سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أرسله ، اقرأ يا هشام» . فقرأ عليه القراءة التى سمعته يقرأ . فقال رسول الله صلى الله عليه سلم: « كذلك أنزلت » ثم قال : « اقرأ يا عمر » . فقرأت القراءة التى أقرأنى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كذلك أنزلت . إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرأوا ما تيسر منه » .

٥- قال السيوطى : « وفى فضائل أبى عبيدة من طريق عون بن عبد الله - أن ابن مسعود أقرأ رجلا : « إن شجرة الزقوم طعام الأثيم » فقال الرجل : طعام اليتيم. فردها عليه ، فلم يستقم بها لسانه . فقال: أتستطيع أن تقول : طعام الفاجر؟ قال : نعم . قال : فافعل » [1] .

وحديث أبى بكرة المار - على ما فسره به ابن عبد البر - يمنعنا من قبول هذا الحديث المروى عن ابن مسعود .

هذه جملة من الآثار التى وردت فى نزول القرآن على سبعة أحرف .

وقد اختلف العلماء فى المراد بهذه الأحرف السبعة على أقوال كثيرة : أوصلها ابن حبان إلى خمسة وثلاثين ، وقال السيوطى : إنها تبلغ الأربعين .

---

(١) الإتقان : ص ٤٧ جـ ١ .

وقبل الخوض فى بيانها ينبغى أن ننبه على أمرين :

الأول – أن عدد السبعة قد يطلق ويراد به حقيقة هذا العدد ، كقوله تعالى: ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ (٢) .

وقد يطلق ويراد منه الكثرة فى الآحاد ، كما يطلق السبعون للكثرة فى العشرات ، والسبعمائة للكثرة فى المئين ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾ (٣) ، وقوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ (٤) ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف » . قال العلماء : وقد جرت الأساليب السامية كلها على هذا .

الثانى – أن معنى الحرف فى الأصل طرف الشىء وحده ، ومنه حرف الجبل لأعلاه المحدد، ومنه الحرف من حروف الهجاء ، لأنها أطراف للكلمات .

وقد يطلق على الوجه من وجوه الشىء ، لأن كل وجه من وجوهه طرف له ، ومنه فى الوجوه المعنوية قوله تعالى: « ومن الناس من يعبد الله على حرف » ، أى على وجه من الوجوه التى ينبغى أن تكون عليها العبادة ، وهى وجوه اليسر والرخاء، والشدة والبلاء ، فهو يعبد الله على الرخاء دون البلاء . وقد بينت الآية ذلك فى قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ (٥) .

---

(١) الحجر : ٤٤ .
(٢) الكهف : ٢٢.
(٣) البقرة : ٢٦١ .
(٤) التوبة : ٨٠ .
(٥) الحج : ١١ .

وقد يطلق الحرف على اللغة أو اللهجة الخاصة ، لأن كل لغة أو لهجة خاصة هى وجه من وجوه اللغات العامة ، وصورة من صورها ، أو ناحية من نواحيها ، أو لأن اللغة أو اللهجة مؤلفة من حروف الهجاء من باب إطلاق اسم الجزء على الكل .

وكذلك يطلق الحرف على القراءة الخاصة من قراءات القرآن ، لأنها وجه من أوجه الأداء ، له صفات وكيفيات خاصة .

أما آراء العلماء فى المراد بالأحرف السبعة - فسنذكر ونناقش منها ما يعد أقربها ، وإليه يرجع أكثرها ، ومن ذلك :

أولا - ما ذهب إليه بعضهم : من أن المراد بها أنواع المعانى الواردة فى كتاب الله تعالى. وهى الأمر ، والنهى ، والوعد ، والوعيد ، والقصص ، والجدل ، والأمثال، فعدد السبعة على هذا مستعمل فى حقيقته ، والحرف هو كل معنى من هذه المعانى التى عدوها . ولعلهم سموا كل نوع منها حرفا؛ لأنه ناحية من نواحى القول ، وغرض من أغراضه .

وقد استدلوا لما ذهبوا إليه :

١- بما روى أبو سلمة بن عبد الرحمن عن ابن مسعود أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « كان الكتاب الأول نزل من باب واحد ، وعلى حرف واحد ، ونزل القرآن من سبعة أبواب ، وعلى سبعة أحرف : زجر وأمر ، وحلال وحرام ، ومحكم ومتشابه ، وأمثال ، فأحلوا حلاله، وحرموا حرامه، وافعلوا ما أمرتم به ، و انتهوا عما نهيتم عنه ، واعتبروا بأمثاله، واعملوا بمحكمه، وآمنوا بمتشابهه، وقولوا آمنا به، كل من عند ربنا » .

٢- بما روى أبى بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أمرت أن اقرأ القرآن على سبعة أحرف من سبعة أبواب الجنة » . وكأنهم فهموا من هذا أن كل حرف باب من أبواب الجنة .

وهذا الرأى مردود من وجوه :

١- أن ما روى الترمذى عن أبى بن كعب يدل على أن المراد بتعدد الحروف التوسعة والتيسير على الناس فى القراءة ، وسبيل هذا اختلاف طرق الأداء أو الألفاظ باختلاف اللهجات والقبائل ، لا تغير الأحكام ، لأن هذا هدم للتشريع ، وتفريق للجماعة ، لا تيسير للقراءة .

٢- أن ما روى الإمام أحمد من حديث أبى بكرة فى سبعة الأحرف : من قوله: « كلها كاف شاف ، كقوله هلم تعال » - يدل على أن سبعة الأحرف تختلف فيها الألفاظ دون المعانى ، ولا يستقيم مع هذا تفسيرها بما ذهبوا إليه .

٣- أن التفسير الذى ذهبوا إليه لا يناسب الأحاديث التى أوردناها فى الأحرف السبعة ، إذ لا يعقل أن يكون الخلاف بين عمر وهشام فى قراءة سورة الفرقان - خلافا فى الأمر والنهى ونحوهما، فإنه لو كان كذلك ما صحح النبى صلى الله عليه وسلم قراءة كل منهما ، لأن تصحيح قراءتين إحداهما تأمر بشىء والثانية تنهى عنه - إبطال لقوله تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ٨٢) .

٤- ما روى أن مجاهدا [١] كان يقرأ القرآن على خمسة أحرف ، وأن سعيد بن جبير [٢] كان يقرأه على حرفين ، وأن يزيد بن الوليد كان يقرؤه على ثلاثة أحرف ، فإنه لايعقل أن واحدا من هؤلاء كان يقرأ الأوامر دون النواهى ، أو الوعد دون الوعيد مثلا .

٥- أما ما استدلوا به من حديث ابن مسعود : « نزل القرآن من سبعة أبواب ، وعلى سبعة أحرف : زجر وأمر ... إلخ » - فمطعون فيه بأن راويه عن ابن مسعود- وهو أبو سلمة بن عبد الرحمن - لم يلق ابن مسعود ، وإن سلمنا صحته فما ذكر فيه

---

(١) تابعى توفى سنة ١٠٣ هـ .

(٢) تابعى قتله الحجاج فى فتنة ابن الأشعث سنة ٩٥ هـ .

من الزجر والأمر .. إلخ - تفسير لأبواب الجنة ، لا للأحرف السبعة ، وذلك أن الكتب السابقة كانت تنزل بباب واحد من أبواب القرب والطاعات الموصلة إلى الله، فزبور داود مثلا كان تذكيرا وموعظة . وإنجيل عيسى كان تمجيدا ومحامد ، وحضا على الصفح والإعراض ، وهكذا ، أما القرآن فقد نزل مشتملا على أبواب مختلفة : كل باب منها سبيل إلى رضوان الله تعالى ومثوبته .

ومما يؤيد هذا التأويل ما ورد فى بعض طرق الحديث : « زاجرا، وآمرا .. إلخ» بالنصب على الحال . وعلى هذا يفهم حديث أبى بن كعب .

ثانيا - ما ذهب إليه بعض آخر : من أن المراد بالأحرف السبعة - القراءات السبع التى صحت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى القراءات السبع المشهورة .

وهو رأى ظاهر البطلان ، فقد نزل القرآن قبل أن يخلق القراء السبعة، وأول من حصر القراءات فى سبع هو أبو بكر بن مجاهد (٢٤٥ - ٣٢٤ هـ) . وقد نشأ هذا الحصر باختيار المؤلفين فى القراءات لأمثل الرواة وأكثرهم شهرة وتعرضا لتعليم الناس ، فكان عددهم سبعة من باب الاتفاق ، ولهذا ود كثير من العلماء لو أن أبا بكر زاد على السبعة أو نقص عنها حتى لا يقع الناس فى هذا اللبس .

وقد جمع عثمان الناس من قبل على حرف واحد - كما قال ابن جرير - فكانت القراءات السبع راجعة إلى هذا الحرف من الأحرف السبعة ، لا أنها هى . ولو صح هذا الرأى لكان ما خرج عن القراءات السبع غير قرآن وإن ثبت عن الأئمة ووافق خط المصحف ، وهذا خطأ لم يقع فيه أحد من أرباب هذا الفن .

ثالثا - ما ذهب إليه ابن قتيبة والقاضى أبو الطيب وبعض العلماء : أنها وجوه الاختلاف فى القراءة . قال ابن الجزرى : ما زلت أستشكل هذا الحديث، وأفكر فيه، وأمعن النظر ، من نيف وثلاثين سنة حتى فتح الله على بما يمكن أن يكون صوابا إن شاء الله ، وذلك أنى تتبعت القراءات : صحيحها وشاذها . وضعيفها

ومنكرها ، فإذا هى يرجع اختلافها إلى سبعة أوجه من الاختلاف لا يخرج عنها ... إلخ ، وقد حصرها فيما يأتى :

١- اختلاف الحركة فقط مع بقاء المعنى والصورة ، مثل : « هن أطهر لكم»، و« يضيق صدرى » ، برفع أطهر ويضيق ، ونصبهما.

٢- اختلاف الحركة والمعنى مع بقاء الصورة ، مثل : « ربنا باعد بين أسفارنا» بصيغة الأمر ، و « ربنا باعد بين أسفارنا » بصيغة الماضى .

٣- اختلاف الحروف والمعنى مع بقاء الصورة ، مثل : « وانظر إلى العظام كيف ننشزها » أى نرفعها ، و« ننشرها» ، أى نحييها .

٤- اختلاف الصورة مع بقاء المعنى ، مثل : « كالعهن المنفوش » ، و«كالصوف المنفوش » .

٥- اختلاف الصورة والمعنى ، مثل : « وطلح منضود » ، وهو شجر عظيم ، والموز ، والطلع ، و« طلع منضود » وهو من النخل ما يخرج منه من الحمل .

٦- اختلاف العبارة بالتقديم والتأخير ، مثل : « وجاءت سكرة الموت بالحق»، « وجاءت سكرة الحق بالموت » .

٧- اختلاف العبارة بالزيادة والنقصان ، مثل « تسع وتسعون نعجة» ، و« تسع وتسعون نعجة أنثى » ومثل : « وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين » ، « وأما الغلام فكان كافرا وأبواه مؤمنين » ، ومثل : « فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم» ، و« من بعد أكراههن لهن... » .

والذى نحا هذا النحو من العلماء لم يحمله عليه إلا استمساكه بتفسير العدد بحقيقة معناه ، فوقع بهذا فيما يشبه الألغاز ، وما لا تتجه إليه الأذهان ، ولا يلائم حال الناس فى عصر التنزيل و لا فى غيره ، فقد رخص لهم فى القراءة على وجوه مختلفة فى وقت كان أكثرهم لا يعرف القراءة والكتابة ، فكيف تتوجه أذهانهم إلى معرفة هذه الصور التى لم يهتد إليها ابن الجزرى إلا بعد التفكير نيفا وثلاثين سنة؟

إن منزلة الرسول صلى الله عليه وسلم عند المسلمين أجل من أن يقصد بكلامه إلى هذه الألغاز التى لا قيمة لها فى إصلاح دين ، ولا فى تهذيب خلق .

رابعا - ما قيل إن المراد بالأحرف السبعة: سبع لغات عربية ، وعدد السبعة على حقيقته ، وليس المراد أن كل كلمة فى القرآن تقرأ على سبعة أوجه ، بل اللغات السبع متفرقة فيه ، وقد تقرأ بعض الكلمات على سبعة أوجه .

وقد اختلف هؤلاء فى اللغات السبعة التى نزل بها القرآن :

فقيل : هى سبع لغات من لغة مضر ، لما أثر عن عثمان رضى الله عنه من قوله : نزل القرآن بلغة مضر . وقد كان ابن مسعود يحب أن يكون الذين يكتبون المصاحف من مضر ، فجائز أن يكون منها لقريش ، ومنها لكنانة ، ومنها لأسد ، ومنها لهذيل ، ومنها لتيم ، ومنها لضبة ، ومنها لقيس .

وقيل: هى سبع لغات من لغات العرب عامة ، لا من مضر وحدها، قالوا : وفى مضر شواذ لا تجوز قراءة القرآن بها ، مثل كشكشة قيس (أو أسد أو ربيعة) الذين يجعلون كاف المؤنث شينا ، فيقولون مثلا فى قوله تعالى: « قد جعل ربك تحتك سريا » - : « قد جعل ربش تحتش سريا» . ومثل تمتمة تميم الذين يجعلون السين تاء ، فيقولون فى الناس : النات ، وفى أكياس أكيات، وهكذا . وكذا، ومثل عنعنتهم ، وهى قلب الهمزة عينا ، فيقولون فى أن : عن ، وفى أمان : عمان .

وقد روى عن عثمان أنه قال حين أمرهم أن يكتبوا المصاحف : ما اختلفتم فيه أنتم وزيد فاكتبوه بلغة قريش ، فإنه نزل بلغتهم .

ولا تنافى بين هذه الرواية والتى سبقتها عنه ، لاشتمال القرآن على لغات مختلفة من لغات العرب أجمعين .

وروى أن ابن عباس لم يتبين له معنى فطر - وهو معروف عند غير قريش- حتى اختصم إليه أعرابيان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها . وحينئذ فهم أن معنى الفطر فى قوله تعالى : « فاطر السموات والأرض » الإنشاء والابتداء . وكذلك

قوله تعالى « ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق » - قال ابن عباس : ما كنت أدرى معناه حتى سمعت بنت ذى يزن تقول لزوجها : تعالى أفاتحك . أى أحاكمك .

وقد وقع مثل هذا لعمر فى قوله تعالى: « أو يأخذهم على تخوف » أى على تنقص .

وقد اعترض هذا الرأى من وجهين :

١- أن لغات العرب أكثر من سبع ، فلم اقتصر على بعضها وكلهم فى حاجة إلى التيسير ؟ ولم كان الاقتصار على هذا البعض بعينه ؟

ويمكن أن يقال : إنه اقتصر على ما يقع به التيسير للجميع ، فاختار أفصح اللغات وأسهلها منطقا، وأهمل الشواذ التى ذكرنا مثلها ، لعدم اتفاق الألسنة على استساغتها .

ولا دليل مع هذا لما ذهبوا إليه من تعيين اللغات التى عينوها، ولعل فى ذلك ما يصرفنا عن تفسير السبعة بالعدد الخاص إلى تفسيره بالكثرة ، بيانا لليسر والسعة، كما قال عياض ومن تبعه .

٢- أن عمر خالف هشاما فى سورة الفرقان وكلاهما قرشى ، وهذا يدل على أنه ليس المراد بالأحرف السبعة اللغات المختلفة .

ويمكن أن يقال: إن اتفاق عمر وهشام فى القرشية لا يمنع واحدا منهما من القراءة بحرف من غير لغة قريش ما دام قد سمعه من النبى صلى الله عليه وسلم .

قال ابن حجر بعد إيراد هذا الرأى : « وحاصل ما ذهب إليه هؤلاء أن معنى قوله: أنزل القرآن على سبعة أحرف - أنه أنزل موسعا على القارئ أن يقرأه على سبعة أوجه ، أى يقرأ بأى حرف أراد منها على البدل من صاحبه [1] ، كأنه قال:

---

(١) معنى « على البدل من صاحبه» - أن يقرأ القارئ العبارة بوجه واحد من الوجوه التى تصح فيها .. وانظر بعد هذا إلى ما يفعله بعض القراء فى زمننا مما يسمونه « الجمع» . وذلك أن يقرأ القارئ الآية أو بعضها بإحدى الروايات ، ثم يعيد قراءتها برواية أخرى ، ثم يعيدها كذلك حتى يستنفد ما يعرف من القراءات فيها . وقد يتشبه الجاهل منهم بالعارف ، فيعيد=

اتل على هذا الشرط ، أو على هذه التوسعة ، وذلك لتسهيل قراءته ، إذ لو أخذوا بأن يقرأوه على حرف واحد لشق عليهم كما تقدم. قال ابن قتيبة فى أول تفسير المشكل له : كان من تيسير الله أن أمر نبيه أن يقرأ كل قوم بلغتهم ، فالهذلى يقرأ ، عتى حين، يريد حتى حين، والأسدى يقرأ : تعلمون بكسر أوله ، والتميمى يهمز ، والقرشى لا يهمز . قال : ولو أراد كل فريق منهم أن يزول عن لغته وما جرى عليه لسانه طفلا وناشئا وكهلا لشق عليه غاية المشقة ، فيسر عليهم ذلك بمنه » أ. هـ [1] ، وفى هذا تعليل للتوسعة مقبول ، وإن لم يتعرض لبيان المراد من عدد السبعة .

خامسا – ما حكى ابن عبد البر إذ قال: أنكر أكثر أهل العلم أن يكون معنى الأحرف اللغات ، لما تقدم من اختلاف هشام وعمر ولغتهما واحدة . قالوا : وإنما المعنى سبعة أوجه من المعانى المتفقة ، بالألفاظ المختلفة ، نحو : أقبل : وتعال ، وهلم، وقد تكون هذه الأوجه من لغات مختلفة ، أو من لغة واحدة . وهو قريب من القول السابق .

ونستطيع بعد كل ما أوردنا أن نقرر الحقائق الآتية :

١- أن سبب إباحة القراءة على أحرف كثيرة هو التيسير ونفى الحرج عن العباد ، بدليل ما ورد فى حديث الترمذى عن أبى بن كعب . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لقى جبريل فقال: إنى بعثت إلى أمة أمية : منهم العجوز ... إلخ، وليس

= قراءة الآية أو العبارة مرات بنفس القراءة التى لا يعرف سواها ، منحرفا بالحروف عن مخارجها ، ومعنيا بتلوين النغمات ، ليوهم السامعين أنه خبير بالقراءات ، وما هو إلا لاعب بالآيات البينات .وقد يهون الخطب لو أنهم وقفوا عند هذا الحد ، ولكن السخف بلغ بالجهلة منهم إلى حد أن كرروا الكلمة الواحدة فى الآية ، ليعرضوا على السامعين ما ورد فيها من قراءات . فيقولون مثلا : « وترى الشمس إذا طلعت تزاور تزوار تزور تزوئر عن كهفهم ذات اليمين» وفى هذا من الإخلال بالنظم الكريم وصرف الناس عن تدبر معانيه . إلى الإعجاب بصناعة قارئيه – مايجب أن يتنزه عنه صادق الإيمان الراغب فى هداية القرآن ومثوبة الرحمن .

(١) راجع ص ٢٣ جـ ٩ فتح البارى .

معنى هذا أن لكل قارئ أن يبدل أية كلمة بمرادفها ، أو يعرب كلمة بما يرى من وجوه الإعراب الصحيحة فيها ، إذ لو كان الأمر كذلك لوقعت الفوضى فى التلاوة ، واختلف الناس ، بل لابد لصحة القراءة من سماعها من النبى صلى الله عليه وسلم ، أو موافقته عليها . ويدل لهذا ما ورد فى الأحاديث السابقة ، ففى حديث مسلم عن أبى بن كعب : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك .. إلخ ، وفى حديث عمر وهشام قال كل منهما : أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولهذا نرفض ما روى عن ابن مسعود فى طعام الأثيم وطعام الفاجر .

٢- أن التوسع فى قراءة القرآن على حروف أو وجوه - لم يكن إلا بعد الهجرة حينما كثر دخول القبائل المختلفة فى الإسلام ، لما ورد فى حديث ابن جرير عن أبى بن كعب : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان عند أضاة بنى غفار ... وهو موضع بالمدينة .

٣- أن القرآن كان ينزل قبل الهجرة بلغة قريش ، ثم استمر نزوله بها بعد الهجرة ، ولهذا أنكر عمر على ابن مسعود قراءته : عتى حين ، وكتب إليه : إن القرآن لم ينزل بلغة هذيل ، فأقرئ الناس بلغة قريش ، ولا تقرئهم بلغة هذيل [1] . وروى عن عثمان أنه قال حين أمر بكتابة المصاحف : ما اختلفتم فيه أنتم وزيد فاكتبوه بلغة قريش ، فإنه نزل بلغتهم .

٤- أن كلمة القرآن فى قوله صلى الله عليه وسلم : « أنزل القرآن على سبعة حروف» - تشمل ما نزل منه بعد الهجرة وما نزل قبلها ، إذ لا وجه لأن يكون التيسير على الناس فى القراءة مقصورا على بعض القرآن دون بعض .

٥ - وإذن لا يكون معنى نزول القرآن على وجوه - أن جبريل كان يقرأ كل آية ينزل بها على الرسول مرات بعدد هذه الوجوه ، بل معناه أنه كان ينزل بلغة قريش ، قابلا لأن يقرأ بوجوه عربية أخرى .

---

(١) أخرجه ابن عبد البر من طريق أبى داود (فتح البارى ٩ - ٢٢) .

٦- تبين عجز العلماء عن تفسير الحروف بما يطابق عدد السبعة تفسيرا مقبولا، فوجب صرف العدد إلى معنى الكثرة الذى شاع استعماله فيه فى لغة العرب، وهو تفسير ملائم للمقام : ارتضاه عياض ومن تبعه ، ولا اعتراض عليه .

٧- ويميل بنا هذا إلى ترجيح ما حكاه ابن عبد البر عن أكثر أهل العلم : من أن الحروف وجوه من الأداء تتفق فيها المعانى ، وتختلف الألفاظ ، غير أنا نرى أن اختلاف الألفاظ لا يصل إلى حد أن توضع كلمة مكان أخرى يتغير بها المعنى ، أو لا يظهر فيها وجه التيسير الذى شرعت القراءات من أجله .

وإذا رجعنا إلى ما ورد فى القرآن من القراءات المختلفة وجدناه - بالإضافة إلى سبب التوسعة - نوعين :

١- ما يظهر فيه وجه التوسعة ، ويتحقق به التيسير ، ومنه : عتى حين ، وحتى حين ، فإن من اعتاد أن ينطق عتى بالعين يصعب عليه أن يكلف نطقها بالحاء، ومثل : « ويوم نحشرهم » ، بضم الشين وكسرها ، و« مكانا ضيقا» بتخفيف الياء وتشديدها ، فإن من اعتاد النطق بأحد الوجهين فيهما يثقل عليه أن يلزم بالوجه الآخر ، وكذلك من اعتاد كسر حرف المضارعة فى مثل تعلمون - يثقل عليه أن يلزم بفتحه ، وهكذا .

٢- ما لا يظهر فيه وجه للتيسير ، ومنه قوله تعالى: « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده » أو عباده أو عبيده ، وقوله تعالى: « لولا أنزل إليه ملك فيكون» أو فيكون، وقوله تعالى: « أو تكون له جنة يأكل منها» أو نأكل منها .

ومن هذا النوع ما لا تتناقض فيه المعانى باختلاف القراءة، ومنه ما تتناقض. فمن الأول قوله تعالى بعد ذكر الكتاب والرسول فى سورة يونس : « قال الذين كفروا إن هذا لساحر مبين» ، قرأه ابن كثير والكوفيون « لساحر » على أن الإشارة للرسول، وقرأه الباقون « لسحر» على أنها للقرآن ، والمعنيان متلازمان. ومن الثانى قوله تعالى فى سورة الأنبياء : « قال ربى يعلم القول فى السماء والأرض » قرئ «قال» بصيغه الماضى ، وقرئ «قل» بصيغة الأمر . والمسند إليه على القراءتين هو

الرسول صلى الله عليه وسلم ، والآية على القراءة الأولى إخبار عن قول قاله ، فتكون متأخرة فى النزول عن القول، وعلى القراءة الثانية أمر له بأن يقول ، فتكون متقدمة عليه ، والواقع هو أحد الفرضين دون الآخر لا محالة ، فكيف نوفق بين القراءتين ؟

ولعل مثل هذا هو الذى حمل بعض المستشرقين على رد الخلاف فى القراءة فى كثير من المواضع إلى عدم النقط والشكل فى الكتابة العربية فى عهدها الأول ، كقوله تعالى: « إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا» أو «فتثبتوا» . وقوله تعالى: « ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون» و « تستكثرون» ، وقوله تعالى: « وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته» أو : « نشرا» ، وقوله تعالى: « وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه » أو «وعدها أباه» . ونحو ذلك .

ولكن علماءنا قد عنوا بوضع مقياس لقبول القراءة وصحة الاعتداد بها، والمشهور عندهم أن شروط ذلك ثلاثة : استقامة الإعراب والمعنى ، وصحة السند والموافقة لرسم المصحف المأثور. والأصوليون والفقهاء لا يكتفون بصحة السند ، بل يشترط الشافعية التواتر ، ويشترط الحنفية الشهرة ، وقد نسب الصفاقسى شرط التواتر إلى المحدثين والقراء كذلك [(١)] .

فإذا كانت القراءة بعد هذا مما يظهر فيه وجه التيسير فلا كلام فى قبولها ، وإذا كانت من النوع الثانى فقد تكون إباحتها لمجاراة العرب فيما ألفوا من توجيه الهمة إلى العناية بالمعنى ، ووضع العناية باللفظ فى المرتبة الثانية [(٢)] .

« تنبيه» مما أدخله الناس فى باب القراءات وليس منه - القراءات التفسيرية، وتشمل كل قراءة مفسرة فيها زيادة عن المصحف ، ومن ذلك ما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأ « يأيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن فى قبل عدتهن»،

---

(١) أصول التشريع الإسلامى للأستاذ على حسب الله ص ١٩ ، ٢٠ .

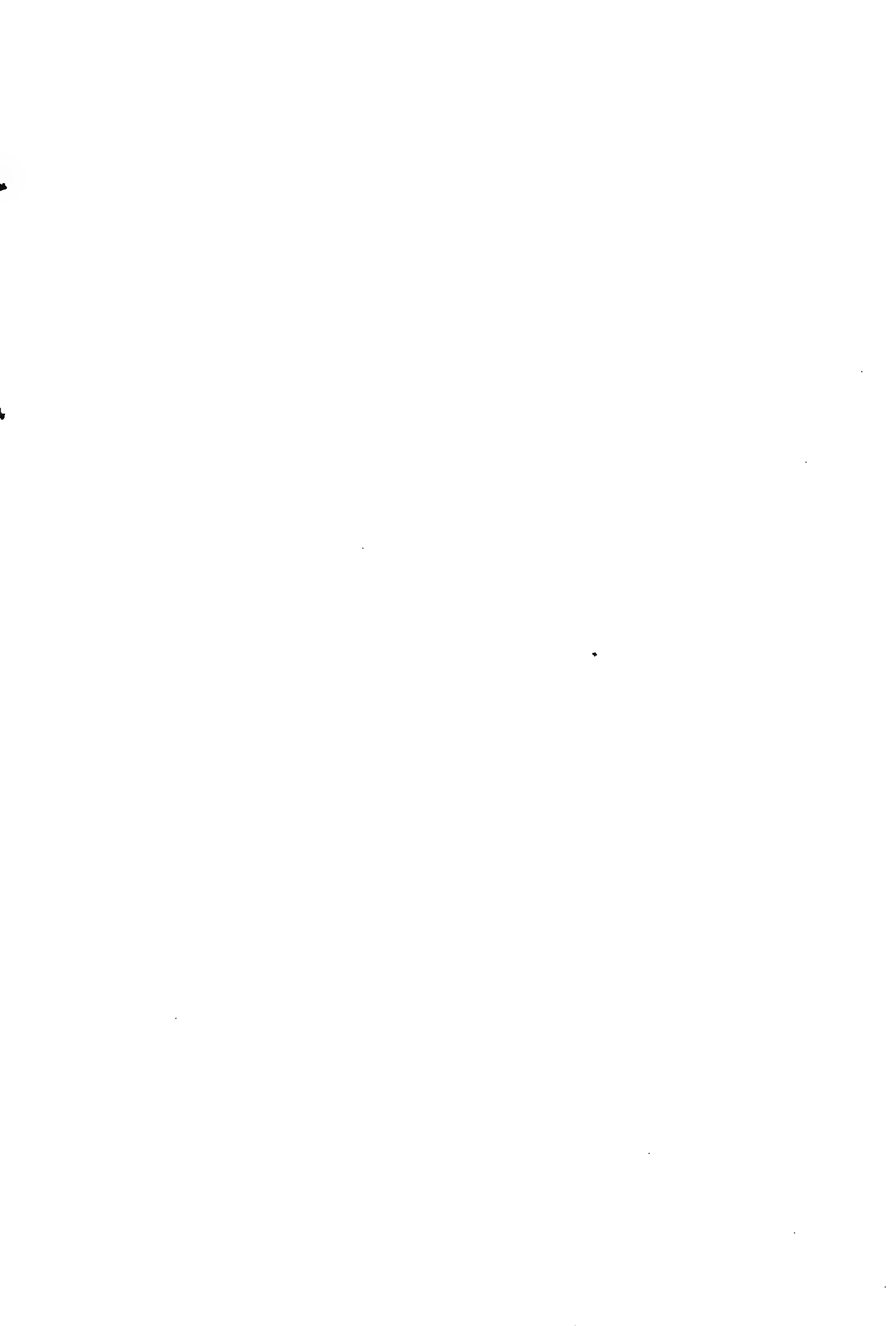
(٢) الموافقات للشاطبى ٢ -٤٦ ، ٥٣ .

وما روى عن ابن مسعود أنه قرأ : « فصيام ثلاثة أيام متتابعات » ، وأنه قرأ :« للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا فيهن فإن الله غفور رحيم » ، وعن سعد بن أبى وقاص أنه قرأ : « وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت من أمه» ، وعن أبى : « وله أخ أو أخت من الأم» ونحو ذلك .

* * *

الفصل الثامن

ترجمة القرآن



الفصل الثامن
ترجمة القرآن

الترجمة : هى : التعبير عن معنى كلام فى لغة بكلام آخر من لغة أخرى ، مع الوفاء بجميع معانيه ومقاصده .

وتنقسم الترجمة إلى قسمين :

حرفية وتفسيرية .

فالترجمة الحرفية هى التى تراعى فيها محاكاة الأصل فى نظمه وترتيبه ، فهى تشبه وضع المرادف مكان مرادفه ، وبعض الناس يسمى هذه الترجمة ترجمة لفظية، وبعضهم يسميها مساوية .

والترجمة التفسيرية هى التى لا تراعى فيها تلك المحاكاة ، أى محاكاة الأصل فى نظمه وترتيبه ، بل المهم فيها حسن تصوير المعانى والأغراض كاملة ، ولهذا تسمى أيضا بالترجمة المعنوية ، وسميت تفسيرية لأن حسن تصوير المعانى والأغراض فيها ، جعلها تشبه التفسير وما هى بتفسير .

ولنضرب مثالا للترجمة بنوعيها ، على فرض إمكانها ، فى آية من الكتاب العزيز .

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ .

(الإسراء : ٢٩)

فالترجمة الحرفية هى (لا تربط يدك فى عنقك ولا تجعلها ممدودة غاية المد) .

أما الترجمة التفسيرية ، فإنك تعمد إلى التعمق فى فهم الآية ، بالنهى عن التقتير والتبذير ، فى أبشع صورة منفرة ، ولا عليك من عدم رعاية الأصل فى

نظمه وترتيبه اللفظى ، وقد قال بعض المختصين : إن الترجمة الحرفية مستحيلة ، لأنها تحتاج إلى مفردات وضمائر وروابط متشابهة بين اللغتين المنقول منها والمنقول إليها .

أما الترجمة التفسيرية فميسورة فيما لا يعجز عنه البشر ، والمعانى المرادة من الأصل واضحة فيها غالبا [1] .

* * *

(١) انظر علوم القرآن للزرقانى ، المبحث الثالث عشر ، فى ترجمة القرآن وحكمها تفصيلا : ٢/ ١٠٧ - ١٢٠ .

مقاصد القرآن

يشتمل الكتاب العزيز على ثلاثة مقاصد رئيسية هى :

١- هداية البشر ودعوتهم إلى الإيمان بالله وإخلاص العبادة له ، والدخول فى دين الإسلام ، وطاعة الله تعالى واجتناب معاصيه .

٢- القرآن آية تدل على صدق النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو معجز بل مشتمل على فنون الإعجاز ، ومنها الإخبار بالغيب ، وسمو لفظه ومعانيه ، وإشارته إلى علوم حديثة لم يكن يعلمها البشر وقت نزول القرآن .

٣- القرآن متعبد بتلاوته وقراءته ، وهذه التلاوة وسيلة لجمع كلمة المسلمين على لغة واحدة ، وتيسير التفاهم والترابط قال تعالى: « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » .

هل يمكن ترجمة القرآن ؟

إذا أردنا أن تشتمل الترجمة على أهداف القرآن ومقاصده فلن نستطيع ذلك. لأن القرآن متعبد بتلاوته باللغة العربية ، ولا يمسه إلا المطهرون ، وهو معجز تحدى الله العرب أن يأتوا بمثله ، وهو مشتمل على الهداية ، « **فترجمة القرآن**» مع اشتمال الترجمة على مقاصده الثلاثة غير ممكنة .

وقد تصدى لذلك العلماء الأقدمون ، فقرر ابن قتيبة وغيره من العلماء أن كل كلام بليغ لا يمكن ترجمته ببلاغته من لغة إلى أخرى ، ذلك أن الكلام البليغ له معنيان مجتمعان : أحدهما أصلى ، وهو المقصد الذى بنى عليه الكلام وما سبق له من قصة أو حكم أو عظة ، والثانى بلاغى : وهو إشارات الكلام ومجازاته ، وما

يثيره من صور بيانية ، وما يحيط به من أطياف كالتى تحيط بالصور الحسية ، وبهذا كله تعلو الرتب البلاغية ويسمو البيان .

وبتطبيق هذه القاعدة على القرآن الكريم ، وهو فى الدرجة العليا من البلاغة ، نجد أن ترجمته مستحيلة ، إذا أردنا أن تكون الترجمة قرآنا فيه كل خواصه البلاغية .

ولذلك قال العلماء الأقدمون بالإجماع، إنه لا يمكن ترجمة القرآن بمعانيه الأصلية ، والمعانى البيانية اللاصقة لها ، فما فيه من أوامر ونواه وأخبار وقصص يمكن ترجمته ، فيترجم أصل النهى والأمر ، ووقائع القصة ، ولكن العبارات التى سيق بها القول ، وما فيه من صور بيانية ، وإشارات تعلو بالكلام إلى أسمى المنازل، حيث لا يكون له شبه ولا مثيل ، فإن ذلك لا يمكن ترجمته .

ولقد قال الشاطبى فى هذا المعنى بعد أن قسم معانى الكلام البليغ إلى معان أصلية ، ومعان خادمة هى ما تشير إليه المجازات والتشبيهات والإشارات البيانية ، ومطويات الكلام ومراميه البعيدة ، قال بعد هذا التقسيم : (إذا ثبت هذا لا يمكن من اعتبر هذا الوجه أن يترجم كلاما من الكلام العربى بكلام الأعاجم ، فضلا عن أن يترجم القرآن ، وينقله إلى لسان غير عربى ، إلا مع فرض استواء اللسانين فى اعتباره عينا ، فإذا ثبت ذلك فى اللسان المنقول إليه من لسان العرب أمكن أن يترجم أحدهما إلى الآخر ، وإثبات مثل ذلك بوجه بين عسير جدا) « ونزيد على الشاطبى أنه إذا توافق اللسانان فإنه مع ذلك ، لا يوجد فى اللسان الآخر من تكون عبارته كعبارة القرآن المعجز للبشر أجمعين ، الذى إن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » [١] .

وقد نفى ابن قتيبة إمكان ترجمة القرآن على الوجه الثانى (أى الإشارة إلى مطويات الكلام ومراميه البعيدة) أما الوجه الأول (أى الإشارة إلى المعانى الأصلية للكلام) فيمكن ترجمة هذه المعانى ، « ومن جهة صح تفسير القرآن وبيان معناه

---

(١) محمد أبو زهرة : المعجزة الكبرى القرآن ، دار الفكر العربى ص ٥٨٨ .

للعامة ، ومن ليس له فهم يقوى على تحصيل معانيه ، وكان ذلك جائزا باتفاق أهل الإسلام فصار هذا الاتفاق حجة على صحة الترجمة بالمعنى الأصلى [1] .

وقد نقل الشيخ محمد أبو زهرة هذا الكلام وعلق عليه بقوله :

(وبهذا يتبين أن ترجمة القرآن غير ممكنة ، ولا تسوغ ترجمة القرآن ، واعتبار هذه الترجمة قرآنا ، فإن ذلك يؤدى إلى ألا يحفظ القرآن من التحريف والتبديل بل يعتريه ما اعترى التوراة والإنجيل من تحريف وتبديل ، فالأناجيل ضاع أصلها العبرى ، ولم يبق إلا ترجمتها اليونانية ، أو بالأحرى ترجمة بعضها ، والسبب فى ذلك هو ترجمتها من العبرية ، وهكذا يكون القرآن الكريم لو سوغنا ترجمته ، ولكن الطريق مسدود ابتداء ، لأن الترجمة غير ممكنة ، فكان القرآن محفوظا (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) [2] .

وننقل بهذه المناسبة كلمة للزركشى فى كتابه البحر المحيط إذ يقول :

« (مسألة) : لا يجوز ترجمة القرآن بالفارسية وغيرها، بل يجب قراءته على هيئته التى بها الإعجاز ، لتقصير الترجمة عنه ، ولتقصير غيره من الألسن عن البيان الذى خص به دون سائر الألسن ، قال الله تعالى: **« بلسان عربى مبين»** . هذا لو لم يكن التحدى بنظمه وأسلوبه ، وإذا لم تجز قراءته بالتفسير العربى المتحدى بنظمه ، فأحرى ألا تجوز الترجمة بلسان غيره ، ومن هنا قال القفال فى فتاويه : عندى أنه لا يقدر أحد أن يأتى بالقرآن بالفارسية ، قيل له : فإذن لا يقدر أحد أن يفسر القرآن ، قال ليس كذلك ، لأن هناك يجوز أن يأتى ببعض مراد الله ويعجز عن البعض ، أما إذا أراد أن يقرأه بالفارسية ، فلا يمكن أن يأتى بجميع مراد الله » .

* * *

---

(١) المعارف لابن قتيبة .

(٢) محمد أبو زهرة (القرآن) : ٥٨٨ .

دواعى الترجمة..

من الباحثين من توقف فى جواز ترجمة القرآن ، ثم تذرعوا بأنه لا فائدة ترجى منها ، وأثاروا شبهات حولها ، أما من أجاز ترجمة معانى القرآن الكريم أو ترجمة تفسير القرآن الكريم ، فإنه يقدم الأسباب الآتية .

١- رفع النقاب عن جمال القرآن ومحاسنه لمن لم يستطع أن يراها بمنظار اللغة العربية من المسلمين الأعاجم وتيسير فهمه عليهم بهذا النوع من الترجمة .

٢- دفع الشبهات التى لفقها أعداء الإسلام ، وألصقوها بالقرآن وتفسيره كذبا وافتراء ، ثم ضللوا بها هؤلاء المسلمين الذين لا يحذقون اللسان العربى فى شكل ترجمات مزعومة للقرآن ، أو مؤلفات علمية وتاريخية للطلاب .

٣- تنوير غير المسلمين من الأجانب فى حقائق الإسلام وتعاليمه.

٤- إزالة الحواجز والعقبات التى أقامها الخبثاء الماكرون ، للحيلولة بين الإسلام وعشاق الحق من الأمم الأجنبية .

يقول برناردشو : (لقد طبع رجال الكنيسة فى القرون الوسطى دين الإسلام بطابع أسود حالك ، إما جهلا وإما تعصبا ، إنهم كانوا فى الحقيقة مسوقين بعامل بغض محمد ودينه ، فعندهم أن محمدا كان عدوا للمسيح ، ولقد درست سيرة محمد الرجل العجيب ، وفى رأيى أنه بعيد جدا من أن يكون عدوا للمسيح ، إنما ينبغى أن يدعى منقذ البشرية) [1] .

٥ - براءة ذمتنا من واجب تبليغ القرآن بلفظه ومعناه .

---

(١) مجلة ذى مسلم رجو بلكنو الهند فى جزء مارس سنة ١٩٣٣ ، نقلا عن مناهل العرفان فى علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى: ٢ / ١٣٩ .

الحل العملى..

لقد منع الأزهر والعلماء ترجمة القرآن ، بمعنى نقله إلى لغة أجنبية مع الوفاء بجميع معانيه ومقاصده .

فما هو الحل العملى لإبلاغ دعوة القرآن إلى الأجانب ؟

السبيل إلى ذلك هو الاتجاه إلى أحد أمرين:

الأول : بيان المعانى الأصلية التى اشتمل عليها القرآن، مبينة بأقوال النبى صلى الله عليه وسلم، وبذلك يعرفون حقائق الإسلام ويستضيئون بنور القرآن.

الاتجاه الثانى : أن يفسر القرآن تفسيرا موجزا مختصرا موضحا لمعانى الآيات ، وأن يتولى كتابة هذا التفسير جماعة علمية معروف أنها من أهل الذكر، ويذكر التفسير منسوبا إليهم ، ومسمى بأسمائهم مضافا إليها، ويترجم ذلك التفسير على أنه ترجمة تفسير فلان وفلان ، وأن يحتاط عند النشر ذلك الاحتياط، لكيلا يفهم أحد أن هذه الترجمة هى القرآن ، أو هى معانى القرآن ، بل يشار إلى أنها معانى القرآن على ما ذكره وفهمه أولئك المفسرون [1] .

وإنه لكمال الاحتياط يجب أن يكون النشر بحيث لا يفهم أنه ترجمة لآى القرآن مباشرة بل يكون الطبع على النحو الآتى :

١- يطبع المصحف فى وسط الصفحة باللغة العربية، وترقم آياته بأرقام أفرنجية ، ويكتب حوله تفسير كل آية مرقما برقمها الذى رقمت به الآية فيكون القرآن مكتوبا بالعربية، والتفسير بالعربية .

(١) محمد أبو زهرة القرآن : ٥٩٠ وورد ذلك فى علوم القرآن للزرقانى : ٢/ ١٧٠ . وفى «التفسير والمفسرون» : ١/ ٢٨ - ٣٠ .

وإن شئت نموذجا عمليا فانظر فى (المنتخب فى تفسير القرآن الكريم) الذى طبعه المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة . وكتب فى مقدمته ما يفيد أنه تفسير مختصر محرر كتب بالعربية تمهيدا لترجمته إلى اللغات الأجنبية .

٢- يكتب تفسير باللغة التى ترجم إليها التفسير مرقما بالأرقام التى رقمت بها آيات المصحف .

وهذا العمل يحقق المقاصد الآتية :

أولا : وضع تفسير موجز باللغة العربية يسهل الرجوع إليه .

ثانيا : وجود نص القرآن بالعربية وتفسيره بالعربية أمام المسلمين الأجانب لتيسير معرفتهم بها ، ثم وجود تفسير بلغتهم معتمد من لجنة علمية . وقد كتب الإيرانيون تفسيرا للقرآن طبع فى هامش المصحف الشريف ، وكذلك فعل الأفغانيون والباكستانيون .

ثالثا : تصحيح ما أسموه تراجم للقرآن فى اللغات الأوربية ، وبيان وجه الخطأ فيها .



جهود سابقة فى هذا الميدان

منذ أكثر من ربع قرن من الزمان اتجه الأزهر إلى وضع تفسير عربى دقيق للقرآن تمهيدا لترجمته ترجمة دقيقة بواسطة لجنة فنية مختارة ، واجتمعت لجنة التفسير بضع مرات برئاسة مفتى مصر فى ذلك الوقت ووضعت شروطا للتفسير هى :

١- أن يكون التفسير خاليا ما أمكن من المصطلحات والمباحث العلمية ، إلا ما استدعاه فهم الآية .

٢- ألا يتعرض فيه للنظريات العلمية .

٣- إذا مست الحاجة إلى التوسع فى تحقيق بعض المسائل وضعته اللجنة فى حاشية التفسير .

٤- ألا تخضع اللجنة إلا لما تدل عليه الآية الكريمة ، فلا تتقيد بمذهب معين من المذاهب الفقهية ، ولا مذهب معين من المذاهب الكلامية وغيرها ، ولا تتعسف فى تأويل آيات المعجزات وأمور الآخرة ونحوها .

٥ - أن يفسر القرآن بقراءة حفص ، ولا يتعرض لتفسير قراءات أخرى إلا عند الحاجة إليها .

٦- أن يجتنب التكلف فى ربط الآيات والسور بعضها ببعض .

٧- أن يذكر من أسباب النزول ما صح بعد البحث ، وأعان على فهم الآية .

٨ - عند التفسير تذكر الآية كاملة ، أو الآيات إذا كانت كلها مرتبطة بموضوع واحد ، ثم تحرر معانى الكلمات فى دقة ، ثم تفسر معانى الآيات أو الآيات مسلسلة

فى عبارة واضحة قوية ، ويوضع سبب النزول والربط ، وما يؤخذ من الآيات فى الوضع المناسب .

٩- ألا يصار إلى النسخ إلا عند تعذر الجمع بين الآيات .

١٠- يوضع فى أوائل كل سورة ، ما تصل إليه اللجنة من بحثها فى السور ، أمكية هى أم مدنية ؟ وماذا فى السور المكية من آيات مدنية ، والعكس .

١١- توضع للتفسير مقدمة فى التعريف بالقرآن وبيان مسلكه ، فى كل ما يحتويه من فنونه ، كالدعوة إلى الله ، والتشريع ، والقصص والجدل ، ونحو ذلك ، كما يذكر فيها منهج اللجنة فى تفسيرها .



المنتخب فى تفسير القرآن

منذ عشرين عاما مضت قام المجلس الأعلى للشئون الإسلامية التابع لوزارة الأوقاف بمصر بطبع تفسير محرر مختصر مناسب لقراء اللغة العربية ، ومناسب لأن يترجم إلى اللغات الأجنبية ، وطبع هذا التفسير باللغة العربية أكثر من مرة وللآن لم يترجم إلى اللغات الأجنبية .

وجاء فى مقدمة هذا التفسير بيان للباعث عليه ملخصه ما يأتى :

(أ) تبليغ هدى القرآن للناس أمر لا مناص منه ، وأن الترجمة منال لا يدرك ولا يرام ، لأن القرآن أبلغ كلام فى الوجود ، وترجمة بلاغته فوق طاقة البشر .

(ب) لذلك كان لابد من الاتجاه إلى كتابة تفسير باللغة العربية ، ثم نقله إلى اللغات الأوربية ، وإلى لغات المسلمين على اختلافها ، ليعرفوا معانى القرآن الذى يحفظه الكثيرون منهم، ولا يدركون معناه .

ولقد حمل العلماء القائمون على هذا العمل ، العبء الذى ترددت الهيئات والجماعات الإسلامية فى حمله أمدا طويلا حتى اتهمنا بالتقصير فى حق ديننا ، وتبليغ رسالة الله .

وقد ألف من بين لجان ذلك المجلس ، لجنة لتفسير للقرآن؛ لنشره بين العرب وترجمته إلى لغات غيرهم ، ووضعت اللجنة لنفسها هذا المنهاج فى التفسير .

١- لا يزيد حجم التفسير على ثلاثة أمثال حجم المصحف ، ويحسن أن يكون ضعفيه .

٢- يكتب المصحف بأرقام الآيات فى الصلب ، ثم يكتب تفسير كل آية بجوار رقمها .

٣- تكتب مقدمة موجزة لكل سورة تشير إلى ما اشتملت عليه .

٤- لا يتعرض لأسباب النزول إلا إذا كان معنى الآية لا يدرك تماما إلا بذكر السبب .

٥- يذكر معنى الآية من غير تعرض لتحليل الألفاظ لغويا .

٦- لا يذكر من الأحكام الفقهية إلا ما يكون فى نص الآية ، وما زاد على ذلك يذكر الضرورى منه فى الهامش ، أو فى الأصل بحسب ما يقتضيه المقام .

٧- يختار من التفسير ما يدفع التعارض بين ظواهر الآيات .

٨- بالنسبة للمتشابه يتبع ما يأتى :

(أ) ما يقبل التفسير يفسر ويؤول .

(ب) الحروف التى فى أول السور يكتفى بذكر حكمتها ، وهى التنبيه إلى الإعجاز ، والتنبيه إلى الاستماع .

٩- الآيات التى يبدو أن فى معانيها تكرارا لآيات أخرى ، تفسر كما هى فى كل موضع، مع بيان حكمة التكرار إذا اقتضى المقام ذلك .

١٠- قصص القرآن يفسر كما جاء فى القرآن ، مع ذكر العبرة بإيجاز ، وذكر ما يحتاج إليه من تفصيل تاريخى ، وكل ذلك بالهامش .

١١- تفسر الآيات التى تتضمن حقائق علمية ، أو تشير إليها ، بما تدل عليه عباراتها وإشاراتها ، وتذكر الحقائق التى تشير إليها فى الهامش .

١٢- يكتب المصحف بالرسم العثمانى ، وعند ترجمة التفسير ترقم الآيات فى التفسير بالأرقام غير العربية .

* * *

نموذج من المنتخب فى تفسير القرآن

من : المنتخب فى تفسيرالقرآن الكريم

(الآيات ٩٦ ، ٩٧، ٩٨ من سورة آل عمران)

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ* قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾

التفسير:

٩٦ – وإن من اتباع ملة إبراهيم ، الاتجاه فى الصلاة إلى البيت الذى بناه والحج إليه، وقد بين الله تعالى ذلك فذكر : أن أول بيت فى القدم والشرف جعله الله متعبدا للناس لهو الذى فى مكة ، وهو كثير الخيرات والثمرات ، وأودع الله سبحانه البركة فيه ، وهو مكان هداية الناس بالحج والاتجاه فى الصلاة إليه .

٩٧ – وفيه دلائل واضحات على حرمته ومزيد فضله ، منها مكان إبراهيم للصلاة فيه ، ومن دخله يكون آمنا لا يتعرض له بسوء، وحج هذا البيت واجب على المستطيع من الناس ، ومن أبى وتمرد على أمر الله وجحد دينه ، فالخسران عائد عليه ، وإن الله غنى عن الناس كلهم .

٩٨ – أمر الله سبحانه وتعالى رسوله بتوبيخ أهل الكتاب على استمرارهم على الكفر والضلال و التضليل فقال : قل لهم : يا أهل الكتاب لا وجه لكفركم ، فلأى سبب تكفرون بدلائل الله ، الدالة على نبوة محمد وصدقه ، والله مطلع على أعمالكم ومجازيكم عليها .

ملاحظات

١- تلاحظ أن هذا التفسير موجز مفيد، يعبر عن المعنى من أقصر طريق، ويفسر الآية بالمعانى المعبرة عنها بدون تطويل ممل ولا تعرض لتفصيلات هامشية .

٢- أنه يكتب الآيات القرآنية بأرقامها فى صدر الصفحة، ثم يعيد كتابة رقم الآية رقم ٩٧ مثلا .

٣- هذا التفسير يمكن أن يترجم إلى اللغات الأخرى ، وبذلك نكمل ما بدأ فيه الآخرون ، ونبدأ من حيث انتهوا ، ونثبت التكليف بالدعوة .

٤- ترجمة التفسير تخرجنا من كل حرج وخلاف حول ترجمة القرآن .

٥- أن الغرب والشرق يتطلع إلى الإسلام ودراسته ومعرفته فكان من واجبنا أن نسهم فى تعريف الآخرين بديننا وأن نترجم لهم تفسير القرآن ليهتدى المؤمنون، وليعلم الباحثون، ولتعرف الدنيا أفكار هذا الدين وهدايته وآدابه، وما فيه من معان سامية وحكم عالية، وروح فاضلة، أدت مهمتها فى جمع الناس على الحق والخير ، ونشر الفضيلة والعدل فى الماضى .

٦- فى الحديث الشريف « بدأ الدين غريبا وسيعود غريبا كما بدأ » ومن وجوه معانى الحديث : انتشر الإسلام بسرعة غريبة ، وسيعود إلى النصر بقوة مفاجئة فى آخر الزمان .

ويمكن أن نركز على النقاط الآتية :

١- الترجمة الحرفية للقرآن غير ممكنة .

٢- حظر علماؤنا كتابة القرآن بحروف غير عربية، وعلى هذا عند ترجمة معانى القرآن إلى أية لغة يجب أن تكتب الآيات بالحروف العربية كيلا يقع إخلال وتحريف فى لفظه ، فيتعبها تغيير وفساد فى معناه .

٣- سئلت لجنة الفتوى فى الأزهر عن كتابة القرآن بالحروف اللاتينية فأفتت بعدم جواز ذلك [(١)] .

٤- يمكن أن نترجم المعانى الأصلية التى اشتمل عليها القرآن مبينة بأقوال الرسول صلى الله عليه وسلم .

٥- يمكن أن نفسر القرآن تفسيرا موجزا ثم نترجم هذا التفسير [(٢)] .

٦- تفسير القرآن بلغة أجنبية ، مع استيفاء شروط التفسير والترجمة ، اختلف العلماء فيه بين مانع ومجيز، والأدلة متضافرة على جوازه [(٣)] كما ذكر ذلك، الشيخ عبد العظيم الزرقانى فى مناهل العرفان .



---

(١) انظر نص الفتوى فى المجلد السابع من مجلة الأزهر صفحة ٤٥ وقد نقلها الشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى فى كتابه مناهل العرفان فى علوم القرآن ٢/ ١٣٤ ونص الفتوى ما يأتى : (لا شك أن الحروف اللاتينية خالية من عدة حروف توافق العربية ، فلا تؤدى جميع ما تؤديه الحروف العربية ، فلو كتب القرآن الكريم بها على طريقة النظم العربى - كما يفهم من الاستفتاء - لوقع الإخلال والتحريف فى لفظه ، ويتبعها تغير المعنى وفساده ، وقد قضت نصوص الشريعة بأن يصان القرآن الكريم من كل ما يعرضه للتبديل والتحريف ، وأجمع علماء الإسلام سلفا وخلفا على أن كل تصرف فى القرآن ، يؤدى إلى تحريف فى لفظه أو تغيير فى معناه ممنوع منعا باتا ، ومحرم تحريما قاطعا ، وقد التزم الصحابة رضوان الله عليهم ومن بعدهم إلى يومنا هذا كتابة القرآن بالحروف العربية) .

(٢) انظر القرآن محمد أبو زهرة : ٥٩٠ .

(٣) مناهل العرفان للزرقانى : ٢ / ١٧٢ .

الفرق بين التفسير والترجمة التفسيرية

١- التفسير يكون بلغة الأصل بخلاف الترجمة التفسيرية فإنها تكون بلغة أخرى .

٢- يمكن لقارئ التفسير ومتفهمه أن يلاحظ معه نظم الأصل ودلالته ، أما قارئ الترجمة فلا يتسنى له ذلك بل كل ما يفهمه ويعتقده أن هذه الترجمة التى يقرؤها ويتفهم معناها تفسير صحيح للقرآن .

* * *

شروط الترجمة التفسيرية

أولا – أن تكون الترجمة على شريطة التفسير ، لايعول عليها إلا إذا كانت مستمدة من الأحاديث النبوية ، وعلوم اللغة العربية ، والأصول المقررة فى الشريعة الإسلامية ، فلابد للمترجم من اعتماده فى استحضار معنى الأصل على تفسير عربى مستمد من ذلك ، أما إذا استقل برأيه فى استحضار معنى القرآن ، أو اعتمد على تفسير ليس مستمدا من تلك الأصول ، فلا تجوز ترجمته ولا يعتد بها ، كما لا يعتد بالتفسير إذا لم يكن مستمدا من تلك المناهل معتمدا على هذه الأصول .

ثانيا – أن يكون المترجم بعيدا عن الميل إلى عقيدة زائفة ، تخالف ما جاء به القرآن ، وهذا شرط فى المفسر أيضا ، فإنه لو مال واحد منهما إلى عقيدة فاسدة لتسلطت على تفكيره ، فإذا بالمفسر وقد فسر طبقا لهواه ، وإذا بالمترجم وقد ترجم وفقا لميوله ، وكلاهما يبعد بذلك عن القرآن وهداه .

ثالثا – أن يكون المترجم عالما باللغتين : المترجم منها والمترجم إليها ، خبيرا بأسرارهما ، يعلم جهة الوضع والأسلوب والدلالة لكل منهما .

رابعا – أن يكتب القرآن أولا ، ثم يؤتى بعده بتفسيره . ثم يتبع هذا بترجمته التفسيرية حتى لا يتوهم متوهم أن هذه الترجمة ترجمة حرفية للقرآن .

هذه هى الشروط التى يجب مراعاتها لمن يريد أن يفسر القرآن بغير لغته ، تفسيرا يسلم من كل نقد يوجه ، وعيب يلتمس (1) .

---

(١) التفسير والمفسرون : ٣٠/١ . بتصرف واختصار ، وقد أشار إلى المراجع الآتية : المدخل المنير : ٤١ – النهاية .

– مجلة نور الإسلام (الأزهر) السنة الثالثة ٥٧ – ٦٥ .

– منهج الفرقان : ٧١/١ – ٩٠ .

نصوص منقولة..

صدر حديثا كتاب للأستاذ الدكتور أحمد إبراهيم مهنا عنوانه :

(دراسة حول ترجمة القرآن الكريم) . مطبعة دار الشعب بالقاهرة .

وقد استعرض فيه أقوال العلماء فى ترجمة القرآن الكريم، وذكر أن الموضوع أثير ثلاث مرات فى مصر .

الأولى : عندما منعت مشيخة الأزهر إدخال نسخة من ترجمة القرآن الكريم باللغة الانكليزية إلى مصر ، بل طلبت من مصلحة الجمارك إحراقها .

الثانية : عندما قررت حكومة تركيا برئاسة مصطفى كمال أتاتورك ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة التركية .

والثالثة : عندما قررت مشيخة الأزهر الشروع فى عمل ترجمة لمعانى القرآن الكريم بالاشتراك مع وزارة المعارف، وذلك عندما تولى مشيخة الأزهر للمرة الثانية فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى .

وقد نقل عن الأستاذ الشيخ محمد الخضر حسين جواز نقل معانى القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية .

ونقل مثل ذلك عن الأستاذ الشيخ إبراهيم الجبالى ، والأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى . الذى كتب إلى رئيس الوزراء فى مصر يقترح عليه أن تتعاون وزارة المعارف مع مشيخة الأزهر ، فى ترجمة معانى القرآن إلى اللغات الأجنبية .

وقد أحيل الاقتراح إلى وزارة المعارف المصرية فاقترحت تأليف لجنة من كبار المختصين فى اللغة العربية واللغات الأجنبية لهذه الترجمة ، وقدرت نفقات المشروع بعشرة آلاف جنيه .

وصدرت فتوى شرعية عن جماعة كبار العلماء برئاسة الأستاذ الأكبر محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر وعضوية شيوخ الكليات وكبار الأساتذة .

* * *

نص الفتوى..

ما قول السادة حضرات أصحاب الفضيلة العلماء ، فى السؤال الآتى بعد ملاحظة المقدمات الآتية :

١- لا شبهة فى أن القرآن الكريم اسم للنظم العربى ، الذى أنزل على سيدنا محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله .

ولا شبهة أيضا فى أنه إذا عبر عن معانى القرآن الكريم ، بعد فهمها من النص العربى ، بأية لغة من اللغات لا تسمى هذه المعانى ، ولا العبارات التى تؤدى هذه المعانى قرآنا .

٢- ومما لا محل للخلاف فيه أيضا أن الترجمة اللفظية ، بمعنى نقل المعانى مع خصائص النظم العربى المعجز مستحيلة .

٣- وضع الناس تراجم للقرآن الكريم بلغات مختلفة ، اشتملت على أخطاء كثيرة واعتمد على هذه التراجم بعض المسلمين الذين لا يعرفون اللغة العربية ، وبعض العلماء من غيرالمسلمين ممن يريد الوقوف على معانى القرآن الكريم .

٤- وقد دعا هذا إلى التفكير فى نقل معانى القرآن الكريم ، إلى اللغات الأخرى على الوجه الآتى :

يراد - أولا - فهم معانى القرآن الكريم ، بواسطة رجال من خيرة علماء الأزهر الشريف، بعد الرجوع لآراء أئمة المفسرين، وصوغ هذه المعانى بعبارات دقيقة محددة ، ثم نقل المعانى التى فهمها العلماء إلى اللغات الأخرى ، بواسطة رجال موثوق بأمانتهم واقتدارهم فى تلك اللغات ، بحيث يكون ما يفهم فى تلك

اللغات من المعانى ، هو ما تؤديه العبارات العربية التى يضعها العلماء ، فهل الإقدام على هذا العمل جائز شرعا أم غير جائز ؟ هذا مع العلم بأنه سيوضع تعريف شامل: يضمن أن الترجمة ليست قرآنا ، وليس لها خصائص القرآن ، وليست هى ترجمة كل المعانى التى فهمها العلماء ، وأنه ستوضع الترجمة وحدها بجوار النص العربى .

* * *

الفتوى

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، وبعد.. فقد اطلعنا على جميع ما ذكر بالاستفتاء المدون بباطن هذا .

ونفيد بأن الإقدام على الترجمة على الوجه المذكور تفصيلا فى السؤال جائز شرعا ، والله - سبحانه وتعالى - أعلم .

محمود الدينارى ، عضو جماعة كبار العلماء وشيخ معهد طنطا.

عبد المجيد اللبان ، شيخ كلية أصول الدين وعضو جماعة كبار العلماء .

إبراهيم حمروش ، شيخ كلية اللغة العربية ، وعضو جماعة كبار العلماء .

محمد مأمون الشناوى ، شيخ كلية الشريعة وعضو جماعة كبار العلماء .

عبد المجيد سليم ، مفتى الديار المصرية، وعضو جماعة كبار العلماء .

محمد عبد اللطيف الفحام ، وكيل الجامع الأزهر وعضو جماعة كبار العلماء .

دسوقى عبد الله البدوى ، عضو جماعة كبار العلماء .

أحمد الدلبشانى : عضو جماعة كبار العلماء .

يوسف الدجوى : عضو جماعة كبار العلماء .

محمد سبيع الذهبى : عضو جماعة كبار العلماء .

عبد المعطى الشرشيمى : عضو جماعة كبار العلماء .

عبد الرحمن قراعة : عضو جماعة كبار العلماء .

أحمد نصر : عضو جماعة كبار العلماء .

محمد الشافعى الظواهرى : عضو جماعة كبار العلماء .

حيث إن الترجمة المرادة هى ترجمة لمعانى التفسير الذى يضعه العلماء فهى جائزة شرعا ، بشرط طبع التفسير المذكور بجوار الترجمة المذكورة، والله أعلم .

عبد الرحمن عليش الحنفى

عضو جماعة كبار العلماء

* * *

رأى فضيلة الأستاذ الأكبر !!

وجهت هذا السؤال إلى حضرات أصحاب الفضيلة جماعة كبار العلماء ، وإنى أوافقهم على ما رأوه ، ولا أرى داعيا للتحفظ الذى أبداه فضيلة الشيخ عبد الرحمن عليش ، وهو طبع التفسير مع الترجمة لعدم الحاجة إلى ذلك بعد مراعاة الشروط المدونة فى السؤال .

محمد مصطفى المراغى

رئيس جماعة كبار العلماء

قرار مجلس الوزراء بمصر !!

بعد الاطلاع على كتاب فضيلة شيخ الجامع الأزهر ، وكتاب سعادة وزير المعارف العمومية ، بشأن ترجمة القرآن الكريم .

ومع تقدير مجلس الوزراء لمشقة هذا العمل وصعوبته ، ومنعا لأضرار التراجم المنتشرة الآن .

رأى بجلسته المنعقدة فى ١٦ أبريل سنة ١٩٣٦ م الموافقة على ترجمة معانى القرآن الكريم ، ترجمة رسمية تقوم بها مشيخة الجامع الأزهر ، بمساعدة وزارة المعارف العمومية ، وذلك وفقا لفتوى جماعة كبار العلماء وأساتذة كلية الشريعة .

* * *

اعتراض على الترجمة

وقد اعترض على المشروع أفراد من العلماء ، وبعض الباحثين ، فكتب الأستاذ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر بحثا مستفيضا عن إمكان ترجمة القرآن ، استشهد فيه بأقوال أئمة المذاهب الفقهية ، وطمأن الذين يخافون على القرآن الكريم من ترجمة معانيه ، ونقل من كتب الفقه ما يؤيد جواز الترجمة ، بل ما يحث عليها .

ثم ختم الشيخ المراغى بحثه بقوله :

(وبعد هذا يمكن القول بأن المسألة من الوضوح بحيث لا تقبل الجدل، فإن رسالة النبى صلى الله عليه وسلم رسالة عامة ، ولا سبيل إلى تبليغ الرسالة ، وتبليغ ما أنزل إليه ليتدبره الناس ، إلا عن طريق الترجمة .

ولا أرى خطرا ما فى هذا ، لأنه متى علم الناس - علما لا لبس فيه - أن الترجمة ليست قرآنا ، وليس لها خصائص القرآن ، وأنها لا تحمل الإعجاز الموجود فى النظم العربى ، بل ولا تحمل معانى النظم العربى جميعها ، وإنما تحمل المعانى التى فهمها المفسرون ، وجد الأمن التام ، وحصلت الطمأنينة التامة إلى أن التراجم لا تأخذ قدسية القرآن العربى ، وإلى أنه لا يمكن أن يخطر بالبال يوما أن التراجم هى القرآن المنزل من الله على رسوله الأكرم ، صلوات الله عليه) [1] .

* * *

---

(١) دراسة حول ترجمة القرآن الكريم ، د. أحمد مهنا : ٧٠ ، مطبوعات دار الشعب بالقاهرة .

مقترحات الدكتور أحمد مهنا ..

تقدم الدكتور أحمد مهنا ببحث إلى المؤتمر الثامن لمجمع البحوث الإسلامية [1] حول ترجمة معانى القرآن الكريم اقترح فيه ما يأتى :

١- أن يتبنى مجمع البحوث الإسلامية - ممثلا للأزهر - العمل على دراسة الترجمات المختلفة ، ولنبدأ باللغة الإنجليزية أولا ، لانتشارها أكثر من غيرها فى بلاد العالم، تمهيدا لإصدار ترجمة شاملة ، تجمع محاسن الموجود ، وتستبعد الأخطاء، وتكمل النقص، وتعرض معانى القرآن الكريم فى أسلوب واضح صحيح، مع تصدير هذا العمل بمقدمة وافية ، تبين للقارئ ما فى الترجمات الموجودة من مآخذ ، دعت إلى إصدار ترجمة جديدة .

٢- أن يجند لهذا العمل كل من له دراية كافية بالثقافة الإسلامية ، بحيث يستطيع أن يميز الصحيح من الخطأ ، وما له سند مما لا سند له ، مما يذكر على أنه من تعاليم الإسلام ، وله من معرفة اللغة الإنجليزية ، ما يمكنه من فهم المراد للكتاب فهما صحيحا ، والرد عليه فى أسلوب واضح سليم .

٣- ألا يستقل فرد من مجموعة العمل بأى جزء من أجزائه ، بل يكون العمل جماعيا ، بمعنى أن كل ما يقوم به فرد يعرض بالتفصيل على جماعة العمل متكاملة، ولا يعتبر نهائيا إلا إذا أقره الجميع [2] .



---

(١) عقد هذا المؤتمر بالقاهرة فى الفترة من ١٤ أكتوبر إلى ٨ من نوفمبر سنة ١٩٧٧ م .

(٢) دراسة حول ترجمة القرآن الكريم ، د. أحمد مهنا : ٩٩، مطبوعات دار الشعب بالقاهرة .

دعــوة

إن المـهـمـة ثقيلة تتعلق بتطهيـر الإسـلام والقـرآن مـمـا ألصـقـه به المغرضون .

وعند قـراءة التـراجم الإنـجليـزية والفـرنسيـة نجـد أن المـغـرضـين قـد ألصقوا بالقرآن تهما باطلة .

وينبغى للمسلمين أن يتواصوا بالعمل على تنقية الإسلام من هذه التهم .

وأن يعرضوا كتاب الله فى وضعه الصحيح هدى ونورا . يحرك النفوس للإيمان به . ويدافع عن التهم الباطلة التى ألصقها به الأعداء .

وهذه مسئوليات المؤسسات الإسلامية فى العالم الإسلامى . وحبذا لو تكاتفت وتعاونت فى القيام بواجبات التعريف بالإسلام ، وعرضه بصوته المشرقة . والدعوة إلى الله بأسلوب العصر . وصدق الله العظيم .

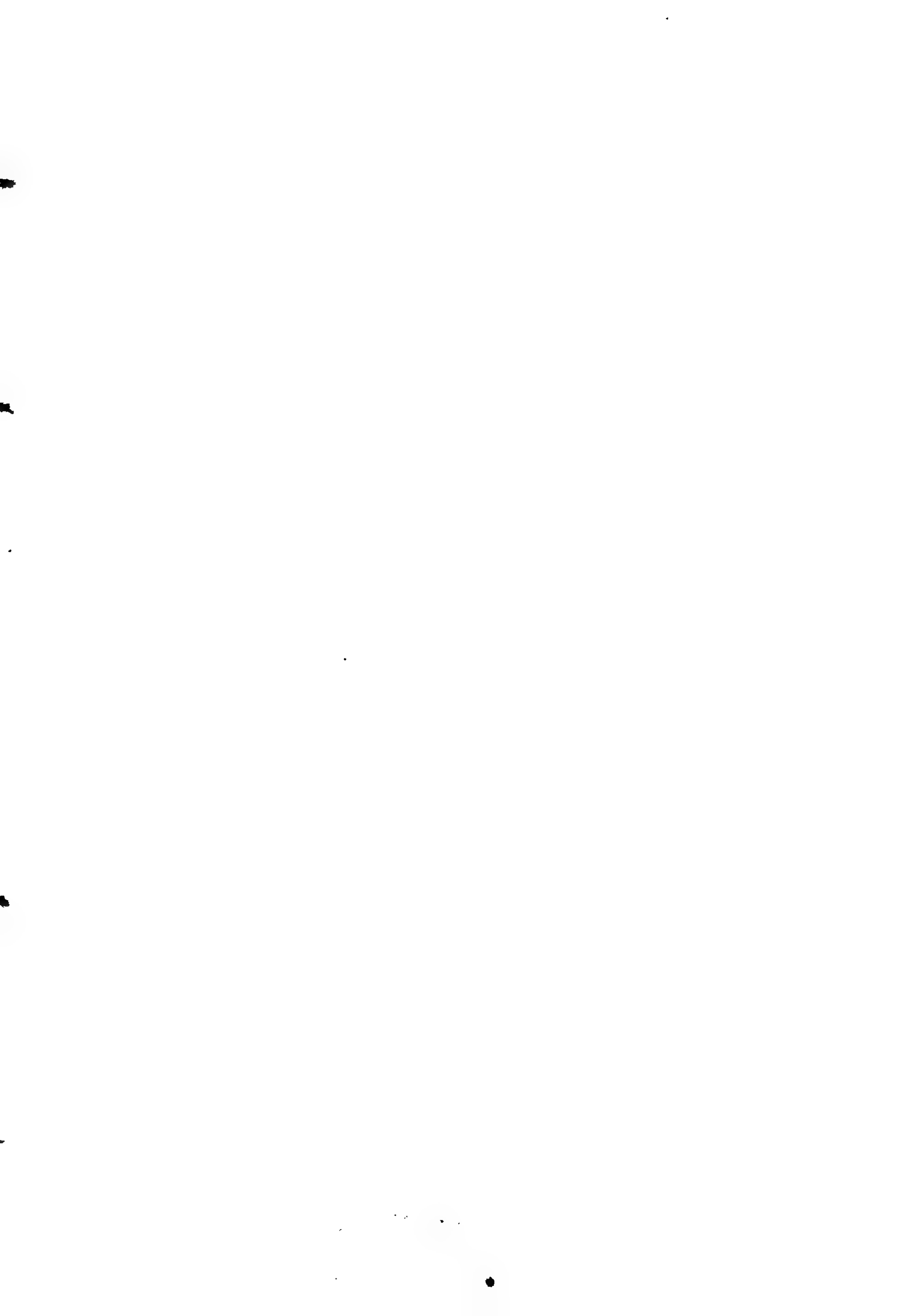
﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾

(النحل : ١٢٥) .

يقول الأستاذ محمد الخضر :

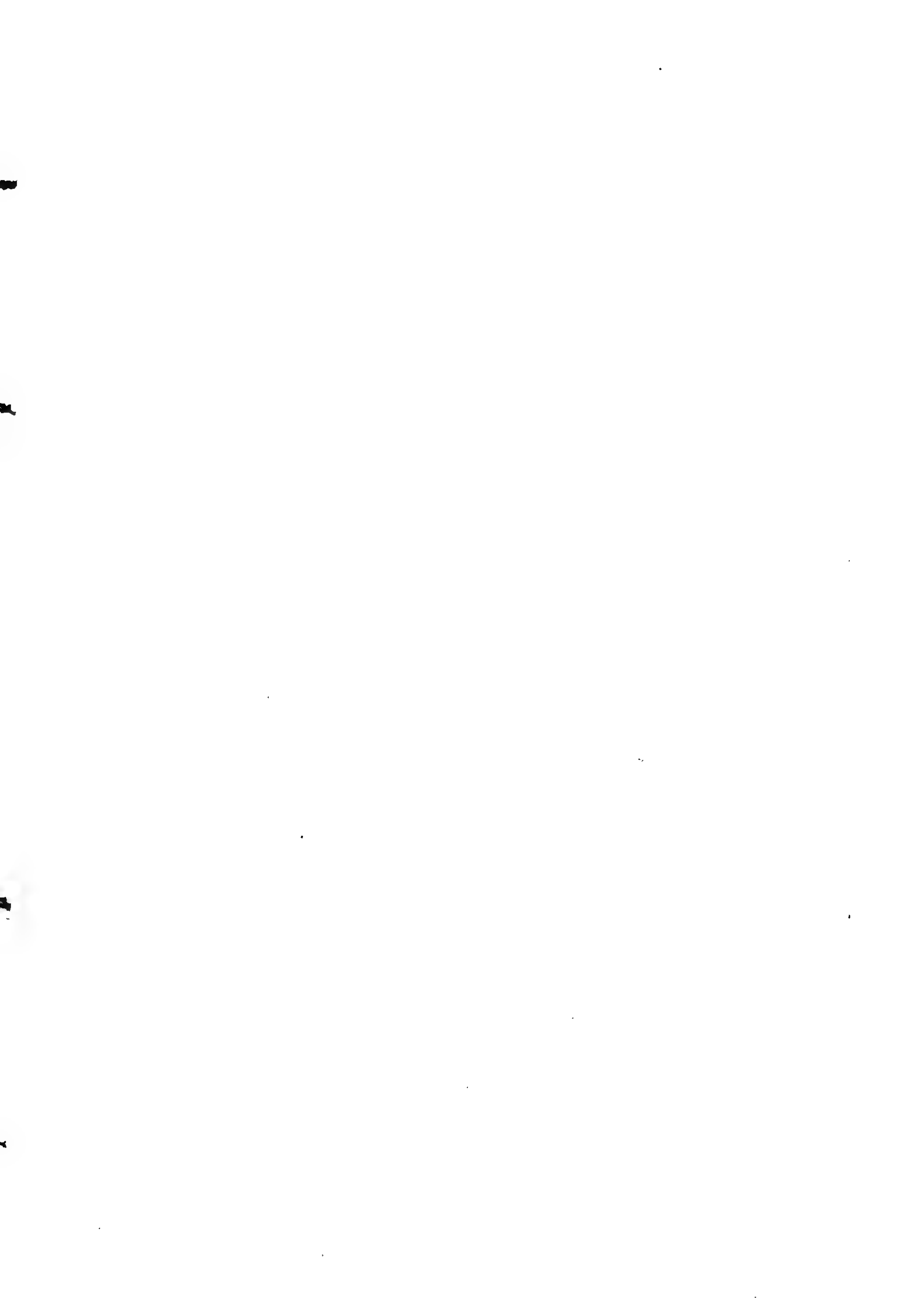
(... وإذا كانت الترجمة بمعناها الحقيقى ولو للمعانى الأصلية لا تتيسر فى جميع آيات القرآن . وإنما المتيسر الترجمة على معنى التفسير، كانت الترجمة المعنوية أقرب إلى الصحة من الترجمة الحرفية، متى أفاد بها المترجم معنى الآية، فى أسلوب من أساليب اللغة الأجنبية. لا زيادة فيه ولا نقصان) .

* * *



الفصل التاسع

الوحدة الموضوعية للسورة في القرآن الكريم



الفصل التاسع

الوحدة الموضوعية للسورة فى القرآن

معنى كلمة سورة :

القـرآن ١١٤ سـورة، وفى كل سـورة من سـور القـرآن روح يسـرى فى آياتهـا ويسيطر على مبادئها وأحكامها وتوجيهاتها وأسلوبها .

قال الحافظ ابن كثير :

واختلف فى معنى السورة مِمَّ هى مشتقة؟ فقيل : من الإبانة والارتفاع فكأن قارئ القرآن ينتقل من منزلة إلى منزلة ، وقيل: لشرفها وارتفاعها كسور البلدان. وقيل : سميت سورة لكونها قطعة من القرآن وجزءا منه ، مأخوذ من سؤر الإناء وهو البقية ، وعلى هذا فيكون أصلها مهموزا ، وإنما خففت الهمزة فأبدلت الهمزة واوا لانضمام ما قبلها . وقيل لتمامها وكمالها لأن العرب يسمون الناقة التامة سورة. قلت: ويحتمل أن يكوّن للجمع والإحاطة لآياتها ، كما يسمى سور البلد لإحاطته بمنازله ودوره .

وجمع السورة (سور) بفتح الواو، وقد تجمع على (سورات) و (سورات) [1] .

أسماء السور :

السورة قطعة من القرآن وجزء منه ، وهى سور يحيط بالآيات التى تحتويها ونلاحظ أن السورة تسمى بأغرب شىء فيها أو أهم شىء فيها .

---

(١) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير اختصار وتحقيق أحمد شاكر مقدمة التفسير ١/ ٥٠ .

١- فسورة البقرة سميت بهذا الاسم لاشتمالها على قصة البقرة، وذلك أنه قتل قتيل فى بنى إسرائيل ولم يعلم قاتله فذهب القوم إلى موسى عليه السلام يطلبون منه بيان القاتل فأمرهم الله أن يذبحوا بقرة وأن يضربوا القتيل بجزء منها فترد إليه الحياة ويقوم ويقول قتلنى فلان ثم يعود ميتا ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة : ٧٣) .

٢- وسورة آل عمران اشتملت على قصة مريم ابنة عمران وقد حملت مريم بأمر الله وكانت ولادة عيسى أغرب ولادة فى التاريخ، حيث خلقه الله بقدرته من غير أب وخلق حواء من غير أم .

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (آل عمران : ٥٩ - ٦٠) .

٣- وسورة النساء اشتملت على ذكر أحكام النساء والوصية بهن وأوجبت لهن الميراث وكانت المرأة لا ترث فى الجاهلية . وقد بينت المحرمات من النساء والعلاقة بين الرجل والمرأة، وتسمى سورة النساء الكبرى تمييزا لها عن سورة النساء الصغرى وهى سورة الطلاق .

٤- وسورة المائدة اشتملت على قصة المائدة فى الآيات ١١٢ - ١١٥ حيث طلب الحواريون من عيسى مائدة من السماء ، ليأكلوا منها وتطمئن قلوبهم بصدق عيسى فى دعوته .

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ (المائدة : ١١٤ - ١١٥) .

٥ - وسورة الأنعام تعرضت لذكر الأنعام وأنواعها الثمانية وهى الشاة والخروف والتيس والماعز والثور والبقرة والجمل والناقة . وذلك فى الآيات ١٣٦ - ١٥٠ من السورة، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ (الأنعام : ١٤٢ - ١٤٣)

٦ - وسورة الأعراف تعرضت لذكر الأعراف وهو حاجز مرتفع بين الجنة والنار عليه رجال استوت حسناتهم وسيئاتهم . قال تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ (الأعراف : ٤٦) .

٧ - وسورة الأنفال تعرضت لذكر الأنفال وهى الغنائم ، وكان المسلمون قد اختلفوا فى طريقة توزيعها بعد غزوة بدر ، فبينت السورة أن النصر كان من عند الله، وأن الواجب يقضى بتقوى الله وإصلاح ذات البين وجمع الشمل قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال : ١) .

٨ - وسورة التوبة، ذكر فيها توبة الله على المؤمنين وعلى المتخلفين عن الغزو حين علم الله منهم صدق التوبة والندم الشديد .

قال تعالى:

﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ

إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (التوبة : ١١٧ - ١١٨) .

٩ - وسورة يونس تعرضت لذكر نبى الله يونس وقد أرسله الله إلى مائة ألف أو يزيدون فآمنوا به فنجاهم الله من العذاب ومتعهم فى الدنيا إلى نهاية أجلهم قال تعالى: ﴿ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (يونس : ٩٨) .

١٠- وسورة هود ذكرت رسالة هود إلى قومه فى قوله تعالى : ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ﴾ (هود : ٥٠) .

ثم وضحت رسالات الرسل إلى قومهم فذكرت رسالة صالح إلى ثمود ورسالة شعيب إلى أهل مدين ورسالة إبراهيم ولوط وموسى إلى قومهم .

١١- وسورة يوسف دارت كلها تقريبا حول قصة يوسف عليه السلام ، وهكذا نجد أن الأساس العام فى تسمية السورة هو أهم شئ فيها أو أغرب شئ تحدثت عنه .

وأحيانا تطرق السورة عدة موضوعات وتختار واحدا من بينها ليكون عنوانا لها فسورة هود تناولت قصص كثير من الأنبياء أولهم نوح عليه السلام ، ولكن نوحا ذكر فى سورة مستقلة ، وثانيهم هود وبه سميت السورة ثم تحدثت عن صالح وشعيب وإبراهيم ولوط وموسى عليهم السلام.



خطأ المستشرقين

وجه بعض المستشرقين نقدا إلى تأليف القرآن . وقال إنه جمع غير مؤلف أشبه بقولهم « خمر لبن عسل » .

ولم يستطع أن يتبين ما فى القرآن من روابط خفية ، فالوحدة الكبرى التى تجمع بين آيات القرآن هى الحديث عن الإسلام وما يتعلق به ، ولكن هذا الحديث كان معجزا متشابها يحس الإنسان فيه بصدق العاطفة وجمال التعبير وجودة الأداء. قال تعالى : ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (الزمر : ٢٣) .

وفى ترابط آيات القرآن سر تحس به النفوس وتخشع له القلوب ، وقد تعجز الكلمات عن التعبير عن التأثير القرآنى وسطوته على القلوب .



رأى الدكتور دراز

يرى الدكتور دراز أن القرآن يضرب به المثل فى جودة السبك وإحكام السرد حين ينتقل من فن إلى فن .

ويرى : « أن هذه النقطة قد غفل عنها جميع المستشرقين ، فضلا عن علماء المسلمين ، فعندما لاحظ بعضهم بنظرته السطحية عدم توافر التجانس والربط الطبيعى بين المواد التى تناولتها السور ، لم ير فى القرآن الا أشتاتا من الأفكار المتنوعة ، عولجت بطريقة غير منظمة ، بينما رأى البعض الآخر أن علة هذا التشتيت المزعوم ترجع إلى الحاجة لتخفيف الملل الناتج من رتابة الأسلوب . وهناك فريق آخر يرى فى الوحدة الأدبية لكل سورة - وهو ما لا يستحيل نقله فى أية ترجمة - نوعا من التعويض لهذا النقص الجوهرى فى وحدة المعنى .

وفريق آخر يضم غالبية المستشرقين ، رأى أن هذا العيب يرجع إلى الصحابة الذين جمعوا القرآن وقاموا بهذا الخلط عندما جمعوا أجزاءه ورتبوها على شكل سور .

ويعقب الدكتور محمد عبد الله دراز :

« بأن هذه التفسيرات لا تبدو صالحة للأخذ بها ، إذ من المتفق عليه أن السور كانت بالشكل الذى نقرأها به اليوم وبتركيبها الحالى منذ حياة الرسول صلى الله عليه وسلم .

« ولقد اتضح أن هناك تخطيطا حقيقيا واضحا ومحدودا للسورة يتكون من ديباجة وموضوع وخاتمة .. ولا جدال فى كتاب فى الأدب أو فى أى مجال آخر يمكن

أن يكون قد تم تأليفه على هذا النحو . وإذا كانت السورة القرآنية من نتاج ظروف النزول ، تكون وحدتها المنطقية والأدبية معجزات »[1] .

* * *

---

(١) د. محمد عبد الله دراز ؛ مدخل إلى القرآن الكريم ؛ نشر دار القلم بالكويت .
واستفدت بتعريف الأستاذ محمد عبد الله السمان بالكتاب تحت عنوان : المكتبة الإسلامية ؛ بمجلة التضامن الإسلامى التى تصدرها وزارة الحج والأوقاف بمكة المكرمة، عدد جمادى الثانية سنة ١٣٩٥ هـ - يوليو ١٩٧٥ م؛ وبخاصة تعريفه بالفصل الثالث من الباب الثانى للكتاب . وانظر تفسير سورة النساء ، للدكتور محمد عبد الله دراز ، مخطوط .

نزول القرآن منجما

لقد نزل القرآن فى ثلاث وعشرين سنة ، ثلاث عشرة سنة فى مكة وعشر سنوات فى المدينة . واستمر نزول بعض السور عشر سنين مثل سورة البقرة ، ومع ذلك احتفظت بالتناسق والترابط بين آياتها ، والترتيب والتجانس بين موضوعاتها .

« ومع أن السورة من القرآن كانت تنزل منجمة وفى أوضاع تأليفية عجلى ومشتتة . وبين أجزائها عناصر معنوية ومع هذا سبكتها وأحكمت صنعتها يد الله السميع البصير ، فانظر الآن هل استطاعت هذه الأسباب على تضافرها ، أن تنال من استقامة النظم فى السور المؤلفة على هذا النهج ؟ « أما العرب الذين تحداهم القرآن بسورة منه فلقد علمت لو أنهم وجدوا فى نظم سورة منه مطمعا لطامع ، بله مغمزا لغامز لكان لهم معه شأن غير شأنهم وهم هم »[1] .

★ ★ ★

---

(١) د. عبد الله شحاتة ، علوم التفسير ، الهيئة العامة للكتاب ، المكتبة الثقافية ، ص ١٥٠ .

كتاب النبأ العظيم

كتاب النبأ العظيم ، نظرات جديدة فى القرآن الكريم للدكتور محمد عبد الله دراز ، من أقيم الكتب التى تحدثت عن القرآن ، فقد تحدث الكتاب عن الوحدة المعنوية للسورة وما فى القرآن من إعجاز متعدد الألوان ، فمنه الإعجاز اللغوى والإعجاز العلمى ، والإعجاز التشريعى . وبين أن أسلوب القرآن هو ملتقى نهايات الفضيلة البيانية على تباعد ما بين أطرافها ، ووضع الدليل أمام القارئ قائلا :

« أقبل بنفسك على تدبر هذا النظم الكريم لتعرف بأى يد وضع بنيانه ، وعلى أى يمين صنع نظامه حتى كان كما وصفه الله ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ (الزمر: ٢٨). اعمد إلى سورة من تلك السور التى تتناول أكثر من معنى واحد ، وما أكثرها فى القرآن الكريم فهى جمهرته ، وتنقل بفكرتك معها مرحلة مرحلة ، ثم ارجع البصر كرتين : كيف بدئت ؟ وكيف ختمت ؟ وكيف تقابلت أوضاعها وتعادلت ؟ وكيف تلاقت أركانها وتعانقت ؟ وكيف ازدوجت مقدماتها بنتائجها ، ووطأت أولاها أخراها، وأنا لك زعيم بأنك لن تجد ألبتة فى نظام معانيها ، أو مبانيها ما تعرف به أكانت هذه السورة قد نزلت فى نجم واحد أم فى نجوم شتى . ولسوف تحسب أن السبع الطوال من سور القرآن قد نزلت كل واحدة منها دفعة واحدة حتى يحدثك التاريخ أنها كلها نزلت نجوما »[1] .

---

(١) الدكتور محمد عبد الله دراز ، النبأ العظيم ، ص ١٧٣ و ١٧٤ .

طبيعة وحدة السورة :

فى السـورة وحـدة فكرية ، تعنى أن هناك روابط بين أجـزائهـا ، ويخطئ من يظن أن هذه الوحدة تعنى أن السورة موضوع مستقل ، أو فصل فى باب ، أو مبحث في كتاب .

فهناك فارق كبيـر بين طريقـة القـرآن ، وطريقـة التـأليف عند الناس ، القـرآن كتاب هداية يسلك إلى النفوس طريقها ، ويتخولها [1] بالموعظة بين الحين والآخر ، ولكنه جعل لكل سورة موضوعا عليها وسمات بارزة فيها .

★ ★ ★

(١) تخولتهم بالموعظة : تعهدتهم بها على فترات .

رأى الأستاذ محمد المدنى

يقول أستاذى المرحوم الشيخ محمد المدنى فى مقدمة كتابه (المجتمع الإسلامى كما تنظمه سورة النساء) .

« إن فى كل سورة من سور القرآن الكريم روحا يسرى فى آياتها ويسيطر على مبادئها وأحكامها وتوجيهاتها وأسلوبها .

ومن المعروف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر بوضع الآيات التى تنزل عليه منجمة فى مواضعها من السور، وأن ذلك كان عن وحى يتلقاه عليه الصلاة والسلام من جبريل عن الله رب العالمين، فهل كان ذلك إلا لمعنى ؟ وهل يأمر الله تعالى بوضع هذه الآيات هنا وهذه الآيات هناك إلا لحكمة ؟ وقد عنى المفسرون بكثير من الجوانب المتصلة بدراسة القرآن الكريم ، وقل فيهم من عنى بهذا الجانب الذى هو دراسة الروح العام لكل سورة والغرض الذى تهدف إليه .

ومن الواضح أن سور القرآن مع كون كل واحدة منها ذات طابع خاص وروح يسرى فى نواحيها لا يمكن أن تعد فصولا أو أبوابا مقسمة منسقة على نمط التآليف التى يؤلفها الناس، ومن أراد يفهمها على ذلك فإنه يكون متكلفا مشتطا محاولا أن يخرج بالقرآن عن أسلوبه الخاص الذى هو التنقل والمراوحة والتخول وبث العظة فى تضاعيف القول والوقوف عند العبرة لتجليتها ، والتوجه إلى مغزاها وانتهاز الفرصة أينما واتت لدعم العقيدة السليمة والمبادئ القويمة .

إن هناك فرقا بين من يحاول أن يفعل ذلك ومن يحاول أن يجعل القارئ يلمح الروح السارى ، والبيئة المعنوية الخاصة التى تجول فيها السورة دون أن يخرج التنزيل الحكيم عن سننه وأسلوبه الذى انفرد به وكان من أهم نواحى الإعجاز فيه.

وهذه الطريقة فى الدراسة القرآنية أجدى على الناس من تتبع الآيات آية، بحسب ورودها فى السورة ، ومن تتبع جمل كل آية وكلمات كل آية وأحيانا حروف كل آية أيضا ليدرس كل ذلك على نحو من التفصيل أو الإجمال أو على نحو من التطويل أو الإيجاز، فإن ذلك لا يعطى المنظر العام ولا يساعد على تصور عظمة السورة مجتمعة الملامح منضمة التقاسيم كاملة الوضع » [1] .

إن النظرة الكاملة للسورة تبرز شخصيتها وتجعل القارئ يتعرف على فكرتها العامة ، ويتتبع موضوعاتها داخل الإطار العام المميز لها من غيرها وشتان بين صورة متكاملة متجانسة وبين أجزاء مفككة مقطعة لهذه السورة . شتان بين من يصف قصرا شامخا ببيان نوع أحجاره ولبناته وأخشابه وحديده ومقابض أبوابه وبين من ينظر إلى جملته كبيت كامل أو كصرح عظيم .

يرى الإمام أبو حامد الغزالى أنه شتان بين من يقدم عبدا هدية لإنسان وبين من يقطع أوصاله ليقدمها هدية . مع أن العبد فى الواقع هو مجموع هذه الأجزاء .

ويقول الغزالى : الصلاة المشتملة على الركوع والسجود وسائر الأركان بدون حضور القلب أشبه بأجزاء العبد حين تقدم هدية، أما الصلاة المشتملة على الخشوع وحضور القلب فهى أشبه بالعبد الكامل حين يقدم هدية فيها الروح والحياة والجمال [2] .

لقد تكفل الله بحفظ كتابه ، وهذا الحفظ لا يعنى حفظ النصوص وحدها ولكنه يعنى أيضا حفظ المعنى والروح السارية فى القرآن الكريم ، وما أحوجنا أن نتعرف على روح القرآن الهادية: سوره ومقاصدها وآداب آياته وأحكامها .

إن هناك يقظة فكرية فى البلاد الإسلامية ، وتوجد رغبة ملحة فى أن يعود المسلمون إلى القرآن وأن يتعرفوا على هديه .

---

(١) محمد محمد المدنى : المجتمع الإسلامى كما تنظمه سورة النساء ص ٥ – ٧ .

(٢) إحياء علوم الدين كتاب الصلاة ، مبحث الخشوع فى الصلاة بتصرف .

وفى رأيى أن تيسير الأهداف العامة للسورة وتوضيح أفكارها وسماتها يساعد القارئ على إدراك الروح العامة للآيات والإحساس بالوشائج والصلات التى تربط بين أجزاء كل سورة وهذا يسهل الحفظ لمن أراد الحفظ ويسهل الإحاطة بالمعنى الإجمالى للآيات لمن أراد القراءة والتلاوة، ويقرب القرآن وييسر فهمه حتى يتعظ به المؤمنون ويهتدى به المسلمون وصدق الله العظيم : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (القمر:١٧) .



السبع الطوال فى القرآن

هذه نماذج من أهداف السور ، تبين السمات الأساسية للسورة وتذكر الأهداف العامة لها والأغراض الرئيسية التى اشتملت عليها .

ونبدأ بأهداف سورة البقرة ثم آل عمران ثم النساء ثم المائدة ثم الأنعام ثم الأعراف ثم الأنفال وهى السور التى تلقب بالسبع الطوال .

ومن هذه الأهداف يتضح لنا أن السورة وحدة متناسقة قد تتعدد موضوعاتها ولكن هناك وشائج تربط بين هذه الموضوعات ، وهناك روح سار يسيطر على ما تثيرها السورة من أفكار ومبادئ وما تذكره من قصص أو مشاهد .

وهذا يؤكد إحكام الصنعة ، وإعجاز الكتاب وسوره ، وروعته فلا يتسنى لأحد من البشر أن يربط بين هذه المعانى المتعددة ، أو ينسق بين الموضوعات العديدة ، إنما يملك ذلك رب البشر الذى أنزل الكتاب قرآنا عربيا غير ذى عوج لا اختلاف فيه ولا اضطراب ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا .

* * *

الأهداف العامة لسورة البقرة

سورة البقرة سورة مدنية وهي من أجمع سور القرآن الكريم وقد اشتملت على الأهداف الآتية :

١- بيان أصول العقيدة وذكر أدلة التوحيد ومبدأ خلق الإنسان .

٢- بيان أصناف الخلق أمام هداية القرآن، وذكرت أنهم أصناف ثلاثة المؤمنون والكافرون والمنافقون .

٣- تعرضت السورة لتاريخ اليهود الطويل وناقشتهم فى عقيدتهم وذكرتهم بنعم الله على أسلافهم وبما أصاب هؤلاء الأسلاف حينما التوت عقولهم عن تلقى دعوة الحق من أنبيائهم السابقين وارتكبوا صنوف العناد والتكذيب والمخالفة. واقرأ فى ذلك قوله تعالى :

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ (البقرة : ٤٠) .

إلى آخر آية البر فى منتصف السورة تقريبا وهى :

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ (البقرة : ١٧٧) .

وهذا الغرض من أغراض السورة استدعاه جوار المسلمين لليهود فى المدينة.

٤- التشريع الإسلامى الذى اقتضاه تكون المسلمين فى المدينة كجماعة متميزة عن غيرها فى عباداتها ومعاملاتها وعاداتها ، وقد تحدث النصف الثانى من السورة عن هذه التشريعات فذكرت الآيات أحكام القصاص وذكرت الصيام والوصية والاعتكاف والتحذير من أكل أموال الناس بالباطل وذكرت الأهلة وأنها جعلت ليعتمد الناس عليها فى أوقات العبادة والزراعة وغيرها . وذكرت الحج والعمرة وذكرت القتال وسببه الذى يدعو إليه وغايته التى ينتهى إليها. وذكرت الخمر والميسر واليتامى وحكم مصاهرة المشركين . وذكرت حيض النساء والتطهر منه والطلاق والعدة والخلع والرضاع ، وذكرت البيع والربا وذكرت طرق الاستيثاق فى الديون بالكتابة والاستشهاد والرهن .

ويبدأ هذا السياق من قوله تعالى بعد آية البر:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى . . . ﴾ (البقرة : ١٧٨) . إلى آخر السورة . وكان يتخلل ذلك - على طريقة القرآن - ما يدعو المؤمنين إلى التزام هذه الأحكام وعدم الاعتداء فيها من قصص ووعد ووعيد وإرشاد إلى سنن الله فى الكون والجماعات، ثم تختم سورة البقرة ببيان عقيدة المؤمنين على نحو ما بدأت فى بيان أوصاف المتقين، ومن ثم يتناسق البدء والختام، وفى آخر سورة البقرة نجد آيتين جامعتين لمعنى الإيمان وهما .

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة : ٢٨٥ - ٢٨٦) .

* * *

أهداف سورة آل عمران

سورة آل عمران سورة مدنية نزلت فى العام الثالث من الهجرة، وقد اشتملت على الأهداف الآتية :

١- تقرير الحق فى قضية العالم الكبرى وهى مسألة الألوهية وإنزال الكتب وما يتعلق بها من أمر الوحى والرسالة وبيان وحدة الدين عند الله وذلك فى الآيات الأولى من السورة .

٢- تقرير العلة التى من أجلها ينصرف الناس فى كل زمان ومكان عن التوجه إلى معرفة الحق والعمل على إدراكه والتمسك به، وقد بينت أن هذه العلة هى غرور الناس بما لهم من أموال وجاه وسلطان .

قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾ (آل عمران: ١٤) الآيات، كما دعت السورة إلى الصدق فى الإيمان وعدم الاغترار بزخارف الحياة .

٣- فى النصف الثانى من السورة نجد دروسا مستفيضة عن أسرار النصر فى غزوة بدر والهزيمة فى غزوة أحد، قال تعالى : ﴿ وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران ١٣٩ والآيات التالية) .

٤- التحذير من ولاية غير المؤمنين والتهوين من شأن الكافرين قال تعالى: ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران ٢٨) .

وقال سبحانه : ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ ﴾ (آل عمران : ١٩٦) .

٥- كانت السورة بلسما شافيا يأسو جراح المسلمين فى غزوة أحد ، فتحدثت عن الابتلاء والاختبار وذكرت فضل الشهداء وعاقبة الصابرين الأوفياء من الآية ١٢١ إلى آخر السورة حيث يقول سبحانه فى الآية الأخيرة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران : ٢٠٠) .

* * *

أهداف سورة النساء

سورة النساء مدنية عنيت بتوضيح معالم المجتمع الإسلامى وتبين الخطوط المكونة لصورته والمميزة لملامحه وقسماته على الوجه الذى يسعده ويرد عنه غوائل الشر وعوامل الفساد .

ويمكن أن نجمل أهداف سورة النساء فى الأمور الآتية :

١- إعلان مبدأ المساواة بين الناس تمهيدا لإقامة المجتمع على أساسه .

٢- حقوق النساء واليتامى والسفهاء .

٣- أحكام الزوجية وما يتصل بها .

٤- أحكام المواريث .

٥ - التضامن الاجتماعى فى ظل التوحيد والخلق الكريم .

٦- أساس الحكومة الإسلامية .

٧- التحذير من أهل النفاق والكفر، ومن الأعداء الذين يتربصون الدوائر بالمؤمنين ويحاربونهم حربا مادية ومعنوية .

٨- إرسال الرسل شأن إلهى وليس محمد بدعا من الرسل .

٩ - إقامة الحجة على من يزعمون التثليث وإثبات أن الله واحد وأن المسيح ما هو إلا عبد الله .

١٠- الرسالة المحمدية رسالة عامة موجهة إلى الناس أجمعين .

* * *

أهداف سورة المائدة

سورة المائدة سورة مدنية، وهى من أواخر ما نزل من القرآن ، لم تنزل إلا بعد أن قلمت أظافر الشرك وارتفع شأن المسلمين وقويت دولتهم ، ولذلك لم تتحدث السورة عن الشرك والمشركين وإنما تحدثت عن أمرين بارزين :

الأول : تشريع ينظم شئون المسلمين فى خاصة أنفسهم وفى معاملة من يخالطون .

الثانى : إرشادات لطرق المحاجة والمناقشة وبيان الحق فى المزاعم التى يثيرها أهل الكتاب مما يتصل بالعقائد والأحكام .

من تشريعات سورة المائدة :

١- الوفاء بالعقود والمواثيق .

٢- تفصيل أحكام الطعام وبيان حرامه وحلاله .

٣- تحريم الخمر وتحريم الميسر (القمار) .

٤- بيان محظورات الإحرام فى الحج .

٥- حدود المحاربين الذين يفسدون فى الأرض .

٦- أحكام الأيمان وكفارتها .

٧- أحكام خاصة بمعاملة أهل الكتاب منها معاملتهم بالعدل والحكم بينهم بالقسط وإباحة أكل طعامهم وتزوج نسائهم وقبول شهاداتهم والعفو والصفح عنهم .

٨ - براءة المسيح يوم القيامة ممن جعله إلها وتفويضه الأمر كله لله الحق فهو سبحانه المتفرد بالعلم والقدرة والألوهية .

* * *

أهداف سورة الأنعام

سورة الأنعام سورة مكية نزلت جملة واحدة فى السنة الرابعة من البعثة واشتملت على الأغراض الآتية :

١- توحيد الله ويتصل بهذا إقامة الدليل على وحدة الألوهية بلفت الأنظار إلى آثار الربوبية، وإلى صفات الله الخالق المتصرف ، كما يتصل بها إبطال عقيدة الشرك ، وشبهات المشركين ، وتقرير أن العبادة والتوجيه والتحريم إنما ترجع إلى الله .

ونلمح ذلك فى أول آية من السورة وهى :

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (الأنعام: ١)

وقد بسط هذا المعنى فى الآيات التالية لهذه الآية .

٢- الإيمان برسوله الذى أرسله ، وكتابه الذى أنزله . وبيان وظيفة هذا الرسول ، قال تعالى:

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ . . .﴾ (الأنعام : ١٩) .

٣ - إثبات البعث و الجزاء لينال المحسن جزاء إحسانه والمسىء جزاء إساءته، وقد لونت السورة فى أدلتها لإثبات البعث، وصورت مواقف المشركين وما سيكونون عليه فى ذلك اليوم . قال تعالى :

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (الأنعام : ٢٢) وما بعدها

٤- ذكرت السورة طرفا من قصة إبراهيم الخليل، وتأمله فى ملكوت السموات والأرض ، ليرشد قومه عن طريق الحوار إلى فساد اعتقادهم ، فقد استدرج إبراهيم قومه للتأمل فى عظمة النجم والقمر والشمس وتأليهها ، ثم رآها تنتقل من مكان إلى مكان ، وتحول من حال إلى حال فتبرأ من عبادتها واتجه للخالق البارئ الذى فطر السموات والأرض ، انظر الآيات ٧٤ إلى ٨٨ من سورة الأنعام .

٥ - اشتمل الربع الأخير من السورة على عشر وصايا وهى النهى عن الإشراك بالله ، والأمر بالإحسان إلى الوالدين والنهى عن قتل الأولاد ، وعن الزنا ، وعن قتل النفس ، ثم أمرت الآيات بالإحسان إلى اليتيم ، وإتمام الكيل والميزان كما أمرت بالعدل والوفاء بالعهد والاستقامة، وبدأت هذه الوصايا بقوله تعالى:

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (الأنعام: ١٥١) .

* * *

أهداف سورة الأعراف

سورة الأعراف سورة مكية وهى السورة المكية الثانية فى ترتيب المصحف وموضوع السورة الرئيسى هو الإنذار .

انذار من يتولون غير الله ، ومن يستكبرون عن طاعة الله ومن ينسون الله، ومن لا يشكرون نعمته ، إنذارهم هلاك الدنيا وعذاب الآخرة ، ذلك فوق الخزى والهوان والنسيان .

تبدأ السورة بالإنذار ، ثم تسلك بهذا المعنى سبلا شتى ، وتتصرف به تصرفات كثيرة وترسم له صورا متعددة وتلمس به المشاعر لمسات مختلفة .

فتارة يأخذ السياق شكل القصة . قصة آدم مع إبليس ثم قصص نوح و هود وصالح وشعيب وموسى مع أقوامهم لتنتهى كل قصة بالعذاب والنكال لمن يخالفون عن أمر الله . وتارة يأخذ شكل مشهد من مشاهد القيامة ، أو مشاهد الاحتضار

تتكشف فيه مصائر المكذبين المتكبرين ومصائر الطائعين لله رب العالمين ، وتتسم سورة الأعراف بتلك السمات التى أسلفنا الحديث عنها فى سورة الأنعام ، وهى سمات السورة المكية عموما فى الدعوة إلى رسالة الإسلام ، وبيان أصول الدعوة وهى : توحيد الله فى العبادة والتشريع وتقرير البعث والجزاء وتقرير الوحى والرسالة بوجه عام، وتلك هى أصول الدعوة الدينية التى كانت لأجلها جميع الرسالات الإلهية .

* * *

أهداف سورة الأنفال

سورة الأنفال مدنية نزلت فى العام الثانى من الهجرة ، ومن الأسباب المباشرة لنزولها معالجة شئون حدثت بين المسلمين فى غزوة بدر ، منها كراهتهم للخروج إلى بدر حين دعاهم الرسول إلى الخروج ، وكراهتهم للقتال حين وصلوا إلى بدر وتحتم عليهم أن يقاتلوا ، ومنها اختلافهم بعد تمام النصر فى قسمة الغنائم ، ومنها اختلاف الرأى فى معاملة الأسرى أيقبلون منهم الفداء أم يقتلونهم ، وفى جو هذه الشئون عرضت السورة لما يجب أن يكون عليه المسلمون فى خاصة أنفسهم ، من جهة امتثال الأمر والإخلاص والحيطة والحذر من الأعداء ، وتذكر نعم الله عليهم والآداب التى يجب مراعاتها أثناء القتال ، وفيما يتصل به من إعداد العدة والمحافظة على العقود وعلاقة بعضهم ببعض ، حتى يكونوا أهلا لما وعد الله به من النصر والتأييد .

وقد كان الصحابة يسمون سورة الأنفال بسورة بدر لما تضمنته من وصف المعركة وبيان ما صاحبها من نزول المطر ونزول الملائكة ، وقد بينت السورة أسباب النصر وصفات المؤمنين ودستور السلم والحرب ودستور الغنائم والأسرى ودستور المعاهدات والمواثيق .

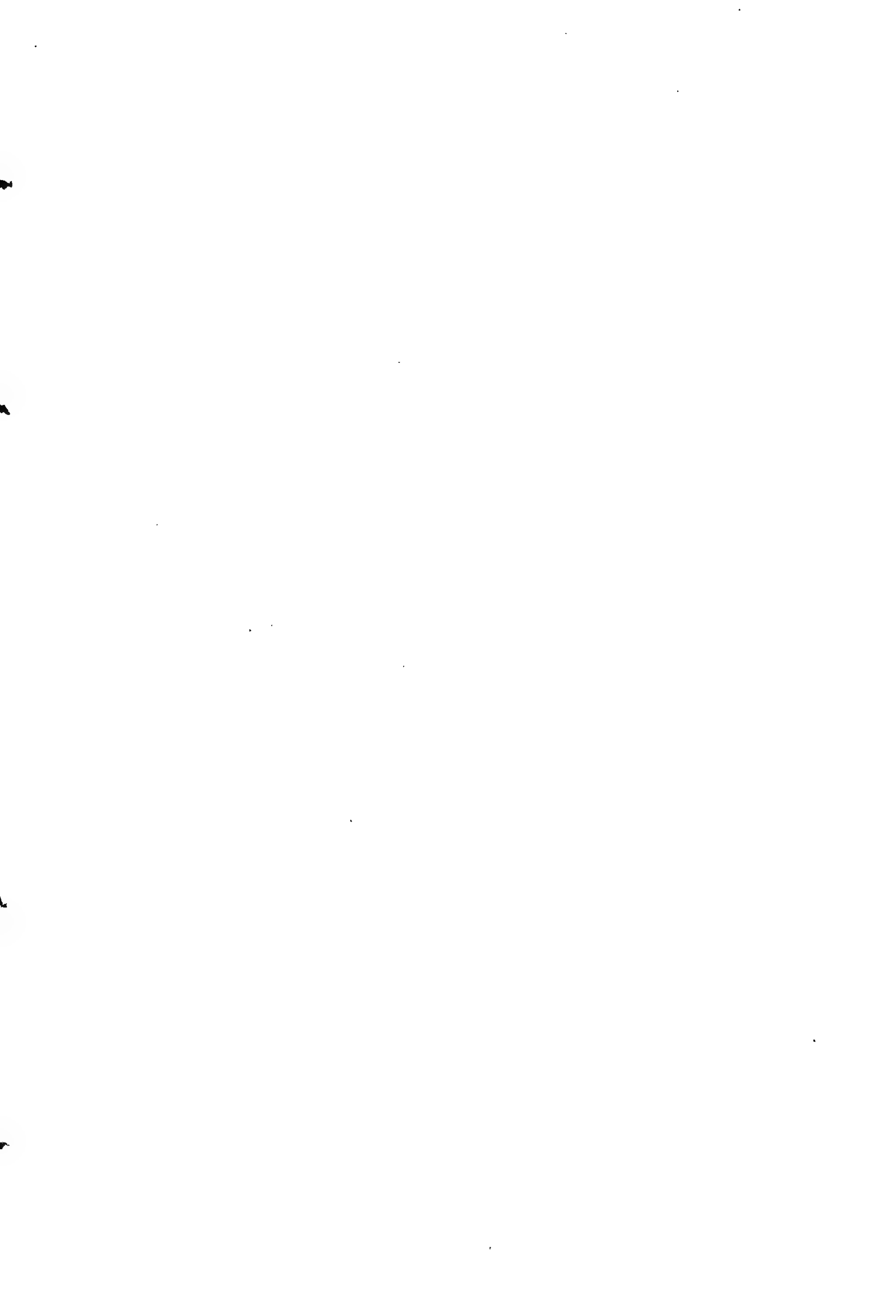
* * *

الفصل العاشر

قراءة القرآن وحفظه

قال ﷺ : « من حفظ القرآن ألبس
والداه يوم القيامة تاج الكرامة نوره يغلب
نور الشمس » .

رواه أحمد فى مسنده



القـرآن كـلام الله تعـالى وهو وحـيـه إلى خلقـه ورسـالتـه إلى الناس أجـمـعـين. والقرآن دستور المسلمين وإمامهم. وتلاوة القرآن الكريم أفضل عبادة .

عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقـول : « **إنه سـتكون فـتن**» قلت: ما المخـرج منهـا يا رسول الله؟ فقـال النبى صلى الله عليه وسلم :

« كتاب الله تعـالى، فيه نبأ من قبلكم وحكم ما بينكم وخبـر مـا بعـدكم وهو الجـد ليس بالهـزل من تركه من جبـار قصمـه الله ومن ابتغى الهدى فى غيـره أضله الله لم تسـمـعـه الجن حتى قالت: إنا سـمـعنا قـرآنا عـجبا يهدى إلى الرشـد فـآمنا به ولن نشـرك بربنا أحدا ، من قـال به صـدق ومن حكم به عـدل ومن اتبعـه هدى إلى صراط مستقيم» رواه الإمام أحمد فى مسنده .

إن المـسلمـين فى حـاجـة إلى عـاطفـة صـادقـة تربطهم بالقـرآن الكـريم وحب ورغـبـة فى تـلاوة القـرآن وترتيله وتفـهم مـعـانيـه والـعـمل بأحكامـه فـإن ذلك أوسع أبواب الرحمة .

وفى الحديث الشـريف « اقرأوا القرآن فإن الله يأجركم بكل حرف منه عشر حسنات لا أقول الم حرف، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » .

وفى كتب السنة الصحـاح بيـان فضل القـرآن وتـلاوته والتغنى به، أى تحسين الصوت والترتيل فى خشوع وحنان ، وليس معناه أن يغنى بالقرآن مع الموسيقى ، بل المراد ترقيق الصوت وتحسينه فى خشوع حتى يكون القرآن أكثر تأثيرا .

سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا موسى الأشـعرى يقـرأ القـرآن فى ظلام الليل ، وفى الصـبـاح أخـبـره النبى صلى الله عليـه وسـلم بذلك . فـقـال أبو موسى: يا رسول الله، لو عـرفت أنـك تسمع لحبـرته لك تحبيـرا، أى جودته تجـويدا وأتقنت الأداء إتقانا .

وفى كتاب الفتح الربانى لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى للشيخ أحمد عبد الرحمن البنا فى الجزء الثامن عشر نجد طائفة من الأحاديث الشريفة ، والمجلد بالكامل يشتمل على فضل القرآن وكتابة القرآن .

ومن هذه الأحاديث التى رواها الإمام أحمد فى مسنده ما يأتى :

١- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ما من نبى إلا وأوتى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحى إلى وإنى لأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » .

ومعناه أن الله أعطى الأنبياء السابقين معجزات تدعو الناس إلى الإيمان كناقة صالح ، وعصا موسى وشفاء المسيح للمرضى ؛ ولكن الله أعطى نبيه وحى السماء ليكون رسالة مستمرة إلى يوم القيامة، وسيكون المؤمنون بالقرآن وبمحمد صلى الله عليه وسلم أكثر من أتباع أى رسول آخر يوم القيامة .

٢- قال صلى الله عليه وسلم :

« الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة ، يقول الصيام يا رب منعته الطعام بالنهار فشفعنى فيه، ويقول القرآن يا رب منعته النوم بالليل فشفعنى فيه » .

فالصيام إمساك عن المفطرات من الفجر إلى غروب الشمس ، وهذا الصيام يأتى يوم القيامة شفيعا للصائمين ، وكذلك القرآن إذا قرأه الإنسان ولو بقدر يسير كل ليلة يشفع للمؤمن لأن المؤمن حرم نفسه من لذة النوم حتى يتلو القرآن .

٣- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لو أن القرآن جعل فى إهاب ثم ألقى فى النار ما احترق » .

أى لو جعلنا المصحف فى غلاف وألقيناه فى النار فإن النار لا تحرق المصحف ، وفى شرح الحديث أنه كناية عن أن الله لا يعذب مؤمنا جعل القرآن فى

قلبه وحفظه فى صدره لأن الإنسان سيكون إهابا وغلافا للقرآن ، أى أن الله لا يعذب مؤمنا حفظ فى جوفه القرآن .

٤- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« تعلموا كتاب الله وتعاهدوه ، وتغنوا به فوالذى نفسى بيده إنه لأشد تفلتا من صاحبه من البعير عليه عقاله » .

والحديث يطلب من المسلم أن يستمر فى تلاوة القرآن كل يوم ولا يهمل فى تلاوته وعليه أن يقرأ بالقرآن فى الصلاة ويرتله ويتغنى به أى يقرأه بصوت حسن وغن ومد ، وإذا أهمل الإنسان تلاوة القرآن فسيضيع منه الحفظ لأن القرآن كالإبل إذا أطعمتها وجدتها وإذا أهملتها وفككت عقالها هربت تبحث عن المرعى فى أى مكان .

٥ - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لا حسد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار » .

والحسد هنا بمعنى الغبطة ، وهى أن تتمنى مثل الغير مع بقاء النعمة عليه . والمعنى أن الدنيا زائلة وهناك أمران فقط يستحقان الحرص عليهما وعمل مثلهما.

الأول الاقتداء برجل أعطاه الله مالا ثم وفقه إلى إنفاقه فى وجوه الخير وإهلاك جزء كبير منه فى الزكاة والصدقة وأنواع البر والمعروف للناس نهارا وينفذ أوامره ويلتزم بأحكامه ويحل حلاله ويحرم حرامه .

والحديث مروى فى البخارى وفى مسند الإمام أحمد وله فى البخارى روايتان الرواية السابقة ورواية أخرى تقول :

« لا حسد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها الناس» .

وقد فسر العلماء الحكمة بأنها السنة المطهرة ، أو القرآن الكريم أو حسن التأنى للأمور ، أو أنواع المعارف الإسلامية وتشمل القرآن والسنة والفقه والقضاء والاجتهاد .

قال تعالى: ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ (البقرة : ٢٦٩) .

٦ - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم الرحمة وحفتهم الملائكة وغشيتهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده».

والحديث واضح ظاهر ، ويفيد أن رحمة الله تحف بقارئ القرآن وتنزل فوقه الملائكة وتغشاه السكينة والأمان والعناية الإلهية ،

ويخطئ المسلمون كثيرا حين ينظرون للقرآن على أنه تعليمات مهومة أو كتاب يتلى فقط .

ولكن الحقيقة هى أن هذا الكتاب بنى أمة وأنشأ دولة وربى جيلا من المسلمين، وكان القرآن دستور حياتهم وقائد مسيرتهم، وإذا عاد المسلمون إلى هدى القرآن والعمل به عادت إليهم العزة والمنعة ، وإذا أعرضوا عن هديه أعرض عنهم العز والأمان .

يقول القرآن : ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ (طه : ١٢٥ ، ١٢٦).

٧- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ما أذن الله لشيء ما أذن لنبى أن يتغنى بالقرآن يجهر به » .

ومعناه أن الصوت الحسن مطلوب عند تلاوة القرآن والله تعالى لم يستمع إلى شيء كاستماعه إلى نبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن أى يجهر به ويرتله ترتيلا ويحسن تلاوته .

وقد ورد فى مسند الإمام أحمد أحاديث كثيرة تحث على الترتيل والتجويد والتنغيم عند تلاوة القرآن، منها قوله صلى الله عليه وسلم :

« ليس منا من لم يتغن بالقرآن» ، « زينوا القرآن بأصواتكم » « إن أبا موسى قد أعطى مزمارا من مزامير آل داود » .

وهذه الأحاديث دعوة إلى التجويد وحسن الأداء وجودة النطق وتحلية الصوت حتى يؤثر فى السامعين فتلين القلوب وتقشعر الجلود قال تعالى :

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (الزمر: ٢٣) .

وبعض الناس يبالغ فى التطريب حتى يهيم الناس معه ويعجبون به ويرسلون آهات الاستحسان ، ولكن فى الأثر : (أفضل الناس قراءة من إذا قرأ حسبتموه يخشى الله) .

وروى الإمام أحمد فى مسنده :

عن عبد الله بن مسعود قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقرأ علىّ القرآن قلت يا رسول الله أقرأه عليك وعليك أنزل ؟ قال: نعم، فإنى أحب أن أسمعه من غيرى .

قال ابن مسعود: فقرأت صدرا من سورة النساء حتى وصلت إلى قوله تعالى :

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (النساء : ٤١) .

فإذا عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم تذرفان بالدموع .

إننا مدعوون إلى قراءة القرآن وتدبره وتفهمه حسب ما ييسر الله لكل إنسان،

روى البخارى فى صحيحه أن على بن أبى طالب رضى الله عنه سئل: هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشىء ؟ قال: لا . إلا فهما يؤتيه الله تعالى لرجل فى القرآن .

وروى أبو حامد الغزالى فى الإحياء فصلا كاملا فى فضل تلاوة القرآن وقراءته ومتابعة قراءته من جديد كلما أتم الإنسان القرآن ويسمى هذا بالحال المرتحل ، فهو كلما أتم القرآن بدأ رحلة أخرى من أول كتاب الله .

وفى إحياء علوم الدين للغزالى ، أن الإمام أحمد بن حنبل رأى جلال الله تعالى فى المنام ٩٩ مرة فقال فى نفسه: وعزتك وجلالك لئن رأيتك بعد ذلك لأسألنك .

قال الإمام أحمد: فلما رأيت جلال الله فى المنام قلت: يا رب ما أفضل ما تعبدك به المتعبدون ؟ قال: بكلامى يا أحمد. قلت: يا رب بفهم أو بغير فهم؟ قال: بفهم وبغير فهم .

* * *

إن القلب الذى لا يقرأ القرآن أشبه بالبيت الخرب الذى لا عمران فيه فينبغى ألا نهجر القرآن ، نقرؤه فى الصباح والمساء وإذا قرأ الانسان جزءين من القرآن فى اليوم والليلة أتم تلاوة القرآن فى خمسة عشر يوما .

وينبغى أن نتعاهد ما حفظناه من الآيات والسور بالقراءة والحفظ مرة أخرى.

ففى الحديث الشريف يقول النبى صلى الله عليه وسلم :

« عرضت على ذنوب أمتى فلم أر ذنبا أعظم من رجل حفظ آية من كتاب الله أو سورة من كتاب الله ثم نسيها » .

إن هذه الأحاديث الشريفة ينبغى أن تعمل عملها فى تحريك عزيمة المؤمن إلى رغبة صادقة فى تلاوة قدر من القرآن وحفظ قدر من القرآن . ومتابعة ذلك بأخلص الدعاء لله تعالى فى الصلاة وعقب سماع الأذان أن ينور الله بالقرآن

وجـوهنا وأن يحـرك به ألسنتنا وأن يرزقنا تلاوته وحـفظه وأن يجـمع القـرآن فى قلوبنا.

وهذا الإخلاص فى الدعاء إذا انضم إليه الأخذ بالأسباب يسر الله للإنسان التلاوة والحفظ .

دخل مهندس السجن لأسباب سياسية وسمح له بالمصحف فأقبل على القرآن تلاوة وحفظا حتى حفظه فى ستة أشهر، وحكى لى من أثق به أن ابنته رغبت فى حفظ القرآن فكانت تتلوه وهى فى المطبخ تعد الطعام وتغسل الأطباق ولم تترك فرصة لقراءة القرآن إلا انتهزتها حتى حفظت القرآن عن ظهر قلب وأصبح القرآن على لسانها كالماء الجارى بفضل الله مع صدق الرغبة وصدق النية والعزيمة. وفى الحديث الصحيح : « **إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه** » .

نماذج مضيئة :

دخل على فى السنة الرابعة بكلية دار العلوم سنة ١٩٥٥ م . أستاذ التفسير وكان يرتدى جبة واسعة وعمامة جميلة وله لحية تستدير حول ذقنه وله سمت العلماء ووقار الصالحين، كان هذا الأستاذ هو الدكتور محمد عبد الله دراز .

وفسر لنا صدرا من سورة النساء ورسم لنا منهجا فى تفسير القرآن وإدراك أهدافه ومراميه، وكان هذا الأستاذ لا يرى إلا قارئا للقرآن أو كاتبا لكتاب أو ذاكرا لله تعالى وقد أثرى المكتبة الإسلامية ، وكتابه القيم (النبأ العظيم نظرات جديدة فى القرآن الكريم) من أحسن ما كتب فى علوم القرآن الكريم .

الأستاذ الشيخ محمد الغزالى :

هو عالم معاصر حصل على العالمية من الأزهر الشريف وتابع الدراسة والتأليف والدعوة إلى الإسلام بقلمه وخطبه وجميع ما يملك حتى حديثه العادى

ومحاضراته العامة والخاصة، وقد رحلت مع الأستاذ الشيخ محمد الغزالى إلى لبنان الشقيق فى شهر رمضان المبارك فى السنة الميلادية ١٩٥٧ م لنشر الثقافة الإسلامية بين جماهير المسلمين ، وكان الأستاذ الغزالى شابا عمره أربعون سنة وكان يلتهم العلم التهاما ولا يترك لحظة تمر إلا قارئا فى كتاب ، أو كاتبا لموضوع أو مسترسلا فى تلاوة القرآن ، وكان يصلى بنا إماما فى صلاة التراويح كل ليلة من ليالى رمضان فيقرأ جزءا من القرآن الكريم ، والقرآن ثلاثون جزءا فكان يختم القرآن فى شهر رمضان .

وفى ذلك الشهر صدر له كتاب نظرات فى القرآن فى طبعته الأولى (سنة ١٩٥٧ م) .

وفى آخر هذا الكتاب خاتمة ، يذكر فيها الأستاذ محمد الغزالى أنه حفظ القرآن الكريم وهو طفل فى العاشرة ، ثم يقول : (والتحقت بمعهد الإسكندرية الدينى ، وعندما تخرجت فى المعهد الدينى كنت تقريبا لا أحسن التلاوة عن ظهر قلب كما كنت يوم بدأت حياتى العملية) .

ثم أدركتنى نفحة من رحمة الله ، فعزمت أن أمهر فى القرآن مرة أخرى .

وظللت أكافح فى هذا السبيل نحو خمس سنين طوال كنت أقرأ « الربع » نحو عشر مرات ومع ذلك يعز على حفظه .

وكان اليأس يخامرنى . ولكنى صابرت الأيام وتحملت العناء ورجوت الخير .

وفى أثناء مطالعتى للسنة النبوية ، قرأت حديثا نفعنى الله به ، وجربته فى التغلب على آفات النسيان فأفادنى .

وإنى أثبته هنا لعل الله ينفع به من يريد أن يتصل بكتابه . ويكون من حفاظه.

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ جاءه على رضى الله عنه فقال : بأبى أنت وأمى يا رسول الله . تفلت هذا القرآن من صدرى فما أجدنى أقدر عليه .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أبا الحسن : أفلا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن وينفع بهن من علمته ويثبت ما تعلمت فى صدرك ، قال: أجل يا رسول الله فعلمنى .

« قال : إذا كان ليلة الجمعة فإن استطعت أن تقوم فى ثلث الليل الآخر فإنها ساعة مشهودة والدعاء فيها مستجاب وقد قال أخى يعقوب لبنيه : سوف أستغفر لكم ربى . يقول حتى تأتى ليلة الجمعة .

فإن لم تستطع فقم فى وسطها ، فإن لم تستطع فقم فى أولها .

فصل أربع ركعات تقرأ فى الركعة الأولى بفاتحة الكتاب وسورة يس . والركعة الثانية بفاتحة الكتاب و «حم» - الدخان - وفى الركعة الثالثة بفاتحة الكتاب و« الم تنزيل » - السجدة - وفى الركعة الرابعة بفاتحة الكتاب وتبارك المفصل . فإذا فرغت من التشهد فاحمد الله وأحسن الثناء على الله وصل على وأحسن وعلى سائر النبيين واستغفر للمؤمنين والمؤمنات ولإخوانك الذين سبقوك بالإيمان .

ثم قل فى آخر ذلك : اللهم ارحمنى بترك المعاصى أبدا ما أبقيتنى ، وارحمنى أن أتكلف ما لا يعنينى ، وارزقنى حسن النظر فيما يرضيك عنى .

اللهم بديع السموات والأرض ياذا الجلال والإكرام والعزة التى لا ترام : أسألك يا الله يا رحمن بجلالك ونور وجهك أن تلزم قلبى حفظ كتابك كما علمتنى وارزقنى أن أتلوه على النحو الذى يرضيك عنى .

اللهم بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام والعزة التى لا ترام . أسألك يا الله يا رحمن بجلالك ونور وجهك أن تنور بكتابك بصرى وأن تطلق به لسانى وأن تفرج به عن قلبى وأن تشرح به صدرى ، وأن تعمل به بدنى لأنه لا يعيننى على الحق غيرك ولا يؤتينيه إلا أنت ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

يا أبا الحسن فافعل ذلك ثلاث جمع أو خمسا أو سبعا تجب بإذن الله ، والذى بعثنى بالحق ما أخطأ مؤمنا قط » .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : « فوالله ما لبث على إلا خمسا أو سبعا حتى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مثل ذلك المجلس فقال: يا رسول الله إنى كنت فيما خلا لا آخذ إلا أربع آيات أو نحوهن وإذا قرأتهن على نفسى تفلتن ، وأنا اليوم أتعلم أربعين آية أو نحوها وإذا قرأتها على نفسى فكأنما كتاب الله بين عينى .

ولقد كنت أسمع الحديث فإذا رددته تفلت . وأنا اليوم أسمع الأحاديث فإذا تحدثت بها لم أخرم منها حرفا» .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك : « مؤمن ورب الكعبة يا أبا الحسن ... » [1] .



(١) هذا الحديث : رواه الترمذى (رقم ٣٤٧٠) عن أحمد بن الحسن ؛ عن سليمان بن عبد الرحمن الدمشقى ، عن « الوليد بن مسلم» عن ابن جريج عن عطاء وعكرمة عن ابن عباس . وقال : « هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث « الوليد» .

* ورواه « الحاكم » من طريق الترمذى وقال : « صحيح على شرط الشيخين !!» وهذا من تساهله .

* ورواه أيضا « الدار قطنى » عن طريق الوليد أيضا . وفى أسانيده كلام طويل .

* راجع « الترغيب » للمنذرى (٢/ ٢٦٠) ؛ وتحفة الذاكرين للشوكانى : (١٦٠) « والفوائد .. » له ؛ و « اللآلئ ... » للسيوطى : (٢/ ٦٦) ؛ وأصله لابن الجوزى (٢/ ١٣٨) ، و« فضائل القرآن» لابن كثير فى آخر التفسير ص ٥٦ .

الفصل الحادى عشر

« من علوم القرآن »

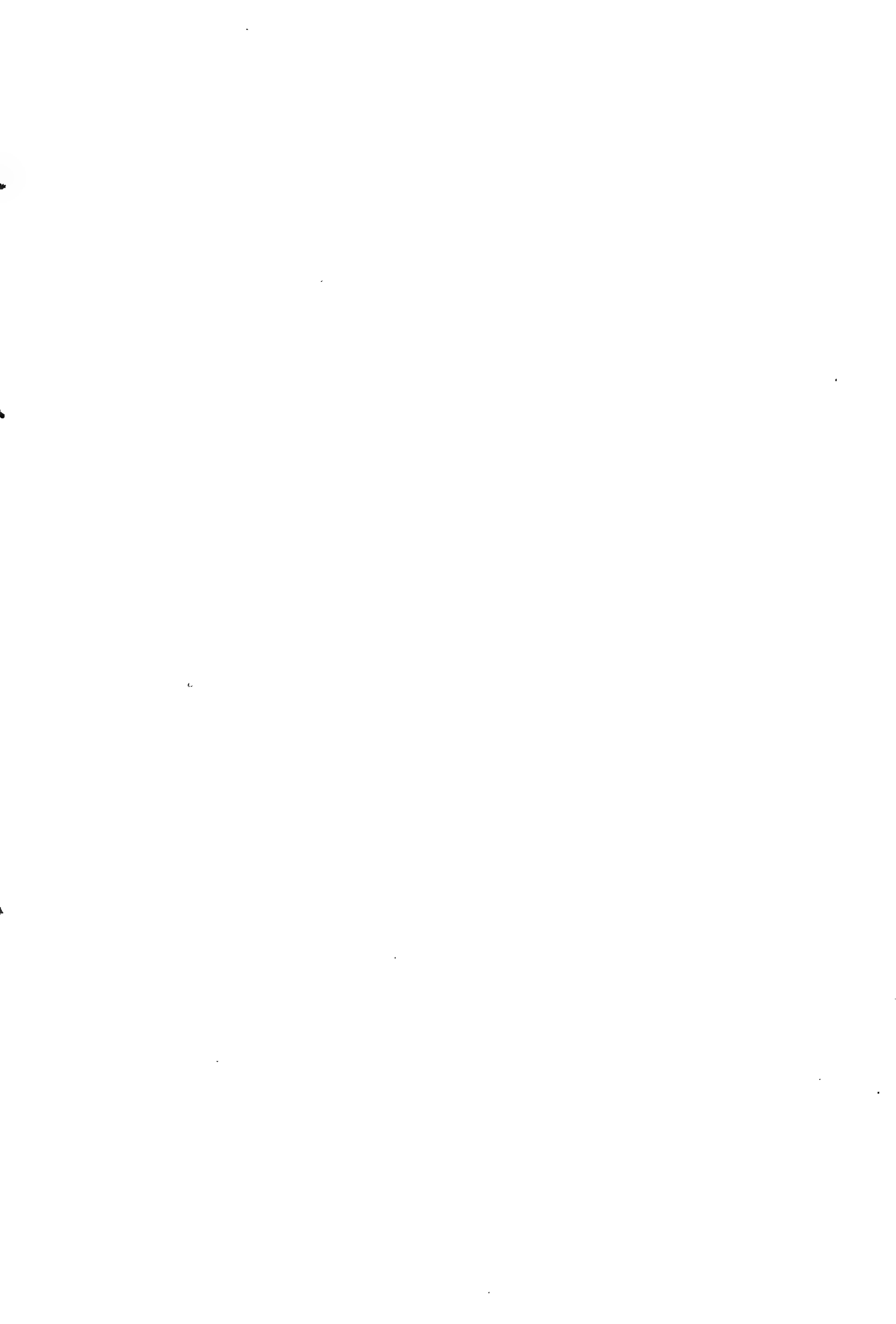
١- المحكم والمتشابه .

٢- العام والخاص .

٣- المطلق والمقيد .

٤- المنطوق والمفهوم .

٥- جدل القرآن .



- ١ -

المحكم والمتشابه

أنزل الله الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا ، فرسم للخلق العقيدة السليمة والمبادئ القويمة فى آيات بينات واضحة المعالم ، وذلك من فضل الله على الناس حيث أحكم لهم أصول الدين لتسلم لهم عقائدهم ويتبين لهم الصراط المستقيم ، وتلك الآيات هى أم الكتاب التى لا يقع الاختلاف فى فهمها سلامة لوحدة الأمة الإسلامية وصيانة لكيانها ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (فصلت : ٣) .

وقد تأتى هذه الأصول الدينية فى أكثر من موضع بالقرآن مع اختلاف اللفظ والعبارة والأسلوب إلا أن معناها يكون واحدا ، فيشبه بعضها الآخر ويوافقه معنى دون تناقض ، أما ما عدا تلك الأصول من فروع الدين فإن فى آياتها من العموم والاشتباه ما يفسح المجال أمام المجتهدين الراسخين فى العلم ، حتى يردوها إلى المحكم ببناء الفروع على الأصول . والجزئيات على الكليات وإن زاغت بها قلوب أصحاب الهوى - وبهذا الإحكام فى الأصول والعموم فى الفروع كان الإسلام دين الإنسانية الخالد الذى يكفل لها خيرى الدنيا والآخرة على مر العصور والأزمان [١] .

---

(١) راجع هذا الفصل فيما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية عن المحكم والمتشابه والتأويل فى التدمرية وغيرها من رسائله .

من تفسير القرآن الكريم

فسرت الجزء الثالث من القرآن الكريم ، وهو يشمل آخر سورة البقرة وصدر سورة آل عمران ، وطبعته دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٨٢ م ووجدت فيه تفسيرًا للآية السابعة من سورة آل عمران ، التى تتحدث عن المحكم والمتشابه ، و هذا هى الآية مع تفسيرها .

قال تعالى:

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ (آل عمران :٧) .

المفردات :

محكمات : واضحات .

متشابهات : محتملات لعدة معان لا يتضح مقصودها، فاشتبه أمرها على الناس .

زيغ : ميل عن الحق إلى الباطل .

ابتغاء الفتنة : طلبا لها .

الراسخون فى العلم : الثابتون فيه .

الألباب : العقول الخالصة .

المعنى العام للآية :

هو الذى أنزل عليك القرآن وكان من حكمته أن جعل منه آيات محكمات محددة المعنى بينة المقاصد ، هى الأصل وإليها المرجع ، وأخر متشابهات يدق معناها على أذهان كثير من الناس ، وتشتبه على الراسخين فى العلم. وقد نزلت هذه المتشابهات لتبعث العلماء على العلم والنظر ودقة الفكر فى الاجتهاد ، وفى البحث فى الدين .

وشأن الزائغين عن الحق أن يتبعوا ما تشابه من القرآن ، رغبة فى إثارة الفتنة ، وهم يؤولون الآيات حسب أهوائهم ، وهذه الآيات لا يعلم تأويلها الحق إلا الله ، والذين تثبتوا فى العلم وتمكنوا منه ، وأولئك المتمكنون منه يقولون : إننا نوقن بأن ذلك من عند الله ، لا نفرق فى الإيمان بالقرآن بين محكمه ومتشابهه ، وما يعقل ذلك إلا أصحاب العقول السليمة التى لا تخضع للهوى والشهوة .

ويتعلق بتفسير الآية ما يأتى:

١- المحكم والمتشابه

المحكمات :

من أحكم الشىء بمعنى وثقه وأتقنه ، والمعنى العام لهذه المادة المنع فإن كل محكم يمنع بإحكامه تطرق الخلل إلى نفسه أو غيره ، ومنه المحكم والحكمة ، وحكمة الفرس ، قيل وهى أصل المادة .

والمتشابه :

يطلق فى اللغة على ما له أفراد أو أجزاء يشبه بعضها بعضًا ، وعلى ما يشتبه من الأمر أى يلتبس، قال فى الأساس: (وتشابه الشيئان ، واشتبها ، وشبهته به. وشبهته إياه واشتبهت الأمور وتشابهت : التبست لإشباه بعضها بعضًا ، وفى القرآن: المحكم والمتشابه) .

٢- آراء العلماء فى المحكم

(أ) هو الحلال والحرام ... روى عن ابن عباس ومجاهد .

(ب) هو ما علم العلماء تأويله .

(ج) هو ما استقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان .

(د) هو ما لم يحتمل من التأويل إلا وجهًا واحدًا .

(هـ) هو الأمر والنهى والوعد والوعيد والحلال والحرام .

(و) عن ابن مسعود : قال: أنزل القرآن على خمسة أوجه :

حرام وحلال ، ومحكم ومتشابه ، وأمثال ، فأحل الحلال ، وحرم الحرام، وآمن بالمتشابه ، واعمل بالمحكم واعتبر بالأمثال .

(ز) قال ابن عباس (هن أم الكتاب) هن أصل الكتاب اللاتى يعول عليهن فى الأحكام ومجمع الحلال والحرام .

٣- آراء العلماء فى المتشابه

(أ) هو مالم يكن للعلماء إلى معرفته سبيل كقيام الساعة .

(ب) هو الحروف المقطعة فى فواتح السور كقوله (الٓمٓ) ونحو ذلك .

وقد جاء فى تفسير المنار أن المفسرين قد اختلفوا فى المحكم والمتشابه على أقوال :

(أحدها) أن المحكمات هى قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا . . . ﴾ (الأنعام ١٥١) إلى آخر الآية وكذلك الآيتان اللتان بعدها [١] والمتشابهات هى التى تشابهت على اليهود وهى أسماء حروف الهجاء المذكورة فى أوائل السور .

(ثانيها) أن المحكم هو الناسخ والمتشابه هو المنسوخ .

---

(١) نص الآيات هو : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ . « سورة الأنعام ١٥١ - ١٥٣ »

(ثالثها) أن المحكم ما كان دليله واضحًا لائحًا كدلائل الوحدانية والقدرة والحكمة ، والمتشابه ما يحتاج فى معرفته إلى التدبر والتأمل .

(ورابعها) أن المحكم كل ما أمكن تحصيل العلم به بدليل جلى أو خفى ، والمتشابه ما لا سبيل إلى العلم به كوقت قيام الساعة ومقادير الجزاء على الأعمال [١] .

٤- الوقف والوصل

فى قوله تعالى:

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ (آل عمران : ٧) .

للعلماء فى تفسير هذه الآية رأيان :

١- رأى بعض السلف وهو الوقوف على لفظ الجلالة ، وجعل قوله «والراسخون فى العلم» كلامًا مستأنفًا ، وعلى هذا فالمتشابه لا يعلم تأويله إلا الله ، واستدلوا على ذلك بأمور منها :

(أ) أن الله ذم الذين يتبعون تأويله .

(ب) أن قوله « يقولون آمنا به كل من عند ربنا» ظاهر فى التسليم المحض لله تعالى ومن عرف الشىء وفهمه لا يعبر عنه بما يدل على التسليم المحض .

وهذا رأى كثير من الصحابة رضوان الله عليهم كأبى بن كعب وعائشة .

٢- ويرى آخرون الوقوف على لفظ (العلم) ، ويجعل قوله : (يقولون آمنا) كلامًا مستأنفًا ، وعلى هذا فالمتشابه يعلمه الراسخون ، وإلى هذا ذهب ابن عباس وجمهرة من الصحابة ، وكان ابن عباس يقول : أنا من الراسخين فى العلم ، أنا أعلم تأويله .

---

(١) تفسير المنار : ٢ - ١٣٦ وهذه الأربعة ذكرها الرازى فى تفسيره .

وردوا على أدلة الأولين بأن الله تعالى إنما ذم الذين يبتغون التأويل بذهابهم فيه إلى ما يخالف المحكمات يبتغون بذلك الفتنة ، والراسخون فى العلم ليسوا كذلك فإنهم أهل اليقين الثابت الذى لا اضطراب فيه ، فالله يفيض عليهم فهم المتشابه بما يتفق مع فهم المحكم [1] ويشهد لصحة هذا الرأى أمران :

أحدهما : أن الله تعالى ما أنزل القرآن إلا ليعمل به : فلا ينبغى أن يكون فيه ألغاز ومعميات لا يمكن فهمها وإدراكها ، فمتشابهه يجب أن يرد إلى محكمه كما قال تعالى « هن أم الكتاب» : أى مرجعه عند الاشتباه .

وثانيهما : أن الله تعالى أثنى على الراسخين فى العلم بقوله : « وما يذكر إلا أولو الألباب » ففى وصفهم بأنهم أصحاب العقول الخالصة المتذكرة دليل على أنهم استعملوها فى كشف المتشابهات والتذكر بها .

٥- الحكمة فى وجود المتشابه

(أ) امتحان قلوب المؤمنين فى التصديق به .

(ب) هو حافز للعقول إلى النظر فيه .

(ج) البحث عن المتشابه ومحاولة فهمه من حظ الخاصة كما أن التسليم والتفويض من حظ العامة .

قال الزمخشرى : فإن قلت : فهلا كان القرآن كله محكما ؟

قلت : لو كان كله محكما لتعلق الناس به ، لسهولة مأخذه ، ولأعرضوا عما يحتاجون فيه إلى الفحص والتأمل والنظر والاستدلال ، ولو فعلوا ذلك ، لعطلوا الطريق الذى لا يتوصل إلى معرفة الله وتوحيده إلا به [2] .

---

(١) تفسير المراغى : ٣ - ١٠٠ .

(٢) وهو التفكر العقلى والتدبر فى الآيات .

ولما فى المتشابه من الابتلاء ، والتمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه، ولما فى تقادح العلماء وإتعاب القرائح فى استخراج معانيه ورده إلى المحكم ، من الفوائد الجليلة ، والعلوم الجمة، ونيل الدرجات عند الله ، ولأن المؤمن المعتقد أن لا مناقضة فى كلام الله ولا اختلاف فيه - إذا رأى فيه ما يناقض ظاهره - وأهمه طلب ما يوفق بينه، ويجريه على سنن واحدة ففكر وراجع نفسه وغيره ، ففتح الله عليه ، وتبين مطابقة المتشابه للمحكم - ازداد طمأنينة إلى معتقده ، وقوة إيمانه .. أهـ .

٦- زعم التناقض

زعم النصارى أن القرآن فيه تناقض حين نفى بنوة عيسى لله ، ثم أثبتها حين ذكر أنه روح منه ، وهذا زيغ منهم يبتغون به الفتنة ، فإن المراد من قوله « وروح منه» أنه صادر من الله ، فكما أن كل شىء صادر من الله بالخلق والإبداع ، فكذلك روح عيسى ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (الإخلاص:٣-٤)

٧- صفات الله

جاء فى القرآن الكريم آيات تدل بظاهرها على أن لله وجها ويدين وجهة هى السماء ومكانا هو العرش ونحو ذلك مما يوهم التشبيه والجسمية والانتقال ، وآيات أخرى تثبت له صفات مختلفة من العلم والقدرة والكلام ونحوها .

وطائفة ثالثة : منها ما يصرح بأنه لا تدركه الأبصار ومنها ما يدل على جواز رؤيته تعالى:

فرأى رجال السلف الصالح متابعة الصحابة والتابعين فى موقفهم منها .

« فغلبوا أدلة التنزيه لكثرتها ووضوح دلالتها ، وعلموا استحالة التشبيه ، وقضوا بأن الآيات من كلام الله فآمنوا بها ولم يتعرضوا لمعناها ببحث ولا تأويل»[1]

---

(١) د. عبد الله شحاتة ، علوم القرآن والتفسير ، دار الاعتصام: ص ٢٨٥ .

وقد سئل الإمام مالك عن معنى قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » فقال: « الاستواء معلوم ، والكيفية مجهولة ، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة »[١] .

ويقول الدكتور عبد الحليم محمود فى تفسير آل عمران :

ونشأت المشكلة : حينما بدأ الباحثون يتعرضون للآيات التى وردت فى القرآن الكريم ، والتى توهم التشبيه ، كاليد والوجه والاستواء ، أو التى وردت فى الأحاديث : كالنزول والصورة ، والأصابع .

بدأت المشكلة : حينما تعرض بعض الباحثين لهذه الألفاظ وأمثالها : تأويلا لها ، أو نفيا لمعناها ، أو تفسيرا أو شرحا ... ... والموقف الذى يقفه من أراد متابعة السلف الصالح إذن تجاه كلمات الصورة واليد والنزول ، إنما هو الإيمان بها مع التنزيه لله تعالى عن الجسمية وتوابعها ، وليس معنى ذلك ، أن هذه الألفاظ معطلة عن المعنى ، بل لها معنى يليق بجلال الله وعظمته : مما ليس بجسم ولا عرض فى جسم وأن يؤمن بأن ما وصف الله تعالى به نفسه أو وصفه به رسوله - صلى الله عليه وسلم - فهو كما وصفه ، وحق بالمعنى الذى أراده وعلى الوجه الذى قال ، وألا يحاول لها تفسيرا ولا تأويلا .

وشعار السلف معروف فى هذه الكلمات وهو :

«أمروها كما جاءت» - يقول الإمام الرازى فى كتابه (أساس التقديس) : « إن هذه المتشابهات ، يجب القطع فيها بأن مراد الله تعالى فيها ، شىء غير ظواهرها، ثم يجب تفويض معناها إلى الله تعالى : ولا يجوز الخوض فى تفسيرها».

إن الأصول الدقيقة للعقيدة والشريعة ، قاطعة الدلالة مدركة المقاصد، وهى أصل هذا الكتاب .

والذين فى قلوبهم زيغ ، يتركون الأصول الواضحة ويجرون وراء المتشابه لأنهم يجدون فيه مجالا لإيقاع الفتنة بالتأويلات المزلزلة للعقيدة ، والاختلافات

---

(١) الملل والنحل : ١ - ١١٨ .

التى تنشأ عن بلبلة الفكر نتيجة إقحامه فيما لا مجال للفكر فى تأويله ،وأما الراسخون فى العلم فيقولون فى طمأنينة وثقة « آمنا به كل من عند ربنا » أى الجميع من المحكم والمتشابه حق وصدق وكل واحد منهما يصدق الآخر ويشهد له وليس شىء من عند الله بمختلف ولا متضاد .

روى الإمام أحمد أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سمع قوما يتدارسون فقال : (إنما هلك من كان قبلكم بهذا ، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض ، وإنما أنزل كتاب الله ليصدق بعضه بعضا ، فلا تكذبوا بعضه ببعض ، فما علمتم منه فقولوا به، وما جهلتم فكلوه إلى عالمه) [1] .

- ٢ -

العام والخاص

للنظم التشريعية والأحكام الدينية مقاصد تهدف إليها ، وقد يجتمع للحكم التشريعى خصائص تجعله عاما يشمل كل الأفراد، أو ينطبق على جميع الحالات ، وقد يكون لذلك القصد غاية خاصة فالتعبير عنه يتناول بعمومه الحكم ثم يأتى ما يبين حده أو يحصر نطاقه ، والبيان العربى فى تلوين الخطاب وبيان المقاصد والغايات مظهر من مظاهر قوة اللغة واتساع مادتها. فإذا ورد هذا فى كلام الله المعجز كان وقعه فى النفس عنوان إعجاز تشريعى مع الإعجاز اللغوى .

تعريف العام وصيغ العموم

العام : هو اللفظ المستغرق لما يصلح له من غير حصر ، وله صيغ تدل عليه:

منها « كل » كقوله تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (آل عمران : ١٨٥) وقوله ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (الأنعام : ١٠٢) ومثلها جميع .

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير .. تحقيق محمد على الصابونى : ١- ٢٢٦ .

ومنها المعرف بأل التى ليست للعهد كقوله ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ (العصر ١-٢) أى كل إنسان ، بدليل قوله بعد ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (النساء : ١٦) وقوله ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾ (البقرة - ٢٧٥) وقوله ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ (المائدة-٣٨) .

ومنها : النكرة فى سياق النفى والنهى : كقوله ﴿ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ (البقرة : ١٩٧) وقوله ﴿ فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا﴾ (الإسراء - ٢٣) وفى سياق الشرط كقوله ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ﴾ (التوبة : ٦) .

ومنها : الذى والتى وفروعهما : كقوله ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا ﴾ (الأحقاف:١١) . أى كل من قال ذلك بدليل قوله بعد بصيغة الجمع ﴿أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ (الأحقاف : ١٨) وقوله ﴿ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا﴾ (النساء : ١٦) وقوله ﴿وَاللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ (الطلاق :٤) .

وأسماء الشرط : كقوله تعالى ﴿ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ (البقرة : ١٥٨) للعموم فى العاقل ، وقوله ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ (البقرة : ١٩٧) للعموم فى غير العاقل ، وقوله ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ (البقرة : ١٥٠) للعموم فى المكان ، وقوله ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ (الإسراء : ١١٠) .

ومنها : اسم الجنس المضاف إلى معرفة كقوله ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ (النور : ٦٣) أى كل أمر لله ، وقوله ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ﴾ (النساء : ١١) .

أقسام العام

والعام على ثلاثة أقسام :

الأول : الباقى على عمومه ، وقد قال القاضى جلال الدين البلقينى [1] :

«ومثاله عزيز ، إذ ما من عام إلا ويتخيل فيه التخصيص ، وذكر الزركشى فى «البرهان» أنه كثير فى القرآن . وأورد منه قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (النساء: ١٧٦) وقوله ﴿وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (الكهف : ٤٩) وقوله ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ (النساء : ٢٣) فإنه لا خصوص فيها .

الثانى : العام المراد به الخصوص - كقوله تعالى ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ (آل عمران : ١٧٣) فالمراد بالناس الأولى نعيم بن مسعود ، والمراد بالناس الثانية أبو سفيان لا العموم فى كل منهما ، يدل على هذا قوله تعالى بعد (إنما ذلكم الشيطان) فوقعت الإشارة بقوله (ذلكم) إلى واحد بعينه، ولو كان المعنى به جميعا لقال (إنما أولئكم الشيطان) وكقوله تعالى ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ (آل عمران : ٣٩) والمنادى جبرائيل كما فى قراءة ابن مسعود وقوله ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ (البقرة : ١٩٩) والمراد بالناس إبراهيم ، أو سائر العرب غير قريش .

الثالث : العام المخصوص - وأمثلته فى القرآن كثيرة جدا وستأتى :

ومنه قوله تعالى ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ﴾ (البقرة : ١٨٧) وقوله ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ (آل عمران : ٩٧) .

---

(١) هو عبد الرحمن بن رسلان ، أبوالفضل جلال الدين البلقينى ، كان عالما بارعا فى الفقه والتفسير وأصول العربية ، وله تعليق سماه : « الإفهام لما فى صحيح البخارى من الإبهام » تولى القضاء فى مصر ، وتوفى سنة ٨٢٤ هـ وانظر الإتقان ، صفحة ١٦ ج ٢ .

الفرق بين العام المراد به الخصوص والعام المخصوص

الفرق بين العام المراد به الخصوص والعام المخصوص من وجوه ، أهمها :-

١- أن العام المراد به الخصوص لا يراد شموله لجميع الأفراد من أول الأمر، لا من جهة تناول اللفظ ، ولا من جهة الحكم ، بل هو ذو أفراد استعمل فى فرد واحد منها أو أكثر .

أما العام المخصوص فأريد عمومه وشموله لجميع الأفراد من جهة تناول اللفظ لا من جهة الحكم ، فالناس فى قوله (الذين قال لهم الناس) وإن كان عاما إلا أنه لم يرد به لفظا وحكما سوى فرد واحد ، أما لفظ الناس فى قوله (ولله على الناس حج البيت) فهو عام أريد به ما يتناوله اللفظ من الأفراد . وإن كان حكم وجوب الحج لا يتناول إلا المستطيع منهم خاصة .

٢- والأول مجاز قطعا ، لنقل اللفظ عن موضوعه الأصلى واستعماله فى بعض أفراده ، بخلاف الثانى فالأصح فيه أنه حقيقة ، وعليه أكثر الشافعية وكثير من الحنفية ، وجميع الحنابلة ، ونقله إمام الحرمين [1] عن جميع الفقهاء وقال الشيخ أبو حامد الغزالى : إنه مذهب الشافعى وأصحابه ، وصححه السبكى لأن تناول اللفظ للبعض الباقى بعد التخصيص كتناوله له بلا تخصيص ، وذلك التناول حقيقى اتفاقا ، فليكن هذا التناول حقيقيا أيضًا .

٣- وقرينة الأول عقلية غالبا ولا تنفك عنه ، وقرينة الثانى لفظية وقد تنفك عنه فى المخصص المنفصل .

---

(١) إمام الحرمين ، هو عبد الملك بن أبى عبد الله بن يوسف بن محمد الجوينى الشافعى العراقى ، أبو المعالى ، كان شيخ الإمام الغزالى ، ومن أعلم أصحاب الشافعى ، توفى سنة ٤٧٨ هجرية .

تعريف الخاص وبيان المخصص

والخاص : يقابل العام، فهو الذى لا يستغرق الصالح له من غير حصر . والتخصيص : هو إخراج بعض ما تناوله اللفظ العام ، **والمخصص : إما متصل :** وهو الذى لم يفصل فيه بين العام والمخصص له بفاصل ، وإما منفصل : وهو بخلافه ، والمتصل خمسة : أحدها : الاستثناء ، كقوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا ﴾ (النور : ٤، ٥) وقوله ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ﴾ (المائدة: ٣٣، ٣٤) .

الثانى : الصفة : كقوله تعالى : ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ (النساء : ٢٣) فقوله (اللاتى دخلتم بهن) صفة لنسائكم ، والمعنى أن الربيبة من المرأة المدخول بها محرمة على الرجل حلال له إذا لم يدخل بها .

الثالث : الشرط : كقوله ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة : ١٨٠) فقوله (إن ترك خيرًا) أى مالا ، شرط فى الوصية ، وقوله ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ (النور : ٣٣) أى قدرة على الأداء ، أو أمانة وكسبًا .

الرابع : الغاية : كقوله ﴿وَلا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ (البقرة : ١٩٦) وقوله ﴿وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ (البقرة : ٢٢٢) .

الخامس : بدل البعض من الكل : كقوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ (آل عمران : ٩٧) فقوله (من استطاع) بدل من الناس ، فيكون وجوب الحج خاصًا بالمستطيع .

والمخصص المنفصل : ما كان فى موضع آخر من آية أو حديث أو إجماع أو قياس . فما خص بالقرآن كقوله تعالى ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ﴾ (البقرة : ٢٢٨) فهو عام فى كل مطلقة حاملا كانت أو غير حامل ، مدخولا بها أوغير مدخول بها ، خص بقوله ﴿وَأُوْلاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ (الطلاق:٤) وبقوله ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ﴾ (الأحزاب : ٤٩)

وما خص بالحديث كقوله تعالى ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ (البقرة : ٢٧٥) خص من البيوع الفاسدة التى ذكرت فى الحديث ، كما فى البخارى عن ابن عمر رضى الله عنه قال « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عسب الفحل » وفى الصحيحين عن ابن عمر : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن بيع حبل الحبلة » وكان بيعًا تبتاعه الجاهلية ، كان الرجل يبتاع الجزور إلى أن تنتج الناقة ثم تنتج التى فى بطنها » - واللفظ للبخارى ، إلى غير ذلك من الأحاديث .

ورخص من الربا العرايا الثابتة بالسنة فإنها مباحة ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رخص فى بيع العرايا بخرصها فيما دون خمسة أوسق أو فى خمسة أوسق » (١) .

---

(١) متفق عليه ، والعرية النخلة يعيرها صاحبها رجلا محتاجا فيجعل له ثمرها عامها وفى الحديث أنه رخص فى العرايا بعد نهيه عن المزابنة لأنه ربما تأذى بدخوله عليه فيحتاج إلى أن يشتريها منه بثمن فرخص له فى ذلك .

وما خص بالإجماع آية المواريث ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ ﴾ (النساء: ١١) خص منها بالإجماع الرقيق لأن الرق مانع من الإرث .

وما خص بالقياس آية الزنا ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ (النور : ٢) خص منها العبد بالقياس على الأمة التى نص على تخصيصها عموم الآية فى قوله تعالى ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ (النساء: ٢٥) .

تخصيص السنة بالقرآن

وقد يخصص القرآن السنة ، ويمثلون لذلك بما روى عن أبى واقد الليثى رضى الله عنه قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم: « ما قطع من البهيمة وهى حية فهو ميت[١] » فهذا الحديث خص بقوله تعالى ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ (النحل : ٨٠) .

ما يشمله الخطاب

اختلف فى الخطاب الخاص بالرسول صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ (الأحزاب : ١) وقوله ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ (المائدة : ٤١) هل يشمل الأمة أم لا يشملها ؟

أ - فذهب قوم إلى أنه يشملها باعتباره قدوة لها .

ب - وذهب آخرون إلى أنه لا يشملها لأن الصيغة تدل على اختصاصه بها .

واختلفوا أيضا فى الخطاب من الله تعالى بيا أيها الناس كقوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ (النساء: ١) هل يشمل الرسول أم لا ؟

---

(١) أخرجه أبو داود ، والترمذى وحسنه .

والصحيح فى ذلك أنه يشمله لعمومه وإن كان الخطاب قد ورد على لسانه ليبلغ غيره .

وقد فصل بعضهم فقال : إن اقترن الخطاب بقل لم يشمله لأن ظاهره البلاغ كقوله ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف : ١٥٨) وإلا شمله .

وما ورد من الخطاب مضافا إلى الناس أو المؤمنين كقوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (الحجرات : ١٣) وقوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ (المائدة : ٩٠)

فالمختار فى الأول أنه يشمل الكافر والعبد والأنثى .

والمختار فى الثانى أنه يشمل الأخيرين فقط لمراعاة التكليف بالنسبة إلى الجميع ، وخروج العبد عن بعض الأحكام كوجوب الحج والجهاد إنما هو لأمر عارض كفقره واشتغاله بخدمة سيده .

ومتى اجتمع المذكر والمؤنث غلب التذكير . وأكثر خطاب الله تعالى فى القرآن بلفظ التذكير ، والنساء يدخلن فى جملته . وقد يأتى ذكرهن بلفظ مفرد تبيينًا وإيضاحًا . وهذا لا يمنع دخولهن فى اللفظ العام الصالح لهن ، كما جاء فى قوله تعالى ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ (النساء : ١٢٤) .

- ٣ -

المطلق والمقيد

بعض الأحكام التشريعية يرد تارة مطلقا فى فرد شائع لا يتقيد بصفة أو شرط ، ويرد تارة أخرى متناولا له مع أمر زائد على حقيقته الشاملة لجنسه من صفة أو شرط ، وإطلاق اللفظ مرة وتقييده أخرى من البيان العربى، وهو ما يعرف فى كتاب الله المعجز « بمطلق القرآن ومقيده » .

تعريف المطلق والمقيد

والمطلق: هو ما دل على الحقيقة بلا قيد، فهو يتناول واحدًا لا بعينه من الحقيقة، وأكثر مواضعه النكرة فى الإثبات كلفظ (رقبة) فى مثل (فتحرير رقبة) فإنه يتناول عتق إنسان مملوك - وهو شائع فى جنس العبيد مؤمنهم وكافرهم على السواء - وهو نكرة فى الإثبات ، لأن المعنى : فعليه رقبة ، وكقوله عليه الصلاة والسلام « لا نكاح إلا بولى » رواه أحمد والأربعة . وهو مطلق فى جنس الأولياء سواء كان رشيدًا أم غير رشيد .

والمقيد : هو ما دل على الحقيقة بقيد ، كالرقبة المقيدة بالإيمان فى قوله (فتحرير رقبة مؤمنة) .

أقسام المطلق والمقيد وحكم كل منهما :

وللمطلق والمقيد صور عقلية نذكر منها الأقسام الواقعية فيما يلى :

١- **أن يتحد السبب والحكم** : كالصيام فى كفارة اليمين: جاء مطلقًا فى القراءة المتواترة بالمصحف: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ (المائدة : ٨٩) ومقيدًا بالتتابع فى قراءة ابن مسعود (فصيام ثلاثة أيام متتابعات) - فمثل هذا يحمل المطلق فيه على المقيد لأن السبب الواحد لا يوجب المتنافيين - ولهذا قال قوم بالتتابع [١] ، وخالفهم من يرى أن القراءة غير المتواترة - وإن كانت مشهورة - ليست حجة ، فليس هنا مقيد حتى يحمل عليه المطلق .

٢- **أن يتحد السبب ويختلف الحكم** : كالأيدى فى الوضوء والتيمم . قيد غسل الأيدى فى الوضوء بأنه إلى المرافق ، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ

---

(١) وبه قال أبو حنيفة والثورى ، وهو أحد قولى الشافعى .

إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ (المائدة : ٦) وأطلق المسح فى التيمم قال تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ (المائدة : ٦) فقيل لا يحمل المطلق لاختلاف الحكم . ونقل الغزالى عن أكثر الشافعية حمل المطلق على المقيد هنا لاتحاد السبب وإن اختلف الحكم .

٣- **أن يختلف السبب ويتحد الحكم** : وفى هذا صورتان :

أ -**الأولى** : أن يكون التقييد واحدًا . كعتق الرقبة فى الكفارة ، ورد اشتراط الإيمان فى الرقبة بتقييدها بالرقبة المؤمنة فى كفارة القتل الخطأ ، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ (النساء: ٩٢) وأطلقت فى كفارة الظهار ، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ﴾ (المجادلة: ٣) وفى كفارة اليمين، قال تعالى: ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ (المائدة : ٨٩) فقال جماعة منهم المالكية وكثير من الشافعية يحمل المطلق على المقيد ، فلا تجزئ الرقبة الكافرة فى كفارة الظهار واليمين ، وقال آخرون - وهو مذهب الأحناف - لا يحمل المطلق على المقيد ، فيجوز إعتاق الكافرة فى كفارة الظهار واليمين .

ب -**الثانية** : أن يكون التقييد مختلفًا ، كالكفارة بالصوم، قيد الصوم بالتتابع فى كفارة القتل ، قال تعالى: ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ (النساء : ٩٢) وفى كفارة الظهار، قال تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ (المجادلة : ٣) وجاء تقييده بالتفريق فى صوم المتمتع بالحج. قال تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ (البقرة : ١٩٦) ثم جاء الصوم

مطلقًا دون تقييد بالتتابع أو التفريق فى كفارة اليمين قال تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ﴾ (المائدة : ٨٩) وفى قضاء رمضان قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ (البقرة : ١٨٤) فالمطلق فى هذا لا يحمل على المقيد. لأن القيد مختلف فحمل المطلق على أحدهما ترجيح بلا مرجح .

٤ -**أن يختلف السبب ويختلف الحكم** : كاليد فى الوضوء والسرقة. قيدت فى الوضوء إلى المرافق ، وأطلقت فى السرقة. قال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ (المائدة : ٣٨) فلا يحمل المطلق على المقيد للاختلاف سببًا وحكمًا، وليس فى هذا شىء من التعارض .

- ٤ -

المنطوق والمفهوم

دلالة الألفاظ على المعانى قد يكون مأخذها من منطوق الكلام الملفوظ به نصا أو احتمالا بتقدير أو غير تقدير ، وقد يكون مأخذها من مفهوم الكلام سواء وافق حكمها حكم المنطوق أو خالفه - وهذا هو ما يسمى : بالمنطوق والمفهوم .

تعريف المنطوق وأقسامه

المنطوق : هو ما دل عليه اللفظ فى محل النطق - أى أن دلالته تكون من مادة الحروف التى ينطق بها .

ومنه : النص ، والظاهر ، والمؤول :

فالنص : هو ما يفيد بنفسه معنى صريحًا لا يحتمل غيره . كقوله تعالى﴿فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ (البقرة : ١٩٦) فإن

وصف عشرة بكاملة قطع احتمال العشرة لما دونها مجازًا. وهذا هو الغرض من النص – وقد نقل عن قوم أنهم قالوا بندرة النص جدا فى الكتاب والسنة، وبالغ إمام الحرمين فى الرد عليهم فقال : « إن الغرض من النص الاستقلال بإفادة المعنى على القطع مع انحسام جهات التأويل والاحتمال ، وهذا وإن عز حصوله بوضع الصيغ ردا إلى اللغة ، فما أكثره مع القرائن الحالية والمقالية » .

والظاهر : هو ما يسبق إلى الفهم منه عند الإطلاق معنى مع احتمال غيره احتمالا مرجوحًا، فهو يشترك مع النص فى أن دلالته فى محل النطق ، ويختلف عنه فى أن النص يفيد معنى لا يحتمل غيره ، والظاهر يفيد معنى عند الإطلاق مع احتمال غيره احتمالا مرجوحا كقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ﴾ (البقرة : ١٧٣) فإن الباغى يطلق على الجاهل . ويطلق على الظالم ، ولكن إطلاقه على الظالم أظهر وأغلب فهو إطلاق راجح ، والأول مرجوح ، وكقوله: ﴿وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ (البقرة : ٢٢٢) فانقطاع الحيض يقال فيه طهر ، والوضوء والغسل يقال فيهما طهر ، ودلالة الطهر على الثانى أظهر ، فهى دلالة راجحة ، والأولى مرجوحة .

والمؤول : هو ماحمل لفظه على المعنى المرجوح لدليل يمنع من إرادة المعنى الراجح ، فهو يخالف الظاهر فى أن الظاهر يحمل على المعنى الراجح حيث لا دليل يصرفه إلى المعنى المرجوح ، أما المؤول فإنه يحمل على المعنى المرجوح لوجود الدليل الصارف عن إرادة المعنى الراجح . وإن كان كل منهما يدل عليه اللفظ فى محل النطق ، كقوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ (الإسراء : ٢٤) فإنه محمول على الخضوع والتواضع وحسن معاملة الوالدين؛ لاستحالة أن يكون للإنسان أجنحة .

دلالة الاقتضاء ودلالة الإشارة

قد تتوقف صحة دلالة اللفظ على إضمار ، وتسمى بدلالة الاقتضاء ، وقد لا تتوقف على إضمار ويدل اللفظ على ما يقصد به قصدًا أوليا ، وتسمى دلالة الإشارة :

فالأول : كقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ (البقرة : ١٨٤) . أى فأفطر فعدة . لأن قضاء الصوم على المسافر إنما يجب إذا أفطر فى سفره، أما إذا صام فى سفره فلا موجب للقضاء خلافًا للظاهرية ، وكقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ (النساء : ٢٣) فإنه يتضمن إضمار الوطء ويقتضيه ، أى وطء أمهاتكم ، لأن التحريم لا يضاف إلى الأعيان ، فوجب لذلك إضمار فعل يتعلق به التحريم وهو الوطء، وهذا النوع يقرب من حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، وهو من باب إيجاز القصر فى البلاغة – وسمى اقتضاء الكلام شيئًا زائدًا على اللفظ .

والثانى : وهو دلالة الإشارة – كقوله تعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ (البقرة : ١٨٧) فإنه يدل على صحة صوم من أصبح جنبًا – لأنه يبيح الوطء إلى طلوع الفجر بحيث لا يتسع الوقت للغسل ، وهذا يستلزم الإصباح على جنابة ، وإباحة سبب الشىء نفسه ، فإباحة الجماع إلى آخر جزء من الليل لا يتسع معه الغسل قبل الفجر إباحة للإصباح على جنابة .

وهاتان الدلالتان – الاقتضاء والإشارة – أخذتا من المنطوق أيضًا ، فهما من أقسام المنطوق ، فالمنطوق على هذا يشمل ١– النص ، ٢– الظاهر ٣– المؤول ٤– الاقتضاء ٥– الإشارة .

تعريف المفهوم وأقسامه

المفهوم : - هو ما دل عليه اللفظ لا فى محل النطق - وهو قسمان:

١- مفهوم موافقة. ٢- مفهوم مخالفة .

١- فمفهوم الموافقة : هو ما يوافق حكمه المنطوق - وهو نوعان :

أ - النوع الأول : فحوى الخطاب : وهو ما كان المفهوم فيه أولى بالحكم من المنطوق ، كفهم تحريم الشتم والضرب من قوله تعالى ﴿فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ﴾ (الإسراء: ٢٣) لأن منطوق الآية تحريم التأفيف ، فيكون تحريم الشتم والضرب أولى لأنهما أشد .

ب - النوع الثانى : لحن الخطاب : وهو ما يثبت الحكم فيه للمفهوم كثبوته للمنطوق على السواء - كدلالة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ (النساء:١٠) على تحريم إحراق أموال اليتامى أو إضاعتها بأى نوع من أنواع التلف لأن هذا مساو للأكل فى الإتلاف .

وتسمية هذين بمفهوم الموافقة لأن المسكوت عنه يوافق المنطوق فى الحكم وإن زاد عليه فى النوع الأول ، وساواه فى الثانى .

٢- مفهوم المخالفة : هو ما يخالف حكمه المنطوق - وهو أنواع : -

أ - مفهوم صفة : والمراد بها الصفة المعنوية ، كالمشتق : فى قوله تعالى:﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ (الحجرات : ٦) فمفهوم التعبير بفاسق أن غير الفاسق لا يجب التثبت فى خبره ، ومعنى هذا أنه يجب قبول خبر الواحد العدل .
وكالحال : - فى قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ (المائدة : ٩٥) فهو يدل على انتفاء الحكم فى المخطئ، لأن تخصيص العمد بوجوب الجزاء به يدل على نفى وجوب الجزاء فى

قتل الصيد خطأ. وكالعدد : - فى قوله: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ (البقرة : ١٩٧) مفهومه أن الإحرام بالحج فى غير أشهره لا يصح ، وقوله: ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ (النور : ٤) مفهومه ألا يجلد أقل أو أكثر .

ب : **مفهوم شرط** : - كقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ (الطلاق : ٦) فمعناه أن غير الحوامل لا يجب الإنفاق عليهن .

جـ : **مفهوم غاية** : - كقوله تعالى ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ (البقرة : ٢٣٠) فمفهوم هذا أنها تحل للأول إذا نكحت غيره بشروط النكاح .

د: **مفهوم حصر** : - كقوله تعالى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة : ٥) مفهومه أن غيره سبحانه لا يعبد ولا يستعان به ، ولذلك كانت دالة على إفراده تعالى بالعبادة والاستعانة .

الاختلاف فى الاحتجاج به

اختلف فى الاحتجاج بهذه المفاهيم ، والأصح فى ذلك أنها حجة بشروط. منها :

أ- ألا يكون المذكور خرج مخرج الغالب - فلا مفهوم للحجور فى قوله تعالى: ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم﴾ (النساء : ٢٣) ، لأن الغالب كون الربائب فى حجور الأزواج .

ب - ومنها ألا يكون المذكور لبيان الواقع - فلا مفهوم لقوله: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ (المؤمنون: ١١٧) لأن الواقع أن أى إله لا برهان عليه ، وقوله (لا برهان له به) صفة لازمة جيء بها للتوكيد والتهكم بمدعى إله مع الله لا أن يكون فى الآلهة ما يجوز أن يقوم عليه برهان - ومثله قوله: ﴿ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ

عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ (النور : ٣٣) فلا مفهوم له يدل على إباحة إكراه السيد لأمته على البغاء إن لم ترد التحصن ، وإنما قال (إن أردن تحصنًا) لأن الإكراه لا يتأتى إلا مع إرادة التحصن . وعن جابر بن عبد الله قال : « كان عبد الله بن أبى يقول لجارية له : اذهبى فابغينا شيئا ، وكانت كارهة ، فأنزل الله: ﴿ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (النور :٣٣) وعن جابر أيضًا : « أن جارية لعبد الله بن أبى ، يقال لها مسيكة ، وأخرى يقال لها أميمة . فكان يريدهما على الزنى . فشكتا ذلك إلى النبى صلى الله عليه وسلم . فأنزل الله (ولا تكرهوا فتياتكم) الآية [١] .

- ٥ -

جدل القرآن

الحقائق الظاهرة الجلية يلمسها الإنسان وتنطق بها شواهد الكون ولا يحتاج إلى برهان على ثبوتها ، أو دليل على صحتها . ولكن المكابرة كثيرا ما تحمل أصحابها على إثارة الشكوك وتمويه الحقائق بشبه تلبسها لباس الحق ، وتزينها فى مرآة العقل ، فهى فى حاجة إلى مقارعتها بالحجة ، واستدراجها إلى ما يلزمها بالاعتراف آمنت أو كفرت . والقرآن الكريم – وهو دعوة الله إلى الإنسانية كافة – وقف أمام نزعات مختلفة حاولت بالباطل إنكار حقائقه ومجادلة أصوله . فألجم خصومتهم بالحس والعيان ، وعارضهم فى أسلوب مقنع، واستدلال ملزم ، وجدل محكم .

---

(١) أخرجه مسلم وغيره .

تعريف الجدل

الجدل والجدال : - المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة لإلزام الخصم ، أصله من جدلت الحبل : أى أحكمت فتله ، فكأن المتجادلين يفتل كل واحد الآخر عن رأيه .

وقد ذكره الله فى القرآن على أنه من طبيعة الإنسان فى قوله: ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ (الكهف : ٥٤) أى خصومة ومنازعة .

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجادل المشركين بالطريقة الحسنة التى تلين عريكتهم فى قوله: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل : ١٢٥) .

وأباح مناظرة أهل الكتاب بتلك الطريقة فى قوله: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (العنكبوت: ٤٦) .

ومثل هذا من قبيل المناظرة التى تهدف إلى إظهار الحق ، وإقامة البرهان على صحته ، وهى الطريقة التى يشتمل عليها جدل القرآن فى هداية الكافرين وإلزام المعاندين . بخلاف مجادلة أهل الأهواء فإنها منازعة باطلة ، قال تعالى: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ﴾ (الكهف : ٥٦) .

طريقة القرآن فى المناظرة

والقرآن الكريم تناول كثيرا من الأدلة والبراهين التى حاج بها خصومه فى صورة واضحة جلية يفهمها العامة والخاصة ، وأبطل كل شبهة فاسدة ونقضها بالمعارضة والمنع فى أسلوب واضح النتائج ، سليم التركيب ، لا يحتاج إلى عمل عقل أو كثير بحث .

ولم يسلك القرآن فى الجدل طريقة المتكلمين الاصطلاحية فى المقدمات والنتائج التى يعتمدون عليها ، من الاستدلال بالكلى على الجزئى فى قياس الشمول، أو الاستدلال بأحد الجزأين على الآخر فى قياس التمثيل ، أو الاستدلال بالجزئى على الكلى فى قياس الاستقراء .

(أ) لأن القرآن جاء بلسان العرب ، وخاطبهم بما يعرفون .

(ب) ولأن الاعتماد فى الاستدلال على ما فطرت عليه النفس من الإيمان بما تشاهد وتحس دون عمل فكرى عميق أقوى أثرًا وأبلغ حجة [١] .

(جـ) ولأن ترك الجلى من الكلام والالتجاء إلى الدقيق الخفى نوع من الغموض والإلغاز لا يفهمه إلا الخاصة ، وهو على طريقة المناطقة ليس سليما من كل وجه ، فأدلة التوحيد والمعاد المذكورة فى القرآن من نوع الدلالة المعينة المستلزمة لمدلولها بنفسها من غير احتياج إلى اندراجها تحت قضية كلية : قال شيخ الإسلام ابن تيمية فى كتابه (الرد على المنطقيين) : « وما يذكره النظار من الأدلة القياسية التى يسمونها براهين على إثبات الصانع سبحانه وتعالى لا يدل شىء منها على عينه ، وإنما يدل على أمر مطلق كلى لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه ، فإنا إذا قلنا: هذا محدث ، وكل محدث فلابد له من محدث . أو ممكن ، والممكن لابد له من واجب ، إنما يدل هذا على محدث مطلق ، أو واجب مطلق ... لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه » ... وقال : « فبرهانهم لا يدل على شىء معين بخصوصه لا واجب الوجود ولا غيره ، وإنما يدل على أمر كلى ، والكلى لابد يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه ، وواجب الوجود يمنع العلم به من وقوع الشركة فيه ، ومن لم يتصور ما يمنع الشركة فيه لم يكن قد عرف الله » .... وقال: « وهذا بخلاف ما يذكر الله من الآيات فى كتابه ، كقوله : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ

---

(١) مناع القطان : مباحث فى علوم القرآن .

الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة : ١٦٤) وقوله: (إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ، لقوم يتفكرون) وغير ذلك ، فإنه يدل على المعين كالشمس التى هى آية النهار ... وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ (الإسراء : ١٢) فالآيات تدل على نفس الخالق سبحانه لا على قدر مشترك بينه وبين غيره ، فإن كل ما سواه مفتقر إليه نفسه ، فيلزم من وجوده وجود عين الخالق نفسه .

فأدلة الله على توحيده وما أخبر به من المعاد ، وما نصبه من البراهين لصدق رسله لا تفتقر إلى قياس شمولى أو تمثيلى ، بل هى مستلزمة لمدلولها ، عينا ، والعلم بها مستلزم بالمدلول ، وانتقال الذهن منها إلى المدلول بين واضح كانتقال الذهن من رؤية شعاع الشمس إلى العلم بطلوعها ، وهذا النوع من الاستدلال بدهى يستوى فى إدراكه كل العقول .

أنواع من مناظرات القرآن وأدلته

(أ) ما يذكره تعالى من الآيات الكونية المقرونة بالنظر والتدبر للاستدلال على أصول العقائد كتوحيده سبحانه فى ألوهيته ، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر - وهذا النوع كثير فى القرآن .

فمنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة : ٢١ ، ٢٢) وقوله: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ

بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة : ١٦٣ - ١٦٤) .

(ب) ما يرد به على الخصوم ويلزم أهل العناد ، ولهذا صور مختلفة :

١- منها تقرير المخاطب بطريق الاستفهام عن الأمور التى يسلم بها الخصم وتسلم بها العقول حتى يعترف بما ينكره ، كالاستدلال بالخلق على وجود الخالق فى مثل قوله تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ * أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ * أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ * أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ * أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ * أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الطور : ٣٥ ، ٤٣) .

٢- الاستدلال بالمبدأ على المعاد . كقوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (ق : ١٥) وقوله: ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ (القيامة : ٣٦ - ٤٠) وقوله: ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ (الطارق : ٥ - ٨) - ومثله الاستدلال بحياة الأرض بعد موتها بالإثبات على الحياة بعد الموت للحساب كقوله :﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ (فصلت: ٣٩)

٣- إبطال دعوى الخصم بإثبات نقيضها - كقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (الأنعام : ٩١) ردا على اليهود فيما حكاه الله عنهم بقوله ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ (الأنعام :٩١) .

٤- السبر والتقسيم - بحصر الأوصاف ، وإبطال أن يكون واحد منها علة للحكم ، كقوله تعالى ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ - إلى قوله - إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنعام : ١٤٢ - ١٤٤) .

٥- إفحام الخصم وإلزامه ببيان أن مدعاه يلزمه القول بما لا يعترف به أحد- كقوله تعالى ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ * بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الأنعام : ١٠٠ ، ١٠١) فنفى التولد عنه لامتناع التولد من شئ واحد ، وأن التولد إنما يكون من اثنين ، وهو سبحانه لا صاحبة له ، وأيضًا فإنه خلق كل شئ ، وخلقه لكل شئ يناقض أن يتولد عنه شئ ، وهو بكل شئ عليم، وعلمه بكل شئ يستلزم أن يكون فاعلا بإرادته ، فإن الشعور فارق بين الفاعل بالإرادة والفاعل بالطبع ، فيمتنع مع كونه عالما أن يكون كالأمور الطبيعية التى يتولد عنها الأشياء بلا شعور - كالحار والبارد ، فلا يجوز إضافة الولد إليه [١] .

وهناك أنواع أخرى من الجدل كثيرة ، كمناظرة الأنبياء مع أممهم ، أو فريق المؤمنين مع المنافقين .

---

(١) هذه الفقرة (*) من كتاب الرد على المنطقيين لشيخ الإسلام ابن تيمية ، وهى رائعة فى الاستدلال .

انظر إلى جدال إبراهيم مع قومه حين كسر الأصنام وناقشهم فى عبادتها وانتصر عليهم فى الجدال فألقوه فى النار فجعلها الله بردا وسلاما عليه. وقصته مع النمروذ فى الآية ٢٥٨ من سورة البقرة حيث يقول سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ .

والقرآن يلمس شغاف القلوب ، ويحركها للإيمان بالله ، ويسوق الأدلة التاريخية والعقلية والعاطفية والنفسية على صحة الإيمان بالله ، ويسلك كل سبيل لإقناع العقل وهداية القلب [١] ، وفى سورة إبراهيم نجد نقاشا بين الرسل وبين الكافرين ، وفى سورة البقرة نجد أدلة ملموسة على لسان العزير حين أماته الله مائة عام ثم بعثه ليكون دليلا على قدرته سبحانه على البعث والإحياء .

إن القرآن سلك كل طريق لإقناع الإنسان .

فمن ذلك عرضه لمشاهد الكون وآثار الحياة وحركة الليل والنهار والشمس والقمر. ومن ذلك عرضه قصص المرسلين وجدالهم مع قومهم كما نشاهده فى قصة نوح مع قومه [٢]. وقصة إبراهيم مع أبيه ، وقصة موسى مع فرعون حيث

---

(١) انظر الآيات ٧٤ - ٨٧ من سورة الأنعام .

والآيات ٨٣ - ١١٣ من سورة الصافات وفيها يقول سبحانه: ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ * فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ * قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ * قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ * فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ﴾ .

(٢) قال تعالى فى سورة نوح :

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا * مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ =

يقول سبحانه : ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ * قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ * قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ * كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ (طه: ٤٩ -٥٤) .

★ ★ ★

= اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا * وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ سورة نوح ١٠ – ٢٠ .



الفصل الثانى عشر

النسخ فى القرآن الكريم

(أ) تعريف النسخ

(ب) من رسالة الدكتوراه :

النسخ عند مقاتل بن سليمان

الآيات المنسوخة عند مقاتل بن سليمان

(جـ) ما لابد منه فى النسخ

ما لا يقبل النسخ

(د) النسخ بين منكريه ومثبتيه

(هـ) الخضرى والنسخ

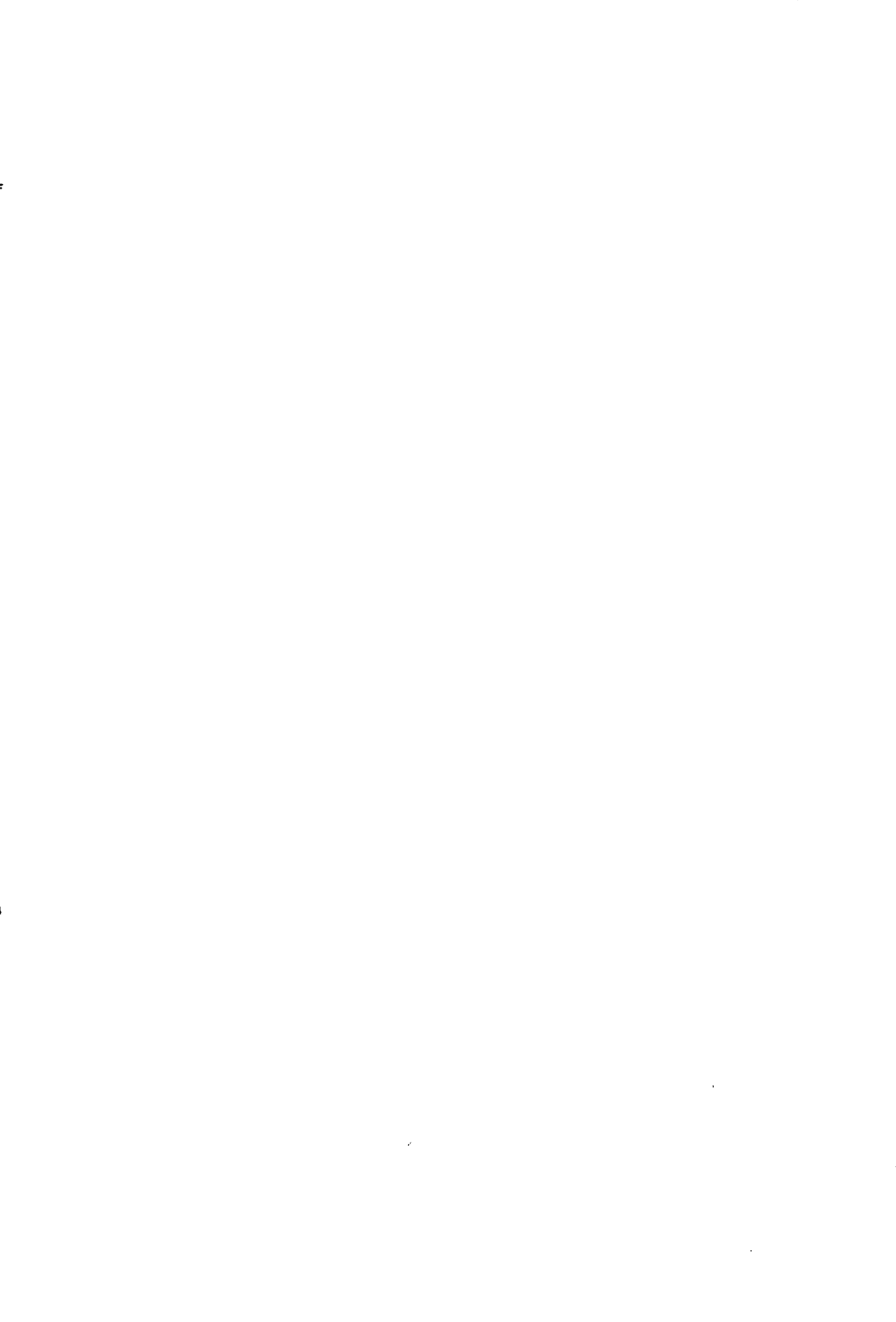
١- ترتيب السور

٢- من كتاب تاريخ القرآن للزنجانى

٣- حفظ الله للقرآن .

الترتيب التاريخى لابن عباس

٤- علماؤنا وترتيب القرآن .



أ - النسخ

النسخ لغة: الإزالة، يقال: نسخت الشمس الظل أى أزالته ونسخت الريح أثر المشى أى أزالته ونسخ المشيب الشباب إذا أزاله. والإزالة هى الإعدام؛ ولهذا يقال زال عنه المرض والألم و زالت النعمة عن فلان، ويراد بذلك الانعدام فى هذه الأشياء كلها .

وقيل: النسخ لغة النقل والتحويل .

قال السجستانى من أهل اللغة: والنسخ أن يحول ما فى الخلية من عسل ونحل إلى الأخرى، ومن ذلك تناسخ المواريث أى انتقالها من قوم إلى قوم .

وقيل النسخ مشترك بين هذين المعنيين

وقيل: هو حقيقة فى الإزالة مجاز فى النقل .

أما النسخ اصطلاحا فهو خطاب الشارع الرافع لحكم ثابت بخطاب شرعى سابق فالخطاب الرافع لابد أن يكون متراخيًا عن الخطاب الأول .

إثبات النسخ :

لم يخالف فى إثبات النسخ من أرباب الشرائع سوى اليهود كما لم يخالف فى إثباته أحد من المسلمين سوى أبى مسلم الأصفهانى فقد منع وقوعه فى القرآن وجوزه عقلا .

وقد احتج أبو مسلم على عدم وقوع النسخ فى القرآن بقوله تعالى ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (١) فلو نسخ بعض القرآن لتطرق إليه البطلان وهذا محال لإخبار الله تعالى أنه لا يأتيه الباطل .

---

(١) سورة فصلت آية ٤٢ .

ويحتج على أبى مسلم فيما زعم بما يأتى :

(أ) قال تعالى ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١)

(ب) قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾ (٢) فإن هذه الآية من حيث الحكم وهو تقديم الصدقة حين مناجاة الرسول قد نسخ بقوله تعالى (فإذ لم تفعلوا وتاب عليكم) .

(جـ) إن الصحابة والسلف أجمعوا على أن شريعة محمد ناسخة لجميع الشرائع السابقة وأجمعوا كذلك على نسخ التوجه إلى بيت المقدس باستقبال الكعبة وعلى نسخ الوصية للوالدين والأقربين بآية المواريث ونسخ صوم عاشوراء بصوم رمضان .

وكما احتج على أبى مسلم فيما زعم احتج على اليهود بما ورد فى التوراة من أن الله تعالى أمر آدم أن يزوج بناته من بنيه وقد حرم ذلك فى شريعة من بعده وما ورد فيها من أن الله أمر إبراهيم بذبح ابنه ثم قال له: لا تذبح .

وعلى ضوء هذه الحجج الدامغة التى تثبت النسخ وتقره لا يسعنا إلا أن نقول بوقوعه وعدم اعتبار آراء المنكرين له لقيام الحجج والبراهين عليهم .

حكمة النسخ :

شرع الله النسخ مراعاة لمصالح الناس التى تعتبر المقصود الأول فى تشريع الأحكام ،فقد يشرع الله الحكم مراعيا فى ذلك مصلحة الناس ثم لا تلبث أن تزول تلك المصلحة فيكون المناسب والحالة هذه نسخ هذا الحكم لزوال المصلحة التى شرع من أجلها، فقد روى أن وفودا من المسلمين قدمت إلى المدينة فى أيام عيد

---

(١) سورة البقرة آية ١٠٦ .

(٢) سورة المجادلة آية ١٢ .

الأضحى . فقصد الرسول صلى الله عليه وسلم التوسعة عليهم والمبالغة فى إكرامهم فنهى المسلمين عن ادخار لحوم الأضاحى ، فلما رجعت هذه الوفود إلى بلادهم أباح الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلمين الادخار بعد أن كان ممنوعا لزوال المصلحة التى كان المنع لأجلها . قال صلى الله عليه وسلم « كنت نهيتكم عن ادخار لحوم الأضاحى من أجل الدافة التى دفت فكلوا وادخروا » .

ومن ذلك ما روى أن الصلاة شرعت أولا ركعتين فى الغداة وركعتين فى العشى رحمة بالناس لأنهم كانوا حديثى عهد بالإسلام فلما تمكن الإسلام من نفوسهم وتربع على عرش قلوبهم وتذوقوا حلاوته اقتضت المصلحة نسخ ذلك بفرض خمس صلوات فى أوقات مخصوصة بركعات محددة .

★ ★ ★

ب - من رسالة الدكتوراه

كانت رسالتى للدكتوراه بعنوان :

(مقاتل بن سليمان ومنهجه فى تفسير القرآن الكريم مع تحقيق تفسيره الكبير) وكان مقاتل بن سليمان من المفسرين المتقدمين الذين أكثروا من دعاوى النسخ فى القرآن الكريم ، ولذلك بحثت فى فصل من فصول الرسالة موضوع : (النسخ عند مقاتل بن سليمان البلخى المتوفى سنة ١٥٠ هـ) وأرجو أن أقدم لك جانبا من هذا الموضوع فى الفقرة التالية :

١ - النسخ عند مقاتل بن سليمان البلخى المتوفى سنة ١٥٠ هـ

تمهيـــــد :

كان الصحابة والتابعون وتابعوهم يستعملون النسخ بإزاء المعنى اللغوى الذى هو إزالة شئ بشئ - لا بإزاء مصطلح الأصوليين [١] .

« فيطلقون النسخ على تقييد المطلق وعلى تخصيص العام وعلى بيان المبهم والمجمل ، كما يطلقونه على رفع الحكم الشرعى بدليل شرعى متأخر عنه » [٢] .

فلما جاء الإمام الشافعى (١٥٠ - ٢٠٤ هـ) حرر معنى النسخ وميزه عن تقييد المطلق وتخصيص العام واعتبرهما من أنواع البيان [٣] .

ومضى الأصوليون والمؤلفون فى الناسخ والمنسوخ على نهج الشافعى ، فعنى معظمهم ببيان الفروق بين النسخ وكل من التخصيص والتقييد والتفسير والتفصيل .

هذا أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى (٢٢٤ - ٣١٠ هـ) يشير فى تفسيره [٤] (إلى أنه لا ناسخ من آى القرآن وأخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ما نفى حكما ثابتا ألزم العباد فرضه ، غير محتمل بظاهره وباطنه غير ذلك . فأما إذا احتمل غير ذلك - من أن يكون بمعنى الاستثناء أو الخصوص والعموم ، أو المجمل والمفسر - فمن الناسخ والمنسوخ بمعزل .. ولا منسوخ إلا الحكم الذى قد كان ثبت حكمه وفرضه) .

---

(١) النسخ فى القرآن : د. مصطفى زيد ١- ١١٠ فقرة ١٦٢ .

(٢) المرجع السابق وقد نقله عن الموافقات للشاطبى ٣ - ٧٥ .

(٣) د. مصطفى ١ - ٧٤ نقلا عن كتاب الشافعى لمحمد أبو زهرة : ١٤٩ .

(٤) ٢ - ٤٣٥ بتحقيق محمود محمد شاكر . وقد نقله د. مصطفى زيد فى كتابه النسخ فى القرآن ١ - ٧٩ بعد أن صوب النص .

٢- الآيات المنسوخة عند مقاتل بن سليمان

عدد الآيات المنسوخة عند مقاتل ٤٤ آية ، منها ست عشرة آية منسوخة بآية السيف - أو ما فى حكمها - وثمان وعشرون آية منسوخة بآيات أخرى . وعند تفسير هذه الآيات يتضح أن تعريف النسخ لا ينطبق إلا على ثلاث آيات منها ، أما الباقى فليس فيه إلا تخصيص العام [1] ، أو تفسير المبهم ، وما إليهما، ومنه آيات هى فى حقيقتها أخبار ، والأخبار لا تقبل النسخ ، ومنه آيات لا تعارض بينها وبين ناسخها .

٢- وإذا أمعنا النظر فى الآيات التى ادعى مقاتل أنها منسوخة وجدنا كثيرا منها لا ينطبق عليه تعريف النسخ عند الأصوليين ، وعذر مقاتل واضح فى ذلك ، فقد جاء فى عصر مبكر كان النسخ يطلق فيه على التخصيص والتقييد وبيان المبهم وتفصيل المجمل .

---

(١) التخصيص هو قصر العام على بعض أفراده (أو آحاده أو مسمياته) والتخصيص يكون بمخصصات لفظية هى بدل البعض ، والاستثناء ، والصفة ، والشرط ، والغاية . كما يكون بالعقل والحس الواقعى والعادة والعرف .

(النسخ فى القرآن الكريم ١ - ١١٣ فقرة ١٦٨ ، ١٦٩ ، وأصول التشريع الإسلامى : على حسب الله ١٨٨ - ١٩٥) .

والفرق بين التخصيص والنسخ :

١- أن النسخ إزالة الحكم المنسوخ ، أما التخصيص فهو قصر الحكم على بعض أفراده كقصر إيجاب الحج على المستطيع .

٢- أن النسخ لا يكون إلا بدليل متراخ عن المنسوخ أما التخصيص فيكون بالسابق واللاحق والمقارن .

٣- أن النسخ لا يقع فى الأخبار ، بخلاف التخصيص فإنه يكون فى الأخبار وفى غيرها . (النسخ فى القرآن ١ - ١٢٥) ، وقد ساق عشرة فروق بين النسخ والتخصيص . وانظر (مناهل العرفان : ٢ - ٨٢) .

(فقد كان الصحابة والتابعون يرون أن النسخ هو مطلق التغيير الذى يطرأ على بعض الأحكام فيرفعها ليحل غيرها محلها أو يخصص ما فيها من عموم أو يقيد ما بها من إطلاق) .

٣- ويكفى أن نعرف أن ست عشرة آية منسوخة عنده بآية السيف وليس فى هذه الآيات نسخ ، بل هى مما أمر به لسبب ثم زال سببه .

فالله أمر المسلمين بالصبر وعدم القتال ، فى أيام ضعفهم وقلة عددهم ، لعلة الضعف والقلة ، ثم أمرهم بالجهاد فى أيام قوتهم وكثرتهم ، لعلة القوة والكثرة .

وأنت خبير بأن الحكم يدور مع علته وجودا وعدما ، وأن انتفاء الحكم لانتفاء علته لا يعد نسخا ، بدليل أن وجود الصبر والتحمل عند الضعف والقلة لا يزال قائما إلى اليوم ، وأن وجود الجهاد والدفاع عند القوة والكثرة لا يزال قائما كذلك إلى اليوم .

وما أحكم الزركشى فى تعليقه على هذا الموضوع بقوله : (وبهذا التحقيق تبين ضعف ما لهج به كثير من المفسرين فى الآيات الآمرة بالتخفيف أنها منسوخة بآية السيف ، وليست كذلك بل هى من المنسأ ، بمعنى أن كل أمر ورد يجب امتثاله فى وقت ما ، لعلة توجب ذلك الحكم ، ثم ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر ، وليس بنسخ إنما النسخ الإزالة حتى لا يجوز امتثاله أبدًا) .

٤- وقد جاء فى كتاب (النسخ فى القرآن) [١] أن آية السيف تأمر بقتل المشركين حيث وجدوا ، ويأسر من لم يقتل منهم، وبحصارهم وتضييق الخناق عليهم. ولكن من هم هؤلاء المشركون ؟ .

---

(١) النسخ فى القرآن الكريم : ١ - ٧٣ .

يقول الدكتور مصطفى زيد :

(إن الآية السابقة واللاحقة تحدد أنهم فريق خاص من المشركين . كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فنقضوه ، وظاهروا عليه أعداءه . وقد برئ الله ورسوله منهم ، وآذنهم بالحرب إن لم يتوبوا عن كفرهم، ويؤمنوا بالله ربا واحدا ، وبمحمد نبيا ورسولا .

وهؤلاء المشركون أعداء الإسلام ونبيه ليسوا هم كل المشركين ، بدليل قوله جل ثناؤه قبل آية السيف : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [١] .

(فليس قتال المشركين غاية فى ذاته ، بل هو وسيلة لتأديب أئمة الكفر الذين طعنوا فى دين الله ، وصدوا الناس عن سبيله ، ونقضوا عهودهم مع رسول الله ، وظاهروا عليه أعداءه ، ونكثوا أيمانهم ، وهموا بإخراج الرسول ، وبدأوا المؤمنين بالقتال فى بدر [٢]) .

فقتالهم مقصود به كسر شوكتهم ، وإزالة جبروتهم وطغيانهم من طريق الدعوة الإسلامية ، حتى تستطيع أن تصل إلى آذان العرب جميعا .

(وإنما شرع القتال فى الإسلام لتأمين الدعاة إليه ، ولضمان الحرية التى تكفل لهم إبلاغ دعوته، ودرء الشبه عن عقيدته ، بالمنطق السليم والحجة المقنعة . ومن أجل هذا خص أئمة الكفر بالأمر بقتالهم ، لأنهم يحولون بالقوة بين الدعاة والشعوب التى يجب أن تدعى .

فإذا ما هيئت للدعاة وسائل الدعوة فى أمن وحرية فلا حرب ولا قتال [٣]).

---

(١) سورة التوبة الآية (٤) .

(٢) النسخ فى القرآن الكريم للدكتور مصطفى زيد : ٢/ ٥٠٤ - ٥٠٦ .

(٣) النسخ فى القرآن، للدكتور مصطفى زيد : ٢/ ٥٠٧ . بتصرف .

٥ –وهكذا يتضح أن الآيات التى ادعى مقاتل أنها منسوخة بآية السيف ليست من النسخ فى شىء ، بل هى من (المنسأ) [١] الذى دار مع سببه وجودًا وعدما .

ويلحق بهذا القسم كل ما أمر به لسبب ، ثم زال حكمه لزوال علته . كالأمر بالمغفرة للذين لا يرجون لقاء الله . ثم نسخه بإيجاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر [٢]. وكالنهى عن ادخار لحوم الأضاحى من أجل الدافة [٣] ، ثم ورود [٤] الإذن فيه فلم يعد منسوخًا ، بل من باب زوال الحكم لزوال علته . حتى لو فجأ أهل ناحية جماعة مضرورون تعلق بأهلها النهى) [٥] .

٧– لقد قلنا إن عدد الآيات المنسوخة عند مقاتل (٤٤) أربع وأربعون آية .

ويمكننا أن نقسم هذه الآيات إلى ستة أقسام :

(١) القسم الأول آيات منسوخة بآية السيف [٦] وعددها ١٦ آية .

(٢) القسم الثانى آيات ليس فيها إلا تخصيص العام وعددها ٥ آيات .

---

(١) الإنساء هو التأخير والتأجيل .
قال تعالى : (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها) .
وانظر : أصول التشريع الإسلامى – على حسب الله : ٣١٦ ط ٣
ومعنى الإنساء تأخير الأمر بالقتال إلي وقت الحاجة . وانظر الزركشى فى البرهان ٢/٤٢ . والسيوطى فى الإتقان ٢/ ٢١ .

(٢) البرهان ٢/٤٢ .

(٣) وردت فى كتاب الاختيار شرح المختار باب الأضحية (من أجل الدافة) أى المجاعة . وانظر أيضا النسخ فى القرآن ١/ ١٢٩ فقرة ١٩٨، فقد وردت بلفظ الدافة.

(٤) فى البرهان ثم ورد . وهى عطف على المصدر فالأنسب الإتيان بها بصيغة المصدر .

(٥) البرهان للزركشى ٢/٤٢ ، وقد حرفت فيه كلمة الدافة إلى الرأفة مع أنها « الدافة » فى نص الحديث الصحيح .

(٦) ألحقنا بهذا القسم ما فى حكمه مما أمر به لسبب ثم زال حكمه لزوال سببه ، كالتوارث على الهجرة ثم التوارث على مطلق القرابة – كما فى الآية ٦ من سورة الأحزاب المنسوخة عند مقاتل بآخر آية فى سورة الأنفال .

(٣) القسم الثالث آيات ليس فيها إلا تفسير المبهم وعددها آيتان .

(٤) القسم الرابع آيات لا تعارض بينها وبين ناسخها وعددها ١٣ آية .

(٥) القسم الخامس آيات هى فى حقيقتها أخبار وعددها ٥ آيات .

(٦) القسم السادس آيات هى من المنسوخ حقيقة وعددها ٣ آيات .

جـ- ما لابد منه فى النسخ

لابد فى تحقيق النسخ من أمور أربعة :

١- أن يكون المنسوخ حكما شرعيا .

٢- أن يكون دليل رفع الحكم دليلا شرعيا .

٣- أن يكون هذا الدليل الرافع متراخيا عن دليل الحكم الأول غير متصل به.

٤ - أن يكون بين ذينك الدليلين تعارض حقيقى .

ما لا يقبل النسخ

العقائد والدعوة إلى الإيمان أمور أساسية فى كل دين . وكذلك الفضائل والدعوة إلى مكارم الأخلاق أصول أساسية فى حياة الناس وفى رسالات السماء فليست كل الأحكام قابلة للنسخ ، وفى كتب الأصول أن مما لا يقبل النسخ الأمور الآتية :

١- الأحكام الأصلية كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وسائر أصول العقائد والعبادات . وكذلك لا يقبل النسخ الفضائل والرذائل التى لا تختلف باختلاف الأزمان والأحوال والأشخاص ، كالعدل والأمانة وبر الوالدين ، والظلم والخيانة وعقوق الوالدين .

٢- لا يقبل النسخ الأحكام الفرعية التى نص الشارع على تأييدها كالجهاد فقد قال رسول الله (ﷺ) (الجهاد ماض إلى يوم القيامة)، ومثال ذلك ما قصه الله

فى القـرآن عن رسل الله تعـالى كإبراهيم ونوح ومـوسى وعيسى ، ومـا قـصـه عن أحداث حدثت كقصة سد مأرب وقصة أصحاب الكهف ، وقصة قارون ، فكل هذه أخبار قصها القرآن للعظة والعبرة ، وبيان عاقبة الإيمان والعمل الصالح ونهاية الكفر والبطر ، وعاقبة الترف والفساد .

قـال تعـالى ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (يوسف: ١١١)

د- النسخ بين منكريه ومثبتيه

من العلماء من أنكر النسخ وهم عدد محدود منهم أبو مسلم الأصفهانى وقد نقل كلامه فخر الدين الرازى فى تفسيره الكبير .

ومنهم الأستاذ الجليل الشيخ محمد الغزالى حيث عقد بابا حول النسخ فى كتابه (نظرات فى القرآن) رأى أنه لا نسخ وإنما هناك تدرج فى التشريع . فقد حرم الله الخمر على مراحل وحرم الله الربا على مراحل ...

ومن العلماء من أثبت النسخ بل منهم من توسع فيه حتى عد فى القرآن ٢١٢ موضعًا حدث فيها النسخ .

وعند التأمل تجد أن اسم النسخ لا ينطبق عليها .

فالقدامى كانوا يطلقون النسخ على تخصيص العام وتقييد المطلق بل جعلوا التدرج فى التشريع من النسخ .

فجميع الآيات التى تأمر بالصبر والاحتمال فى مكة منسوخة عندهم بآية السيف أو آيات الجهاد .

والإنصاف يقتضينا أن نذكر أن لا نسخ ولا تعارض فنحن مدعوون إلى الصبر والاحتمال فى كل وقت ، ونحن مدعوون إلى الجهاد فى سبيل الله فى كل مناسبة تستدعى ذلك الجهاد .

إن هناك آيات محدودة (ثلاث آيات) ينطبق عليها تعريف النسخ عند جمهور علماء المسلمين ، ومع هذا تجد من بعض العلماء من يرى أنها غير منسوخة ، وأن القرآن الكريم ليس فيه نسخ ولا تعارض ، ولست متعصبا لإثبات النسخ ، وإن كنت أرى أنه وارد وواقع فى القرآن ، وهو دليل على خصوبة الشريعة ونموها وواقعيتها .

والخلاف بين الطرفين ليس كبيرا عند التحقيق، فمن أنكر النسخ أدخله تحت مسمى آخر أو استخدم التأويل للجمع بين المتعارضين ، ومن أثبت النسخ كان واقعيا فى إطلاق الاسم على مسماه .

ومن العلماء الأجلاء الأستاذ الشيخ محمد الخضرى ، الذى ظهر مع فجر النهضة العلمية وألف كتبا فى أصول الفقه وتاريخ التشريع وتاريخ الأمم الإسلامية ومن الخير أن نتعرف على منهجه فى مناقشة ثلاث آيات ذهب الجمهور إلى أنها منسوخة .

هـ - الخضرى والنسخ

يقول الأستاذ الكبير الشيخ محمد الخضرى :

«هنا مسألة يجب التنبيه لها ، وإرخاء القلم حتى يبلغ الغاية من بيانها وهى: هل من آيات القرآن ما بطل التكليف به لحلول تكليف آخر محله ؟ أو بعبارة أخرى هل من آيات القرآن ما هو منسوخ فلا يجب العمل به ؟ إن هذه مسألة خطيرة وعلى المتكلم فيها أن يقدم الحجة القاطعة أمام ما يريد أن يقوله بعد أن ثبت أن القرآن حجة قاطعة يجب الاستمساك بنصوصه كلها والعمل بها .

قال : وإنى أزيد المسألة إيضاحًا، ولعلى أنال من الله توفيقا . ثم شرع الأستاذ بطريق الإحصاء الواقعى ، لا بطريق الجدل النظرى يثبت أن آيات القرآن جميعا محكمة . وأنه ما من آية قيل بنسخها إلا كان القول بإعمالها أبين فى العين وأرجح لدى الموازنة . والاستقراء دليل لا يتحمل لجاجة . فليجتهد من يشاء فى إثبات إمكان النسخ ، فالإمكان شىء ووقوعه فى الكتاب العزيز شىء آخر ،

شئ لم يحدث ، لأن كل آية ظن نسخها يستبين لدى التأمل أنها نافذة الحكم ... وصدق الله العظيم :

﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (١) .

* * *

قال : النسخ فى اصطلاح الفقهاء يطلق على معنيين :

الأول : إبطال الحكم المستفاد من نص سابق بنص لاحق، ومثاله ما ورد فى حديث « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها » .

فالنص الأول : يطلب الكف عن الزيارة ، والنص الثانى : يرفع ذلك النهى ويحل محله الإباحة أو الطلب .

الثانى : رفع عموم نص سابق أو تقييد مطلقه ، ومثاله قوله تعالى فى سورة البقرة :

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ (٢) .

ثم فى سورة الأحزاب :

﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ (٣) .

فإن النص الأول عام ينتظم المدخول بها وغيرها ، والنص الثانى : يعطى غير المدخول بها حكما خاصا بها . وكذلك قوله تعالى فى سورة النور :

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ (٤) .

---

(١) سورة فصلت : ٤٢ .

(٢) البقرة : ٢٢٨ .

(٣) الأحزاب : ١٤٩ .

(٤) النور : ٤ .

ثم قال عقب ذلك :

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (١)

فإن النص الأول عام ينتظم جميع القاذفين أزواجًا كانوا أم غير أزواج ، والنص الثانى جعل للأزواج حكما خاصا بهم حيث جعل أيمانهم الخمس قائمة مقام الشهداء الأربعة ، وجعل للمرأة حق الخلاص من حد الزنا بأيمانها الخمس . ومثال تقييد المطلق قوله تعالى فى سورة المائدة : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ﴾ (٢) ؛ وقال فى آية أخرى فى سورة الأنعام : ﴿قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ (٣) فالنص الأول مطلق للدم المحرم . والثانى مقيد له بالدم المسفوح .

هذا النوع الثانى موجود فى القرآن بدون نزاع ، سواء كنا نعلم من تاريخ التنزيل أن العام والمطلق سابقان فى التنزيل على الخاص والمقيد أم متأخران عنه، وسواء كان المتأخر متصلا أو متراخيا ، وسواء سرنا مع بعض الفقهاء الذين يطلقون على المتراخى من الخاص والمقيد أنه ناسخ للعام والمطلق ، أم سرنا مع من يسميه تخصيصًا وتقييدًا لأن الأسماء لا تهمنا بعد الاتفاق على وجود المسميات. ويكفى أن نقول إن العام والمطلق لم ينلهما الإبطال ، فإن العام لا يزال دليلا فيما ما دل الخاص على خروجه من دائرة الحكم السابق، ويرجع ذلك إلى الأصل الذى قررناه فى التشريع الإسلامى ، وهو التدرج فى التشريع والتنزيل ، بحيث إذا أكمل الدين يؤخذ العام وما خصصه كأنهما نص واحد عامه كالمستثنى

---

(١) النور : ٦ .

(٢) المائدة : ٣ .

(٣) الأنعام : ١٤٥ .

منه وخاصه كالمستثنى . ومن أجل ذلك لم يكن مما اهتم به القرآن الدلالة على السابق من النصين واللاحق منهما ، ولا مما اهتم الأصحاب بمعرفته ، لأن جملة الكتاب كما قدمنا شىء واحد .

أما النوع الأول ، وهو وجود نص من القرآن أبطل حكمه ، أو بتحسين فى العبارة : انتهى أمد حكمه ولم يعد بقاؤه إلا بصفة أنه ذكر يتلى فهو محل النظر .

* * *

إن إبطال نص لاحق لنص سابق موقوف على أحد أمرين :

أولهما : أن يتصل اللاحق على أنه ناسخ للسابق .

ثانيهما : أن يكون بين النصين تناقض بحيث لا يمكن الجمع بينهما . فهل فى نصوص القرآن شىء من ذلك ؟

أما الأمر الأول فليس فى القرآن شىء منه ؛ اللهم إلا فى ثلاثة مواضع يمكن أن نؤيد قبل بحثها رأى الجمهور القائلين بأن فى القرآن منسوخا . قال تعالى فى سورة الأنفال :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ (الأنفال : ٦٥)

ثم قال فى الآية التى تليها :

﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال : ٦٦) .

النص فى هاتين الآيتين خبر والغرض منه الإنشاء ، فإن الله تعالى يقول فى هذه السورة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾ (الأنفال : ٤٥) وقد أراد أن يضع حدا لهذا الأمر المطلق فإنه يوجب الثبات فى جميع الأحوال أيا كان عدد المسلمين وعدد من يقاتلهم ، فأولى الآيتين تحدد ما يجب الثبات أمامه بعشرة الأمثال ولم يأت فى ذلك بالأمر الصريح كما جاء قبله « اثبتوا» بل جاء به على صورة الخبر لأن المراد بعث الحمية فى أنفسهم ، وإلهاب الغيرة فى صدورهم .

ثم جاءت الآية الثانية معنونة بعنوان التخفيف إذ علم الله فيهم ضعفا ، والمراد بالعلم هنا الظهور يعنى أنه قد ظهر فيهم ضعف لم يكن ، لأنه لو كان سابقا لكان الله قد علمه موجودا ولم يكن محل للتشريع السابق ، فهذا الضعف الحادث هو الذى اقتضى التخفيف .

فإذا قلنا : إن نسبة الآية الثانية للأولى هى نسبة النص المخفف ، لعارض مع بقاء حكم النص الأول عند زوال العارض ، كان حكمها حكم العزيمة مع الرخصة فإذا لم يكن بفئة هذا الضعف الذى ذكره الله سببا للتخفيف ، كان عليها أن تثبت لعشرة أمثالها .

ويؤيد هذا الرأى أن العشرين المذكورة فى النص الأول موصوفة بالصابرين وكذلك المائة موصوفة بكونها صابرة ، فمتى وجدت صفة الصبر ثبت الحكم الأول، والصبر من لوازمه المتقدمة عليه القوة المادية وقوة القلب المعنوية . وإذا قلنا . إن النص الثانى عام فى جميع الأحوال كان الأول منسوخ الحكم وهذا بعيد .

* * *

ويقرب من هاتين الآيتين قوله تعالى فى سورة المزمل :

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً * إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً * إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً﴾ (المزمل : ١-٧) .

ثم قال فى آخر السورة :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ (المزمل : ٢٠) .

الآية الأولى نص صريح فى طلب قيام جزء من الليل قريب من نصفه ، وبينت السبب فى هذا الإيجاب . والخطاب فيها موجه إلى النبى صلى الله عليه وسلم والنص الثانى دال على أن الرسول كان يقوم بهذا التكليف ، وكذلك طائفة من الذين معه ، ثم ذكر أن هناك سببا يقتضى التخفيف عن الأصحاب وهو علم الله بأن سيكون منهم الأصناف الثلاثة الذين ذكرهم. ومن أجل ذلك كان التكليف مقصورا على قراءة ما تيسر من القرآن ، فإذا كان النص الأول قاصرا على النبى صلى الله عليه وسلم - والأصحاب إنما قاموا بقيام الليل اقتداء به صلى الله عليه وسلم - والتخفيف قاصرًا عليهم للأسباب المذكورة ، لم يكن النص الأول منسوخا ، بل حكمه باق بالنسبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا رأى ابن عباس ، وإن قلنا : إن الأول عام ، والتخفيف عام كان النص الأول منسوخًا وهو بعيد .

الثالث : قوله تعالى فى سورة المجادلة :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١) .

ثم قال فى السورة نفسها :

﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ (٢) .

(١، ٢) المجادلة : ١٢ - ١٣ .

فالآية الأولى : تحتم تقديم الصدقات بين يدى النجوى ، والثانية : ترفع ذلك التحتيم من غير تصريح بالرفع ، هذا ما يمكن تطبيقه على الأول وهو إعلام النص اللاحق بإلغاء النص السابق ، وقد علمت أن هذه النصوص الثلاثة غير معينة لإفادة النسخ .

أما الطريق الثانى : وهو الالتجاء إلى النسخ لوجود نصين متناقضين ولا مجال لتأويل أحدهما ، فمن العسير أن نرى فى كتاب الله ما هو كذلك . وقد أفضنا القول فى بيان الآيات التى قيل : إنها منسوخة، وإجابة مانعى ذلك من العلماء فى كتابنا الموسوم بأصول الفقه، فارجع إليه إن شئت، ومن سلف العلماء الذين منعوا أن يكون فى القرآن منسوخ أبو مسلم الأصفهانى المفسر الكبير ، وقد رأينا أقواله فى تفسير الرازى ، ويظهر من خلال كلام الرازى أنه ميال لرأى أبى مسلم فى ذلك »[1] .

١- ترتيب السور

تاريخ النزول وسببه أصلان عظيمان فى تبيان الأحكام ، واستكمال الصورة الشرعية على أوضاعها الصحيحة ، وترتيبها العتيد .

ونحن نعلم أن ترتيب المصحف على نسقه القائم - وإن تم بتوقيف الرسول ، واجتماع أصحابه - يخالف ترتيب نزوله حسب الوقائع والأزمان .

كانت الطائفة من الآيات تنزل ، فيأمر الرسول كتبة الوحى أن يضعوها فى المكان الذى يذكر فيه كذا وكذا ، وربما يكون نزل قبلها بسنين ..

وما دام هذا الترتيب قد وقع بإشراف الرسول نفسه ، فلابد أن يكون ذلك كى تتفق صورة المصحف مع الأصل الثابت لها فى السماء .

وطبيعى أن تكثر الروايات عن أول ما نزل ، وعن آخر ما نزل ، وعن السبب فى نزول آية ما ، وعن مكان نزولها .. وللأقدمين بحوث فى ذلك مستفيضة لا يتسع المجال هنا لشرحها ، ولا لنقدها .

---

(١) نقلا عن كتاب نظرات فى القرآن للأستاذ محمد الغزالى ص ٢٥٢ - ٢٥٧ ط ٢ .

ونحن نذكر الترتيب الآتى للسور وفق مجىء الوحى بها للرسول عليه الصلاة والسلام . وإن كانت لنا عليه ملاحظات .

فأول ما نزل من القرآن بمكة ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ، ثم نون والقلم ، ثم يا أيها المزمل. ثم المدثر ، ثم تبت يدا أبى لهب وتب ، ثم إذا الشمس كورت ، ثم سبح اسم ربك الأعلى، ثم والليل إذا يغشى ، ثم والفجر ، ثم والضحى ، ثم ألم نشرح، ثم والعصر ، ثم والعاديات ، ثم إنا أعطيناك الكوثر ، ثم ألهاكم التكاثر ، ثم أرأيت الذى ، ثم قل يا أيها الكافرون ، ثم الفيل ، ثم قل هو الله أحد ، ثم والنجم ، ثم عبس ، ثم سورة القدر ، ثم سورة البروج ، ثم التين ، ثم لإيلاف قريش ، ثم القارعة ثم القيامة ، ثم الهمزة ، ثم المرسلات، ثم ق ، ثم سورة البلد ، ثم الطارق ، ثم فاطر، ثم مريم ، ثم طه ، ثم الواقعة ، ثم الشعراء ، ثم النمل ، ثم القصص ، ثم سورة بنى إسرائيل ، ثم يونس ، ثم هود، ثم يوسف ، ثم الحجر ، ثم الأنعام ، ثم والصافات ، ثم لقمان ، ثم سبأ ، ثم الزمر ، ثم حم المؤمن ، ثم السجدة ، ثم حم عسق، ثم الزخرف ، ثم الدخان ، ثم الجاثية ، ثم الأحقاف، ثم الذاريات ، ثم الغاشية ، ثم الكهف، ثم النحل ، ثم نوح ، ثم إبراهيم ، ثم الأنبياء ، ثم قد أفلح المؤمنون ، ثم تنزيل السجدة ، ثم الطور ، ثم الملك ، ثم الحاقة ، ثم سأل سائل ، ثم عم يتساءلون، ثم النازعات ، ثم إذا السماء انفطرت ، ثم إذا السماء انشقت ، ثم الروم، ثم العنكبوت) .

واختلفوا فى آخر ما نزل بمكة، فقال ابن عباس : العنكبوت ، وقال الضحاك وعطاء : المؤمنون ، وقال مجاهد : ويل للمطففين ، فهذا ترتيب ما نزل من القرآن بمكة: وهى ثلاث وثمانون سورة ، على ما استقرت عليه روايات الثقات .

وأما ما نزل بالمدينة فإحدى وثلاثون سورة ، فأول ما نزل بها سورة البقرة ، ثم الأنفال ، ثم آل عمران ، ثم الأحزاب ، ثم الممتحنة، ثم النساء ، ثم إذا زلزلت الأرض ، ثم الحديد ، ثم سورة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم الرعد ، ثم سورة الرحمن ، ثم هل أتى على الإنسان ، ثم الطلاق ، ثم لم يكن ، ثم الحشر ، ثم الفلق ، ثم الناس ، ثم إذا جاء نصر الله والفتح ، ثم النور ، ثم الحج ، ثم إذا جاءك

المنافقون ، ثم المجادلة ، ثم الحجرات ، ثم التحريم ، ثم الصف ، ثم الجمعة ، ثم التغابن ، ثم الفتح ، ثم التوبة ، ثم المائدة .

* * *

على أننا نلاحظ أن السور لم تنزل بهذا الترتيب كاملة ، فقد تلحق بها آيات نزلت فى أمكنة وأزمنة أخرى .

فالآية الأخيرة من سورة المزمل مدنية ، وإن كانت السورة مكية ، ومع الفاصل الزمنى ، واختلاف الأسلوب طولا وقصرا ، فإن المعنى الذى عرضت له هذه الآية متصل بصدر السورة .

٢- من كتاب تاريخ القرآن لأبى عبد الله الزنجانى ترتيب نزول القرآن

على النظم الذى ذكره ابن النديم بإسناده عن محمد بن نعمان بن بشير نذكر قوله؛ لأنه سند قديم يعتمد عليه؛ ولأن بين ما ذكره من الترتيب والترتيب المذكور فى كتاب إبراهيم بن عمر البقاعى وكتاب أبى القاسم عمر بن محمد بن عبد الكافى - كما نقله « الأستاذ نولدكه Noldeke » عنه - اختلافًا يسيرًا، قال : أول ما نزل من القرآن على النبى صلى الله عليه وسلم فى مكة هو :

١	اقرأ باسم ربك الذى خلق إلى قوله	٢٠	ثم قل أعوذ برب الفلق .. ..
	علم الإنسان ما لم يعلم	٢١	قل أعوذ برب الناس . ويقال إنها مدنية .. ..
٢	ثم ن والقلم	٢٢	ثم والنجم .. ..
٣	يا أيها المزمل وآخرها بطريق مكة	٢٣	عبس وتولى .. ..
٤	المدثر	٢٤	إناأنزلناه .. ..
٥	وروى عن مجاهد قال نزلت تبت يدا أبى لهب ..	٢٥	والشمس وضحاها .. ..
٦	ثم إذا الشمس كورت	٢٦	والسماء ذات البروج .. ..
٧	سبح اسم ربك الأعلى	٢٧	والتين والزيتون .. ..
٨	ألم نشرح لك صدرك	٢٨	لإيلاف قريش .. ..
٩	والعصر	٢٩	القارعة .. ..
١٠	والفجر	٣٠	لا أقسم بيوم القيامة .. ..
١١	ثم الضحى	٣١	ويل لكل همزة لمزة .. ..
١٢	والليل	٣٢	المرسلات .. ..
١٣	والعاديات ضبحًا	٣٣	ق والقرآن .. ..
١٤	إنا أعطيناك الكوثر	٣٤	لا أقسم بهذا البلد .. ..
١٥	ألهاكم التكاثر	٣٥	الرحمن .. ..
١٦	أرأيت الذى	٣٦	قل أوحى .. ..
١٧	قل يا أيها الكافرون	٣٧	يس .. ..
١٨	ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل	٣٨	المص ... ...
١٩	ثم قل هو الله أحد	٣٩	تبارك الذى نزل الفرقان .. .. ..

٤٠	الملائكة	٦٥	حم الأحقاف : فيها آى مدنية .. ..
٤١	الحمد لله فاطر	٦٦	الذاريات ... ...
٤٢	مـريم	٦٧	ثم هل أتاك حديث الغاشية ... .
٤٣	طه	٦٨	الكهف : آخرها مدنى ... ...
٤٤	ثم إذا وقعت	٦٩	الأنعام : فيها آى مدنية ... ...
٤٥	طسم الشعراء	٧٠	النحل : آخرها مدنى ... ...
٤٦	طس	٧١	نوح ... ...
٤٧	طسم الآخرة	٧٢	إبراهيم ....
٤٨	بنى إسرائيل	٧٣	السجدة ....
٤٩	هـود	٧٤	الطور ....
٥٠	يوسف	٧٥	تبارك الذى بيده الملك .. ..
٥١	يونس	٧٦	الحاقة ... ...
٥٢	الحجر	٧٧	سأل سائل ... ...
٥٣	الصافات	٧٨	عم يتساءلون ....
٥٤	لقمان : آخرها مدنى	٧٩	ثم النازعات ... .
٥٥	قد أفلح المؤمنون	٨٠	إذا السماء انفطرت ... ...
٥٦	ثم سبأ	٨١	إذا السماء انشقت ....
٥٧	الأنبياء	٨٢	الروم ....
٥٨	الزمر	٨٣	العنكبوت ....
٥٩	حم المؤمن	٨٤	ويل للمطففين ويقال إنها مدنية ..
٦٠	حم السجدة	٨٥	اقتربت الساعة وانشق القمر... ..
٦١	حمعسق	٨٦	والسماء والطارق ... .
٦٢	حم الزخرف	٨٧	قال حدثنى الثورى عن فراس عن الشعبى قال: نزلت النحل بمكة إلا هؤلاء الآيات : وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ... .
٦٣	حم الدخان		
٦٤	حم الشريعة		

وقال: وحدث ابن جريج عن عطاء الخراسانى عن ابن عباس ، قال : نزلت بمكة خمس وثمانون سورة ونزل بالمدينة ثمان وعشرون سورة .

٨٨	البقرة	١٠٢	ثم إذا جاء نصر الله و الفتح... ...
٨٩	ثم الأنفال	١٠٣	النور ....
٩٠	الأعراف	١٠٤	ثم الحج ....
٩١	آل عمران	١٠٥	المنافقون ... .
٩٢	الممتحنة	١٠٦	المجادلة ....
٩٣	النساء	١٠٧	الحجرات ... .
٩٤	إذا زلزلت	١٠٨	ثم التغابن ....
٩٥	الحديد	١٠٩	الحواريين ....
٩٦	ثم الذين كفروا	١١٠	الفتح ... .
٩٧	الرعد	١١١	المائدة ... ...
٩٨	هل أتى على الإنسان	١١٢	يا أيها النبى لم تحرم ... .
٩٩	يا أيها النبى إذا طلقتم النساء	١١٣	الجمعة ... ...
١٠٠	لم يكن الذين كفروا	١١٤	التوبة ....
١٠١	الحشر		يقال نزلت المعوذتان بالمدينة

(انتهى)

قد علم مما سبق أن القرآن كتب فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، بين يديه فى جرائد النخل والأكتاف والحرير . وخرج الحاكم بسنده على شرط الشيخين عن زيد بن ثابت ، قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نؤلف القرآن من الرقاع ». وكان هذا التأليف عبارة عن ترتيب الآيات حسب إرشاد النبى

صلى الله عليه وسلم إلى مواضعها ، ولكن الصحف المكتوبة كانت متفرقة ، ولأجل ذلك أمر النبى صلى الله عليه وسلم عليا عليه السلام بجمعه ، وحذر من تضييعه ، كما يدل عليه رواية على بن إبراهيم القمى ، وكان القرآن محفوظا فى صدور الرجال ، وحفظته جماعة من الصحابة كلٌّ حسب ما سمعوه من النبى صلى الله عليه وسلم . وقتل فى وقعة بئر معونة فى (سنة ٤ هـ) جماعة تقرب عدتهم من سبعين رجلا يقال لهم القراء [١] .

* * *

(١) تاريخ القرآن : أبو عبد الله الزنجانى ص ٣٦ - ٣٩ . نشر مؤسسة الحلبى .

٣ - حفظ القرآن

يسر الله للقرآن وسائل للحفظ فى الصدور والكتب فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وفى عهد الخلفاء الراشدين وفى سائر العصور إلى يومنا هذا، وإلى يوم الدين .

و هناك آراء ثلاثة فى ترتيب سور القرآن:

الرأى الأول أن ترتيب السور توقيفى .

الرأى الثانى أن ترتيب السور كان باجتهاد الصحابة .

الرأى الثالث : أن ترتيب السور كان بعضه توقيفيا وبعضه كان باجتهاد الصحابة .

ونحن نستبعد الرأى الثانى (الذى يرى أن ترتيب القرآن كان باجتهاد الصحابة) .

ونرى أن ترتيب معظم سور القرآن كان توقيفيا تلقاه المسلمون عن رسول الله وتلقاه الرسول عن جبريل عليه السلام عن الله عز وجل. وبعض سور القرآن رتب باجتهاد الصحابة وهو اجتهاد مأذون فيه لأنهم رتبوا القرآن على نحو ما سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقرأ أمامهم نحو ربع القرآن فى ليلة واحدة .

والأمة الإسلامية تلقت هذا الترتيب بالقبول .

وفيما يلى الترتيب التاريخى كما رواه ابن عباس رضى الله عنه وأرضاه .

السور المكية

الترتيب التاريخى لابن عباس	رقم السورة فى المصحف	الترتيب التاريخى لابن عباس	رقم السورة فى المصحف
١- اقرأ (العلق)	(٩٦)	٢٥- الضحى	(٩١)
٢- ن	(٦٨)	٢٦- البروج	(٨٥)
٣- المزمل	(٧٣)	٢٧- التين	(٩٥)
٤- المدثر	(٧٤)	٢٨- قريش	(١٠٦)
٥- تبت	(١١١)	٢٩- القارعة	(١٠١)
٦- الشمس	(٨١)	٣٠- القيامة	(٧٥)
٧- الأعلى	(٨٧)	٣١- الهمزة	(١٠٤)
٨- الليل	(٩٢)	٣٢- المرسلات	(٧٧)
٩- الفجر	(٨٩)	٣٣- ق	(٥٠)
١٠- الضحى	(٩٣)	٣٤- البلد	(٩٠)
١١- ألم نشرح	(٩٤)	٣٥- الطارق	(٨٦)
١٢ - العصر	(١٠٣)	٣٦- الساعة	(٥٤)
١٣- العاديات	(١٠٠)	٣٧- ص	(٣٨)
١٤- الكوثر	(١٠٨)	٣٨- الأعراف	(٧)
١٥- التكاثر	(١٠٢)	٣٩- الجن	(٧٢)
١٦- الماعون	(١٠٧)	٤٠- يس	(٣٦)
١٧- الكافرون	(١٠٩)	٤١ - الفرقان	(٢٥)
١٨- الفيل	(١٠٥)	٤٢- الملائكة	(٣٥)
١٩- الفلق	(١١٣)	٤٣- مريم	(١٩)
٢٠- الناس	(١١٤)	٤٤- طه	(٢٠)
٢١ - الإخلاص	(١١٢)	٤٥- الواقعة	(٥٦)
٢٢- النجم	(٥٣)	٤٦- الشعراء	(٢٦)
٢٣- عبس	(٨٠)	٤٧- النمل	(٢٧)
٢٤ - القدر	(٩٧)	٤٨- القصص	(٢٨)

الترتيب التاريخى لابن عباس	رقم السورة فى المصحف
٤٩- بنى إسرائيل	(١٧)
٥٠- يونس	(١٠)
٥١ - هود	(١١)
٥٢- يوسف	(١٢)
٥٣- الحجر	(١٥)
٥٤- الأنعام	(٦)
٥٥- الصافات	(٢٧)
٥٦- لقمان	(٣١)
٥٧- سبأ	(٣٤)
٥٨- الزمر	(٣٩)
٥٩- المؤمنون	(٤٠)
٦٠- السجدة	(٤١)
٦١- الشورى	(٤٢)
٦٢- الزخرف	(٤٣)
٦٣ - الدخان	(٤٤)
٦٤ - الجاثية	(٤٥)
٦٥ - الأحقاف	(٤٦)
٦٦- الذاريات	(٥١)
٦٧- الغاشية	(٨٨)
٦٨- الكهف	(١٨)
٦٩- النحل	(١٦)
٧٠- نوح	(٧١)

الترتيب التاريخى لابن عباس	رقم السورة فى المصحف
٧١- إبراهيم	(١٤)
٧٢- الأنبياء	(٢١)
٧٣ - المؤمنون	(٢٣)
٧٤- السجدة	(٢٢)
٧٥- الطور	(٥٢)
٧٦- تبارك	(٦٧)
٧٧- الحاقة	(٦٩)
٧٨- المعارج	(٧٠)
٧٩- النبأ	(٧٨)
٨٠- النازعات	(٧٩)
٨١- الانفطار	(٨٢)
٨٢- الانشقاق	(٨٤)
٨٣- الروم	(٣٠)
٨٤- العنكبوت	(٢٩)
٨٥ - المطففين	(٨٣)
٨٦ - البقرة	(٢)
٨٧- الأنفال	(٨)
٨٨- آل عمران	(٣)
٨٩- الأحزاب	(٣٣)
٩٠- الممتحنة	(٦٠)
٩١ - النساء	(٤)
٩٢- الزلزلة	(٩٩)

الترتيب التاريخى لابن عباس	رقم السورة فى المصحف
٩٣ - الحديد	(٥٧)
٩٤- القتال (محمد)	(٤٧)
٩٥- الرعد	(١٣)
٩٦- الرحمن	(٥٥)
٩٧- الإنسان	(٧٦)
٩٨- الطلاق	(٦٥)
٩٩- البينة	(٩٨)
١٠٠- الحشر	(٥٩)
١٠١- النصر	(١١٠)
١٠٢- النور	(٢٤)
١٠٣- الحج	(٢٢)
١٠٤- المنافقون	(٦٣)
١٠٥- المجادلة	(٥٨)
١٠٦- الحجرات	(٤٩)
١٠٧- التحريم	(٦٦)
١٠٨- الجمعة	(٦٢)
١٠٩- التغابن	(٨٤)
١١٠- الصف	(٦١)
١١١- الفتح	(٤٨)
١١٢- المائدة	(٥)
١١٣ - براءة	(٩)

وكان هذا الترتيب هو الذى سار عليه المستشرق نولدكه [١] .

وقد حاول أن يستنبط القواعد التى سار عليها هذا الترتيب فوجد أن الأحداث التاريخية حسب تتابعها علامات فى طريق الترتيب . فإنه جعل بدرا والخندق وصلح الحديبية وأشباهها من المعارك لفهم تاريخ ما نزل من القرآن فيها . وجعل أيضا اختلاف لهجة القرآن وأسلوبه الخطابى دليلا آخر لتاريخ آياته [٢] .



(١) ص ٥٨ ، جـ ١ « تاريخ القرآن » لنولدكه .

(٢) بحث جديد عن القرآن : محمد صبيح .

٤ - علماؤنا وترتيب القرآن

كان أستاذى المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز يرفض أن يكون القرآن المكى متميزا بطابع خطابى كما يرى نولدكه .

والحق أن علماءنا قد بينوا لنا سمات المكى والمدنى، وإذا رجعنا إلى أبواب المكى والمدنى فى كتب علوم القرآن مثل كتاب البرهان فى علوم القران للزركشى ، والإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ، ومقدمات كتب التفسير مثل مقدمة تفسير الطبرى وابن كثير وغيرهم رأينا فيها ما يكفى ويشفى .

وفى صدر هذا الكتاب مبحث عن كتابة القرآن الكريم ، وعن ترتيب الآيات والسور فى القرآن الكريم ، وعن القرآن فى مكة المكرمة والمدينة المنورة . آمل أن يكون فيه بيان كاف لهذه الموضوعات .

وهناك ملاحظة ظاهرة على الترتيب التاريخى لابن عباس هى أن سور القرآن فى هذا الترتيب ١١٣ سورة، ونلاحظ أن ترتيب سور القرآن فى مصحف أبى ابن كعب جاء على أن عدد السور ١٠٥ سور ، وقد جعل أبى بن كعب سورة الفيل وسورة الإئتلاف واحدة كما أن ترتيب القرآن فى مصحف عبد الله بن مسعود تم على أن عدد سور القرآن ١٠٨ سور أما رواية الشهرستانى عن ترتيب مصحف عبد الله بن عباس فتفيد أن عدد السور ١١٤ سورة ، كما ذكر الشهرستانى أن ترتيب السور فى مصحف جعفر الصادق يفيد أن عددها ١١٣ سورة [١] .

* * *

---

(١) تاريخ القرآن لأبى عبد الله الزنجانى ص ٥٨ .

ولكن المصحف الإمام، أى مصحف عثمان الذى تلقته الأمة بالقبول وكتب على ملأ من المسلمين، يفيد أن عدد سور القرآن ١١٤ سورة وهى محفوظة ومكتوبة فى المصحف المطبوع المتداول بين المسلمين ، وهذا أمر أجمعت عليه الأمة ، وأصبح معلوما من الدين بالضرورة ، وحفظ القرآن على مدار العصور الإسلامية المتوالية بهذه الصفة المتواترة ، وصدق الله العظيم .

(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) [١] .

★ ★ ★

---

(١) هذا المعنى وجدته بعد تأليف الكتاب ، فى كلام القاضى : (أبو بكر الباقلانى) فى كتابه إعجاز القرآن فى فصل خاص عن (كلام النبى وأمور تتصل بالإعجاز) .

الفصل الثالث عشر

الاجتهاد

الاجتهاد مصدر من مصادر التشريع الإسلامى.

والاجتهاد فى اللغة بذل الجهد واستفراغ الوسع فى تحقيق أمر لا يكون إلا بكلفة ومشقة، ولهذا يقال اجتهد فى حمل قنطار من القطن، أو مائة رطل من الحديد، ولا يقال اجتهد فى حمل عصاه أو قلمه.

قال فى القاموس : الجهد بالفتح والضم : الطاقة والمشقة، واجهد جهدك أى ابلغ غايتك، وجهد بفتح الهاء جد واجتهد .. والتجاهد بذل الوسع كالاجتهاد، وهكذا ترجع المعانى اللغوية للاجتهاد إلى بذل الطاقة والوسع، وتحمل المشقة والكلفة ليبلغ المجتهد مجهوده ويصل إلى غايته.

وقد عرف العلماء الاجتهاد : بأنه ملكة يقتدر بها على استنباط الأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية.

وعرفه الأصوليون : بأنه بذل الفقيه جهده العقلى فى استنباط حكم شرعى من دليله على وجه يحس فيه العجز عن المزيد.

وعرفه الإمام الغزالى : بأنه بذل المجتهد وسعه فى طلب العلم بأحكام الشريعة.

نشأة الاجتهاد :

حث القرآن المسلمين على التأمل والتدبر، واستخدام العقل والفكر، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم دائم الفكر والنظر فى مصلحة الدعوة الإسلامية

والأمة الإسلامية، وكان لا يرى إلا مجتهدا فى أمر من الأمور، قد هجر الاسترخاء، وضياع الوقت فى غير ما طائل.

وقد حث القرآن على التفقه فى الدين والاجتهاد فى معرفة الأحكام ومقاصد الشريعة وغاياتها.

قال تعالى : ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (التوبة/١٢٢)

وقال عز شأنه : ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ (النساء/٨٣).

والاستنباط والاستثمار عين الاجتهاد، ولذلك سمى المجتهد مستنبطا ومستثمرا، لأنه يبذل جهده العقلى فى استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية.

وقد روى معاذ بن جبل رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - لما بعثه إلى اليمن - سأله : « كيف تقضى إذا عرض لك قضاء ؟ قال : أقضى بما فى كتاب الله، قال : فإن لم تجد فى كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله، قال : فإن لم يكن فى سنة رسول الله ؟ قال : أجتهد رأيى ولا آلو، أى لا أقصر، قال معاذ : فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدرى وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى الله ورسوله (١) .

المانعون للاجتهاد :

ذهب الشيعة والنظام وجماعة من معتزلة بغداد والظاهرية إلى أن الاجتهاد ممنوع شرعا، ومنهم من بالغ فزعم أنه ممنوع عقلا، واستدلوا بما يأتى :

---

(١) انظر : سنن أبى داود جـ ٢ ص ١١٦ .

١- نصوص الكتاب والسنة كافية فى تعرف ما يحتاج إليه الإنسان، قال تعالى : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ (النحل/٨٩).

٢- نصوص القرآن والسنة تدل على عدم الاعتداد بالرأى. قال تعالى : ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ ، ولم يقل فردوه إلى آرائكم. وقال سبحانه ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ (النساء/١٠٥)، ولم يقل بما رأيت أنت.

المثبتون للاجتهاد :

ذهب جمهور المسلمين إلى أن الاجتهاد جائز عقلا وشرعا وعندما تدعو إليه الحاجة يكون واجبا.

وهو قول السلف من الصحابة والتابعين والأئمة الأربعة وأكثر الفقهاء والمتكلمين .

واستدل المثبتون للاجتهاد بالكتاب والسنة والعقل.

١- أما الكتاب فقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ (النساء/٥٩).

فإن المراد بطاعة الله ورسوله اتباع ما علم من نصوص الكتاب والسنة أما الرد إلى الله ورسوله عند التنازع فالمراد منه الرجوع إلى ما شرع الله ورسوله بالبحث عما قد يكون خافيا أو غائبا عن البال من النصوص، أو بتطبيق القواعد العامة، بإلحاق الشبيه بشبيهه، أو التوجه إلى تحقيق المقاصد التى اعتبرها الشارع، فكل هذا رد إلى الله ورسوله ولو كان المراد بالرد عند التنازع هو المراد بما تقدمه من طاعة الله ورسوله لكان الكلام تكرارا خاليا من الفائدة، وهو ما ينبو عنه أسلوب القرآن الكريم.

٢- وأما السنة فحديث معاذ بن جبل، وفيه يقول معاذ : « .. أجتهد رأيى ولا آلو ».

ومنها ما روى سعيد بن المسيب عن على رضى الله عنهما أنه قال : قلت يا رسول الله ، الأمر ينزل بنا فيه قرآن ولم تمض فيه منك سنة ؟ قال : اجمعوا له العالمين، أو قال : العابدين من المؤمنين، فاجعلوه شورى بينكم ولا تقضوا فيه برأى واحد. ومنها ما روى من اجتهاد الرسول وأمره أصحابه بالاجتهاد وإقراره من اجتهد منهم على اجتهاده.

٣- وأما العقل ، فقد جعل الله الإسلام خاتم الأديان، وجعل شريعته صالحة لكل زمان وكل مكان، ونصوص الشريعة من الكتاب والسنة محدودة وحوادث الناس ووسائلهم إلى مقاصدهم متجددة وغير محدودة، ولا يمكن أن تفى النصوص المحدودة بأحكام الحوادث المتجددة غير المحدودة والجزئيات التى لا حصر لها إلا إذا كان مجال لتعرف أحكام الحوادث الطارئة، بالاجتهاد فى قياسها على نظائرها، أو توجيهها إلى تحقيق المصالح التى ترمى إليها الشريعة، وبغير هذا تفقد الشريعة مرونتها وصلاحيتها لكل زمان وكل مكان.

وأما قوله تعالى (لتحكم بين الناس بما أراك الله) ، فالمراد به لتحكم بينهم بما بصرك الله به وعلمك إياه، وقد يكون منه بذل الجهد لمعرفة الحكم فيما لا نص فيه.

الاجتهاد فى الصدر الأول :

أ - قال الأشاعرة، وكثير من المعتزلة، ليس للرسول أن يجتهد لأن الوحى أقوى من الاجتهاد لجواز الخطأ فى الاجتهاد دون الوحى، ومتى أمكن الاعتماد على الأقوى لم يجز العدول عنه إلى الأضعف. لقوله تعالى فى أول سورة النجم : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ ، فقد نفى الله عنه أن يصدر كلامه عن هوى، وقصر ما يصدر عنه على

كونه وحيا يوحى، ولو كان له أن يجتهد ما كان كل كلامه صادرا عن الوحى. وقد انتظر الرسول الوحى للإجابة عن سؤال وجه إليه فى كثير من المسائل .

ب - وقال جمهور الأصوليين: للرسول أن يجتهد واستدلوا بما يأتى :

١- منع الاجتهاد إضعاف للمدارك الإنسانية وتعطيل للعقول البشرية، والاجتهاد يشحذ الأذهان ويقوم المدارك ويحرك العقول إلى التفكير المستقيم وتحرى الرأى السديد، فلا ينبغى أن يمنع منه الأنبياء، كما لم يخرجهم الله من دائرة التكاليف التى تهذب النفوس وتقوى العزائم.

٢- قال تعالى : (فاعتبروا يا أولى الأبصار)، ونحوه من الأدلة التى تأمر بالاعتبار وقياس الأشباه، ورعاية المصلحة، فإن تلك الأدلة تشمل الرسول وغيره، بل هو صلى الله عليه وسلم أولى بجواز الاجتهاد لأنه أدرى بوجوه التماثل والتشابه، وأعلم بمقاصد الشريعة.

٣- من الناحية العلمية كان ﷺ يجتهد ويأمر بالاجتهاد ويقر أصحابه على اجتهادهم.

٤- أما قوله تعالى : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (النجم : ٣-٤) فالمراد به القرآن الكريم، ولو كانت الآية عامة لكان كل كلامه وحيا لا يحتمل الخطأ، وقد شهد القرآن بغير هذا حين عاتبه على أخطاء وقع فيها، فلا تكون الآية مانعة من اجتهاده ﷺ.

٥- وأما انتظار الوحى فإنما كان منه فيما ليس مجالا للاجتهاد أو فيما أشكل وجه الحكم فيه، مما لا يعرف إلا بالوحى، فأما ما يعرف حكمه بالاجتهاد من غير إشكال، فإنه لا يتوقف فيه . ويعرف هذا من تتبع أقضيته وأحكامه ﷺ [1].

---

(١) انظر : جـ ٣ ، ٤ من زاد المعاد لابن القيم .

٦- وأما كون الاعتماد على الاجتهاد أضعف، ويجب إهماله عند التمكن من الاعتماد على الوحى، فيرده أن الله أراد لعقول عباده أن تتحرك وأن تجتهد، فالعقل أثر من آثار الله، والوحى أثر من آثار الله، وآثار الله لا تعارض بينها ولا تضارب. ثم إن الوحى ليس خاضعا لإرادته فلا يكون فى مقدوره [(١)].

قال تعالى : ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ (مريم : ٦٤) .

على أن الرسول لو اجتهد وأخطأ فإن الوحى كفيل برده إلى الصواب ويكون اجتهاده حينئذ ملحقا بالوحى، ولهذا سماه الحنفية « الوحى الباطن ».

والخلاصة أن من الأحكام ما لا يعرف إلا بالوحى، وفى هذا يقضى الرسول بما نزل ، أو ينتظر الوحى، ومنها ما يعرف بالاجتهاد فإن وجد فيه نصا قضى به وإلا اجتهد، فإن أصاب فيها وإلا نزل الوحى بتسديده إلى الصواب.

وقد مضى الخلفاء الراشدون على التماس الأحكام فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فإن لم يجدوا فيهما، اجتهدوا واستشاروا [(٢)].

أمثلة من اجتهاد الرسول :

١- اجتهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أسرى بدر فوافق على قبول الفداء، وكان رأيا عاتبه الله عليه فى قوله : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال/٦٧).

---

(١) راجع تفسير القرطبى لقوله تعالى : ﴿وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ سورة طه / ١١٤ .

(٢) انظر : اجتهاد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى إعلام الموقعين ١/ ٢٤٤ .

وكان رأى عمر قتل هؤلاء الأسرى عقوبة لهم وقطعا لشوكة الكفر والعناد، وإزاحة لطواغيت الفساد والشرك.

وكان رأى أبى بكر الصفح عنهم وقبول الفداء ليكون عونا للمسلمين. واستشار النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه، فمنهم من اختار ما قاله أبو بكر ومنهم من اختار ما قاله عمر.

ونظر عليه الصلاة والسلام فوجد أن أكثر الصحابة يؤيدون رأى أبى بكر فقال : « إن الله ليلين قلوب أقوام حتى تكون ألين من الماء ، ويقسى قلوب أقوام حتى تكون أقسى من الحجارة، وإن مثل أبى بكر كمثل إبراهيم حين قال : ﴿وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ (الشعراء : ٨٦) .

وإن مثل عمر كمثل نوح حين قال : ﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً﴾ (نوح : ٢٦ - ٢٧) .

ثم وافق الرسول على رأى أبى بكر، لأن الأكثرية معه، ولأنه صلى الله عليه وسلم كان من طبعه الرأفة والرحمة.

ولكن الله أرشد المسلمين إلى حقيقة وضعهم، فهم فى بداية الدعوة وقوى الكفر تريد أن تعصف بهم. فيجب أن يقطعوا دابر المشركين وأن يضعفوا قوة الشرك، ولا يباح قبول الفداء إلا بعد تكرر النصر واشتداد قوة الدولة، والإثخان فى الأرض، أى الإكثار من القتل والنصر والسيطرة والتمكن. ولما نزلت الآيات تعاتب على قبول الفداء بكى الرسول هو وأبو بكر، وقال: لقد عرض على عذاب السماء أقرب من هذه الشجرة، ولو نزل عذاب من السماء ما نجا منه غير عمر.

قال تعالى فى شأن أسرى بدر : ﴿لَوْلا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل

لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

(الأنفال ٦٨-٧١)

٢- قصة عبد الله بن أم مكتوم :

وذلك أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده صناديد قريش يدعوهم إلى الإسلام رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم ، فقال: يا رسول الله أقرئنى وعلمنى مما علمك الله، وكرر ذلك وهو لا يعلم شغله بالقوم، فكره رسول الله قطعه لكلامه وعبس وأعرض عنه. فنزلت سورة عبس تلوم الرسول على إعراضه عن الأعمى وتصحح القيم الإنسانية، وتضع الأسس الإسلامية لأقدار الناس وأوزانهم، وتؤكد أن قيمة الإنسان بعمله وسلوكه ومقدار إتباعه لهدى السماء. قال تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ * أَن جَاءَهُ الأَعْمَىٰ * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ * فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ * وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّىٰ * وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ * وَهُوَ يَخْشَىٰ * فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾

(عبس : ١-١٠)

وبعد نزول هذه الآيات، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرم عبد الله ابن مكتوم ويقول إذا رآه : مرحباً بمن عاتبنى فيه ربى، ويقول: هل لك من حاجة ؟ واستخلفه على المدينة مرتين.

٣- وقد عد من اجتهاده قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها، ولا على ابنة أخيها، ولا على ابنة أختها فإنكم إذا فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم ». فإنه قياس منه على ما نص عليه القرآن من حرمة الجمع بين الأختين. ومن اجتهاده قوله صلى الله عليه وسلم : « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » فإن وضع هذه القاعدة مبنى على قياس ما لم ينص عليه منها على ما نص عليه.

اجتهاد الصحابة أمام الرسول (ﷺ) :

حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ فى بنى قريظة فحكم فيهم باجتهاده فأقر الرسول حكمه وقال، «والذى نفسى بيده لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات» .

وقال ﷺ لعمرو بن العاص فى بعض القضايا : أحكم. فقال : أجتهد وأنت حاضر ؟ قال : نعم إن أصبت فلك أجران وإن أخطأت فلك أجر.

وروى عن أبى سعيد الخدرى أن رجلين خرجا فى سفر، فحضرت الصلاة وليس معهما ماء فتيمما وصليا، ثم وجدا الماء فى الوقت فتوضأ أحدهما وأعاد الصلاة، ولم يعد الآخر، ولما ذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال للذى لم يعد : « أصبت السنة وأجزأتك صلاتك ». وقال للذى توضأ وأعاد : « لك الأجر مرتين » فأقر كلا منهما على اجتهاده فى موضع لا نص فيه [1].

وفى غزوة الأحزاب، نقض بنو قريظة عهدهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم فلما رحل الأحزاب عن المدينة خاسرين، قال صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « من كان سميعاً مطيعا فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة »، فخرج المسلمون سراعاً، وأدركتهم صلاة العصر فى الطريق فقال بعضهم : لقد نهينا عن الصلاة حتى نصل بنى قريظة فصلوا هناك ليلا، وقال الآخرون : لم يرد الرسول منا تأخير الصلاة حتى نأتى بنى قريظة ، وإنما أراد سرعة النهوض، فصلوا بالطريق ولما علم الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك لم يوجه إلى أحد منهم لوما، فقد اجتهد كل من الفريقين مع وجود النص، فعمل فريق بلفظه ومنطوقه وعمل الفريق الآخر بمغزاه، وأقر الرسول صلى الله عليه وسلم كلا منهما على اجتهاده.

وفى غزوة ذات السلاسل سنة ثمان من الهجرة - احتلم أمير الجيش عمرو ابن العاص فى ليلة باردة، وخشى على نفسه الهلاك من الماء، فتيمم وصلى الصبح

---

(١) سبل السلام ١/ ٩٧ ، نيل الأوطار ١/ ٣٣٥ .

بأصحابه، وعلم بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا عمرو، صليت بأصحابك وأنت جنب ؟ فقال : لقد خفت البرد وسمعت الله تعالى يقول : (ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما) فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقل شيئا.

وهذا إقرار منه صلى الله عليه وسلم لاجتهاد أصحابه، وتدريب لهم على الفهم والاستنباط وسعة الأفق وجلاء البصيرة، وحسن المعرفة بأهداف القرآن والسنة، وحسن الإدراك لأهداف الشريعة ومقاصدها.

اجتهاد أبى بكر الصديق « رضى الله عنه »

كان أول ما واجه المسلمين- عقب وفاة رسول الله - من الأحداث التى لم يكن لها نظير فى عهده مسألة المرتدين، الذين منعوا الزكاة مع إقرارهم بالإسلام، وإقامتهم الصلاة، وقد رأى أبو بكر رضى الله عنه أن يقاتلهم حتى يؤدوا ما كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقال له عمر : كيف تقاتلهم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها ».

فقال أبو بكر : ألم يقل إلا بحقها ؟ فمن حقها إيتاء الزكاة كما أن من حقها إقامة الصلاة، ووافقه الحاضرون على ذلك. ثم اتجه أبو بكر إلى حرب المرتدين فنصره الله عليهم.

ثم عرضت مسألة جمع القرآن فى مصحف حين تهافت الناس فى قتال المرتدين وقتل من القراء خلق كثير، وخشى عمر أن يضيع القرآن بموت حفظته، فاقترح عمر على أبى بكر أن يكتب القرآن جميعه فى مصحف واحد، وكان قبل ذلك مكتوباً على الرقاع والعظام والكاغد وما تيسر للناس الكتابة عليه.

حديث البخارى :

روى البخارى فى صحيحه أن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال : أرسل إلى أبو بكر بعد مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر رضى الله عنه: إن عمر أتانى فقال : إن القتل قد استحر (أى اشتد) يوم اليمامة بالناس وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن، فيذهب كثير من القرآن إلا أن يجمعوه، وإنى لأرى أن تجمع القرآن.

قال أبو بكر : قلت لعمر : كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال هو والله خير ،فلم يزل يراجعنى حتى شرح الله لذلك صدرى، ورأيت الذى رأى عمر . قال زيد : وعنده عمر جالس لا يتكلم. فقال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك، كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فتتبع القرآن فاجمعه. فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن.

قلت : كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال أبو بكر : هو والله خير. فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر. قال : فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب وصدور الرجال.. فكانت الصحف التى جمع فيها القرآن عند أبى بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر [١].

فكتابة القرآن تمت بمشورة عمر وموافقة أبى بكر وألفت لجنة من الحفاظ الموثوق بهم برئاسة زيد بن ثابت، وتمت كتابة المصحف كله فى كتاب واحد.

وقد تردد أبو بكر فى الموافقة على أمر لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أقنعه عمر فاقتنع بأهمية الموضوع وضرورته لحفظ القرآن من أن يضيع منه شىء بموت القراء، وهو اجتهاد محمود كان له أثره الباقى الخالد.

---

(١) القرآن والتفسير للدكتور عبد الله شحاتة ، ص ٤١ .

قال على : « أعظم الناس أجرا فى المصاحف أبو بكر، رحمة الله على أبى بكر، هو أول من جمع كتاب الله ».

وكان أبو بكر رضى الله عنه يسوى فى العطاء بين المهاجرين والأنصار ويرى أن المال بلاغ يتبلغ به الناس فى الدنيا، أما سبق الإيمان فمثوبة الناس عليه من الله تعالى .

فلما تولى عمر الخلافة زاد العطاء لأهل السبق فى الإيمان ولأصحاب النبى وزوجاته، وقال: لا أسوى بين من قاتل رسول الله ومن قاتل معه.

اجتهاد عمر بن الخطاب « رضى الله عنه »

امتاز عمر بمعرفة أهداف الشريعة ومقاصدها، وفى الحديث الشريف : « إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه ».

فكان عمر شديدا فى الحق، قويا فى دين الله، حريصا على مصلحة المسلمين، وفى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم كان وزيره ومستشاره ومؤنسه، وكان الوحى ينزل مؤيدا رأى عمر فى عدد من الوقائع :

١- من ذلك مشورته بقتل أسري بدر.

٢- رغبته فى تحريم الخمر ودعاؤه : اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا فإنها تفسد العقل والدين. فأنزل الله تحريمها.

٣- رغبته فى احتجاب زوجات الرسول حيث قال : يا رسول الله يدخل على نسائك البر والفاجر، فلو أمرتهن فاحتجبن. فأنزل الله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ (الأحزاب /٥٣).

٤- وفى أوائل سورة المؤمنون تحدث القرآن عن مراحل خلق الجنين. ولما سمع عمر الآية قال : (فتبارك الله أحسن الخالقين) وتبسم النبى صلى الله عليه

وسلم وقال : إن الله ختم الآية بما نطقت به يا عمر. والآيات هى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (المؤمنون: ١٢ - ١٤) .

خلافة عمر:

مكث أبو بكر فى الخلافة سنتين قضى معظم خلافته فى حروب الردة وتثبيت دعائم الدولة، والمحافظة على قوة الأمة ، وكان أبو بكر سهلا محببا، وكان عمر بجواره كالسيف المسلول.

فلما توفى أبو بكر وولى عمر الخلافة واستقر فيها عشر سنوات تفجرت فيها ينابيع حكمته وعبقريته. وظهر فيها صدق إيمانه وقوة يقينه وسعة أفقه وحسن فهمه لدينه وإخلاصه فى عمله على التمسك بالحق والعدل.

وفى وصحيح البخارى حديث يشير إلى خلافة أبى بكر وأن مدتها ستكون قصيرة ، وإلى خلافة عمر، وأنها ستكون طويلة وفيها خير وبركة ونعمة على المسلمين.

ففى خلافة عمر اتسعت رقعة الدولة الإسلامية وفتحت البلاد ومصرت الأمصار وخضعت للمسلمين أمم ذوات مدنيات قديمة كالفرس والروم. وقد واجه عمر هذه الفتوحات برأيه السديد، واجتهاده المتجدد وفكره المتبصر، ولم يقتصر على الاجتهاد فيما لا نص فيه، بل اجتهد فى تعرف المصلحة التى يرمى إليها النص من كتاب الله ومن السنة، واسترشد بهذه المصلحة فى أحكامه، أى أنه كان يعمل بروح الشريعة لا بمنطوقها فقط.

أمثلة من اجتهاد عمر:

١- أباح القرآن زواج المسلم من المسيحية أو اليهودية فقال تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ (المائدة/٥). ولما فتح المسلمون المدائن تزوج حذيفة بن اليمان بامرأة من أهل الكتاب فكتب إليه عمر أن خل سبيلها. فكتب إليه حذيفة: لن أخلى سبيلها حتى تخبرنى أحلال هى أم حرام، فكتب إليه عمر: « أعزم عليك ألا تضع كتابى هذا حتى تخلى سبيلها فإن فى نساء الأعاجم خلابة فإذا أقبلتم عليهن غلبنكم على نسائكم ».

وفى رواية أخرى: « إنى أخاف أن يقتدى بك المسلمون، فيختاروا نساء أهل الذمة لجمالهن، وكفى بذلك فتنة لنساء المؤمنين ». فالجندى المسلم هنا يناقش الخليفة، والخليفة يوضح الحكمة، فزواج الكتابية حلال، ولكن إذا ترتب عليه مفسدة أبيح منعه، فدرء المفاسد مقدم على جلب المصالح. أو هو من باب تقييد المباح لحاجة الناس إلى ذلك. قال محمد صاحب أبى حنيفة: وبهذا نأخذ وإن كنا لا نراه حراما.

٢- روى ابن عباس أن الطلاق الثلاث دفعة واحدة كان يعد طلقة واحدة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وسنتين من خلافة عمر. ثم وجد عمر أن الناس أكثروا منه مخالفين بذلك شرع الله، فقال: إن الناس قد استعجلوا فى أمر كان لهم فيه أناة، فلو أمضيناه عليهم ؟ فأمضاه عليهم تأديبا للمطلقين، وزجرا لغيرهم.

٣- أمر الله تعالى بقطع يد السارق والسارقة فى قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ﴾ (المائدة/٣٨). وحلت بالمسلمين أيام عمر مجاعة فكثر السراق، فأوقف عمر إقامة الحد عليهم، إذ وجد أن المصلحة المرجوة من العقوبة لا تتحقق مع مجاعة تلجئ الناس إلى أكل الحرام.

٤- سرق غلمان لحاطب بن أبى بلتعة ناقة لرجل من مزينة وأكلوها، وأقروا بذلك أمام عمر رضى الله عنه، فأمر بقطع أيديهم، ثم عاد فأمر بردهم، وقال لعبد الرحمن بن حاطب : أما والله إنكم لتستعملونهم وتجيعونهم حتى إن أحدهم لو أكل ما حرم الله لكان له حلالا، فلن أقطع أيديهم، إذ لم أفعل فلأغرمنك غرامة توجعك: ادفع ضعف قيمة الناقة. وكانت قيمتها أربعمائة، فدفع له ثمانمائة.

٥- جعل الله للمؤلفة قلوبهم نصيبا مفروضا من الزكاة فى قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة/٦٠). ولم يقف عمر أمام هذا النص جامدا، بل فهم أن المقصود إعزاز الإسلام وتكثير سواد المسلمين حينما يحتاجون إلى ما يقويهم ويعزهم، وقد عز الإسلام، وكثر المسلمون حتى أصبح الإعطاء على هذا الوجه ذلة وخنوعا فمنعه عمر وهو لا يريد إلا العزة التى أرادها الإسلام للمسلمين.

٦- لما فتح الله على المسلمين العراق والشام عنوة، كانت ظواهر النصوص تقتضى أن تقسم أربعة أخماس الغنيمة بين الغزاة الفاتحين، والخمس فقط للمصالح المنصوص عليها فى قوله تعالى : (واعلموا أنما غنمتم من شىء فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) وقد طالب الغزاة بذلك فعلا، وأيدهم كثيرون، ولكن عمر رضى الله عنه رأى بثاقب فكره وبعيد نظره أن يطبق ذلك على ما غنموه من الأموال المنقولة، فأما الأرض فرأى أن تبقى فى يد زارعيها نظير مال يدفعونه كل سنة للدولة لتنفق منه على الجيوش المرابطة على حدود العراق والشام وغيرهما من أقطار الدولة. وعلى اليتامى والمساكين وابن السبيل من هذه البلاد كلها، وقال : إذا لم أفعل ذلك فمن أين آتى بالمال الذى أحافظ به على هذه الحدود ؟ وقد تفتح بلاد أخرى ليس فيها ما فى العراق والشام فيكون أهلها عبئا علينا، فمن أين نأتى بالمال الذى نعول به فقراءهم، فوافقوه على ذلك .

٧- كان عمر يتعسس بالليل، ويتفقد الرعية، ويتعرف أخبار الناس وسمع ليلة بكاء طفل فقال لأمه : أسكتى طفلك، وقبيل الفجر سمع نفس الطفل يبكى ، فقال لأمه: إنك أم سوء، فقالت الأم: إننى أعلله على الفطام فيأبى على إلا رضاعا، إن عمر لا يفرض العطاء إلا لمن بلغ الفطام، فذهب عمر يصلى الفجر وما يستبينون صلاته من غلبة البكاء. وبعد الصلاة قال: يا ويح عمر كم قتل من أولاد المسلمين. ثم أمر مناديا ينادى فى الناس ألا تعجلوا أولادكم على الفطام، فإنا نفرض لكل مولود فى الإسلام عطاء.

٨- وبينما عمر يتعسس بالليل سمع بعض نساء المدينة تقول :

هل من سبيل إلى خمر فأشربها   هل من سبيل إلى نصر بن حجاج

فلما أصبح دعا بنصر بن حجاج فرآه جميلا وسيما فأمر بقص شعره فزاد جمالا، فأمر بأن يعمم فزاد جمالا، فأمر بإخراجه من المدينة وقاية للنساء من الافتتان به.

صفات المجتهد :

للمجتهد فى الشريعة صفات معينة لا بد من التحلى بها حتى يكون صاحبها أهلا لمنصب الاجتهاد.

ومنصب الاجتهاد من أسمى المناصب الدينية والدنيوية لأن صاحبه يتكلم مبينا حكم الله تعالى.

(أ) فينبغى للمجتهد أن يقصد بعمله وجه الله، وأن يخلص لله فى طلب الحقيقة، ومن أخلص لله ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه.

(ب) وينبغى ألا يسارع إلى الفتوى بدون علم؛ لأن ذلك افتراء على الله وافتيات على الشرع، قال تعالى : ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ﴾ (النحل/١١٦).

(جـ) ينبغى أن يتمتع المجتهد بالعلم والحلم والوقار والسكينة، فالعلم يعرف المرء رشده، والحلم كسوة العلم وجماله، والوقار والسكينة من ثمرات العلم.

(د) معرفة الناس، فإن الجاهل بأحوالهم يفسد بالفتوى أكثر مما يصلح إذ يروج عنده مكرهم وخداعهم حين يتمثل له الظالم بصورة المظلوم والمبطل بصورة المحق، وقد ورد فى صحف السابقين : « ينبغى للعاقل أن يكون بصيرا بزمانه مقبلا على شأنه ».

شروط الاجتهاد :

١- العلم بالقرآن الكريم، وما جاء فيه من أحكام. ولا يشترط أن يكون المجتهد حافظا لجميع القرآن، بل يكفى أن يكون قادرا على جمع ما يرتبط بموضوع بحثه.

٢- الإحاطة بالسنة النبوية المطهرة، وليس معنى ذلك أن يكون حافظا لجميع الأحاديث، ولا أن يكون حافظا لأحاديث الأحكام جميعها، ويكفى أن يكون عالما بمراجعها وبمواضع الأحاديث فى كتب السنة المعتمدة وأن يكون عارفا بما قاله المختصون فى الحديث من صحة أو ضعف وما قالوه فى رجاله من جرح أو تعديل.

٣- العلم بمقاصد الشريعة الإسلامية، وأحوال الناس وما جرى عليه عرفهم، وما يحقق مصالحهم الدنيوية والأخروية والقدرة على معرفة علل الأحكام، وقياس الأشباه على الأشباه، وليستطيع فهم الوقائع واستنباط الأحكام الملائمة لمقاصد الشارع والمحققة لمصالح العباد المعتبرة.

٤- معرفة قواعد اللغة العربية، وطرق دلالتها على معانيها مما يلزم لفهم نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية.

٥- معرفة مواقع الإجماع، بحيث يعرف أن المسألة محل الاجتهاد لم يكن فيها إجماع سابق على خلاف رأيه، ولا يلزمه حفظ جميع مواقع الإجماع.

٦- الإحاطة بالناسخ والمنسوخ من القرآن الكريم والسنة النبوية، وما يلحق بذلك من علوم القرآن والحديث.

٧- أن يكون المجتهد عدلا مجتنبا للمعاصى القادحة فى العدالة حتى يتقبل الناس منه الاجتهاد والفتوى .



الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

